

# المومياءات المصرية

من الموت الى الخلود



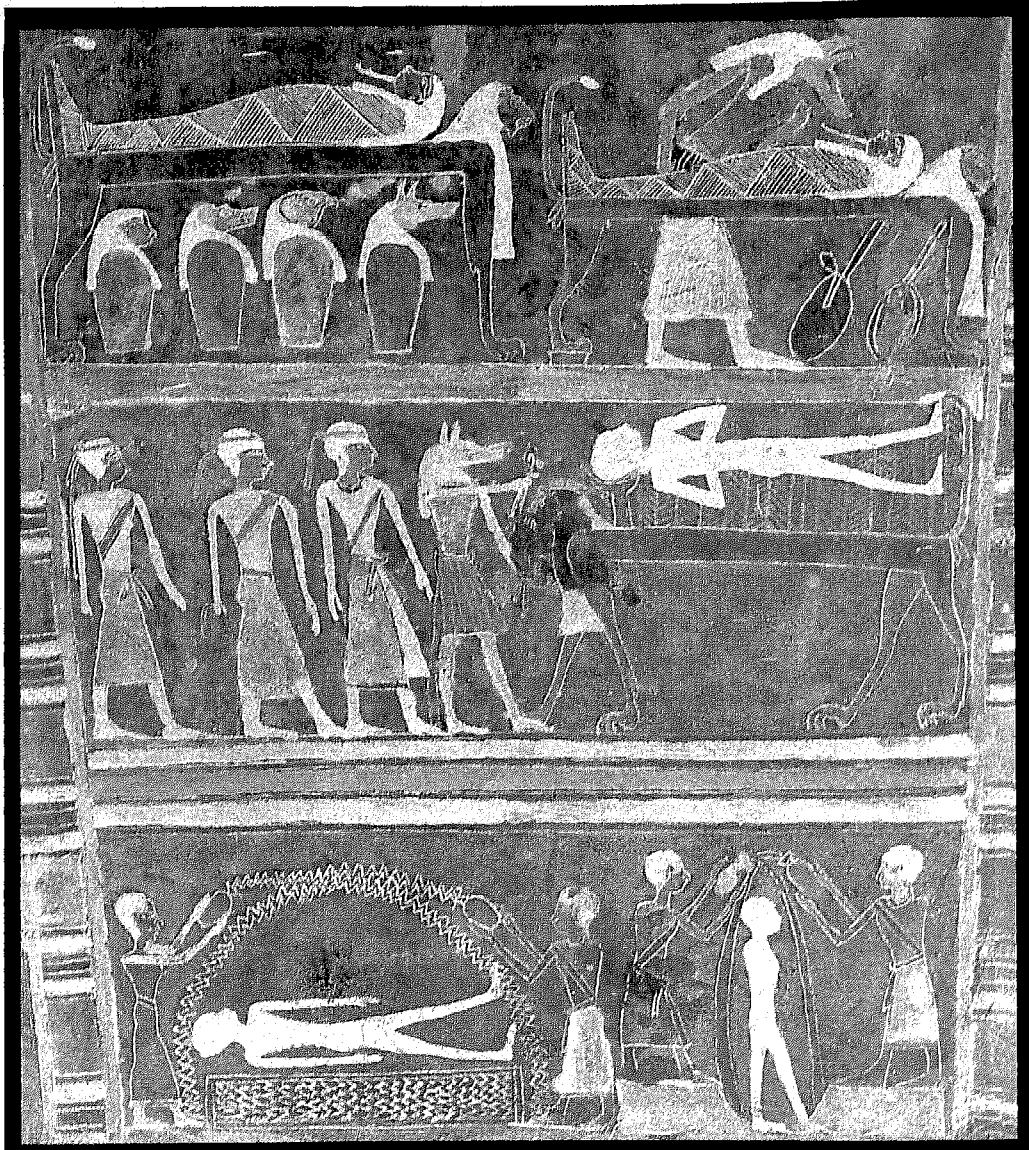
دار الفكر  
للدراستات  
والنشر والتوزيع

فرانسواز دونان

روچيه ليشتنبرج

الجزء الاول

ترجمة : ماهر جويجاتي





المومياءات المصرية  
من الموت الى الخلود

الطبعة الأولى  
القاهرة ١٩٩٧  
جميع الحقوق محفوظة



القاهرة : ش هشام لبيب - رقم ٤٠  
مدينة نصر - المنطقة الثامنة  
أسسها  
الدكتور طاهر عبد الحكيم ١٩٨٤  
تليفون : ٢٧٣٥٠٧٤

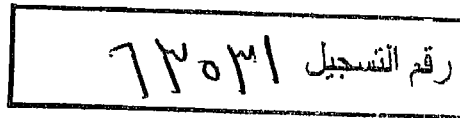
صدر هذا الكتاب بالتعاون مع  
المركز الفرنسي  
للثقافة والتعاون



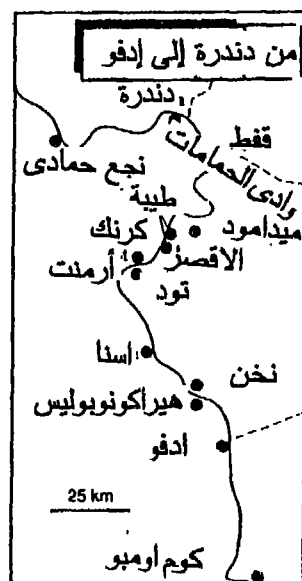
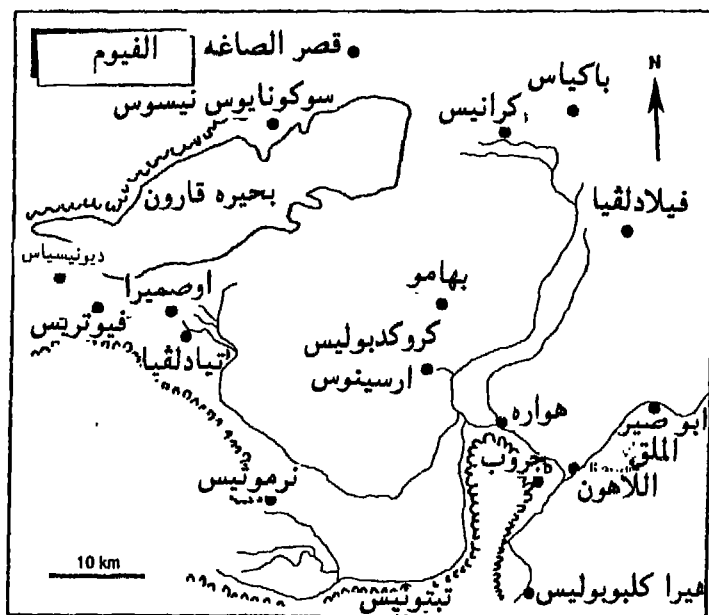
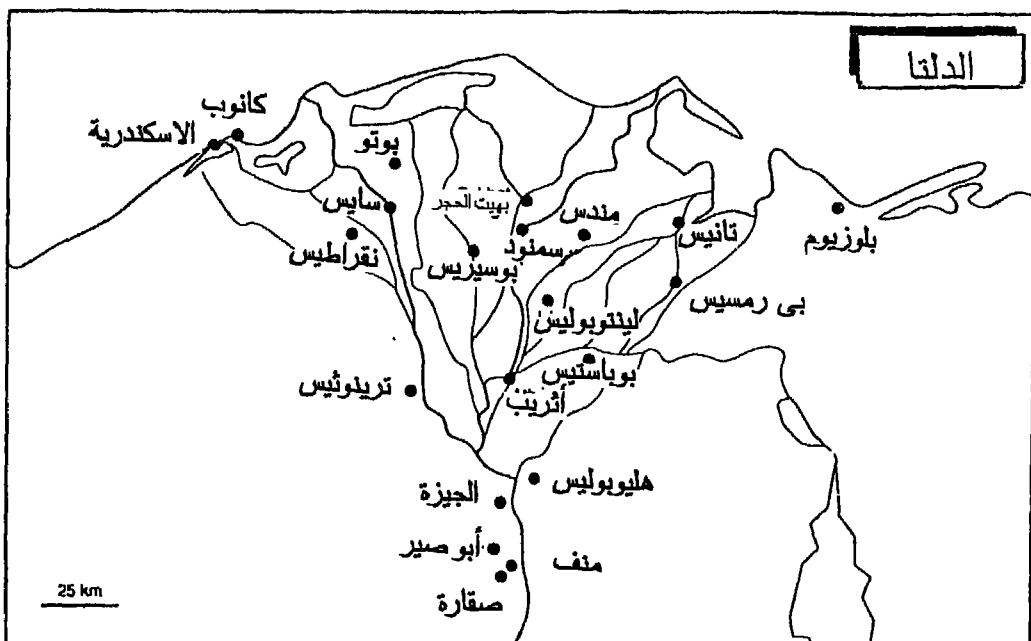
فرانسواز دونان  
روچيه ليشتنبرج

# المومياءات المصرية من الموت الى الخلود

ترجمة : ماهر جويجاتي











## الفصل الأول

### فجر التحنيط

#### (١) إعمار مصر فى عصر ما قبل التاريخ

ترجع أولى المحلات البشرية فى وادى النيل الى عصور موعلة فى القدم، حيث عثر العلماء على آثار للإنسان الى منذ العصر الحجري القديم الأوسط (عام ١٢٠٠٠٠ ق. م تقريباً). وتزداد القرائن على وجود مواطن سكنى الإنسان فى العصر الحجري القديم الأعلى، أى فيما بين ٤٠٠٠٠ و ١٥٠٠٠ ق. م. وربما كانت هذه الجماعات البشرية قد استقرت فوق المدرجات المشرفة على النيل. وفى هذا العصر وفدت على ما يبدو عناصر من أقوام قادمة من افريقيا الشمالية مارة ببرقة والواحات. ولاشك أنها كانت تحيا حياة ترحال، رغم أن بعض المواقع قد توحى بوجود إرهابات لحياة حضرية مستقرة. وقد خلقت لنا هذه الأقوام حصيلة هائلة من الأدوات الحجرية.

وفما بين ١٥٠٠٠ و ١٠٠٠٠ ق. م، وفدت جماعات بشرية إلى الوادى لتستقر فيه، دفعها إلى ذلك، بلاشك الجفاف المتعاضم الزاحف على مناطق الصحراء الكبرى، حتى أصبحت غير صالحة لإعاشة أقوام آخذة فى الإزدياد. ومن سمات هذه الجماعات التى عثر على بقايا محلات سكنية لها، لاسيما فى حلوان وجبل السلسلة، أنها كانت تملك أدوات رفيعة المستوى. وإلى هذا العصر ترجع واحدة من أقدم الجبانات فى وادى النيل، وتقع إلى الشمال من وادى حلفا.

واعتباراً من سنة ٧٠٠٠ ق. م، يتبين بوضوح الاتجاه إلى التحضر وحياة الإستقرار. فانتقل الإنسان من حياة الصيد شبه البدوية إلى حياة كرسى فى معظمها للزراعة وتربية الحيوان، الأمر الذى أصبح متاحاً بعد استئناس العديد من أنواع الحيوانات. ولكن هذه الظاهرة سارت ببطء شديد. فقد وجدت جنباً إلى جنب، أقوام سبق أن تحضرت واستقرت، وأخرى مازالت على عاداتها من الصيد والتقاط الغذاء.

أما حضارة العصر الحجري الحديث فى الفيوم التى ترجع إلى حوالى ٥٠٠٠ ق. م فقد خلّفت لنا آثاراً كثيرة بدءاً من زراعة الحبوب وبقايا بعض الحيوانات الداجنة وسلال ونسيج من الكتان وصولاً إلى أدوات حجرية جميلة. وقد يرجع تاريخ ثقافة البدارى فى مصر الوسطى إلى نفس هذا العصر.

وتدريجياً (وفيما بين ٤٠٠٠ و ٣٢٠٠ على وجه التقريب) أخذت ثقافة تدعى ثقافة نقادة، نسبة إلى أهم مواقعها الأثرية فى صعيد مصر - أخذت تنتشر فى الوادى. ومن المتفق عليه، أن الأقوام التى طورت هذه الحضارة كانت قادمة من المناطق الصحراوية الواقعة على جانبى الوادى، عند مستوى الجندل الأول. وتم التحقق من وجود محلات سكنية هامة لها، فى الجبلين وهيراكنبوليس (الكوم الأحمر، حالياً - م.) فى الجنوب وهيلوبوليس والمعادى فى الشمال. ويمكن أن نلاحظ أوجه الشبه بين هذه الثقافة وثقافات الشرق الأدنى المجاور، لاسيما فى مواقع الشمال. إننا ندين لهذه الحضارة التى كان يعمل أهلها فى الزراعة وتربية الحيوان، ويمارسون عدداً من الصناعات الحرفية ولاسيما صناعة الفخار - إننا ندين لهم بأولى الدفنيات المتطورة إلى حد ما.

## (٢) الدفنيات الأولى

فى العصر الحجري الحديث، مع بداية الألف الخامس، كانت المقابر عبارة عن حفرة بسيطة محفورة فى التربة، على عمق بسيط. وقد يوضع فى الحفرة الواحدة جثة واحدة أو أكثر وتكون فى وضع مثنى وتدثر بجلد أو حصير ويتجه الرأس ناحية الجنوب والوجه ناحية الغرب. هكذا تبدو مقابر مرمدة بنى سلامة فى الدلتا. وفى وقت لاحق، كانت الدفنيات فى العمرى، على مقربة من حلوان، من النمط نفسه، ولكن بعض المتوفين كانوا يرتدون حلياً من الصدف أو أحزمة من الخرز المصنوع من الإستيايتيت. وفى البدارى، فى مصر الوسطى، على وجه الخصوص، اعتباراً من ٤٥٠٠ ق. م أخذت أهمية التجهيزات الجنائزية تزداد. فوزعت بعض الأشياء حول الجسد: آنية فخارية، حجر ظران مشطوفاً، بعض الحلى وأدوات الزينة (إبر وأمشاط من العاج أو العظم، صلايات لمساحيق الزينة). وبدأت تظهر فى بعض المقابر تماثيل صغيرة من الحجر والعاج أو الطين المحروق تمثل نساءً، لهن فى

الغالب ملامح جنسية ملحوظة رغم بساطة خطوطها وطابعها الزخرفي. والحفر هي أحياناً مستطيلة، وقد تكرر أحياناً استخدامها في الدفن. كما توجد أيضاً مقابر للحيوانات، وسط مقابر البشر، ودثرت هي أيضاً بالجلود.

وفيما بعد، وفي عصر ثقافة نقادة، واعتباراً من ٤٠٠٠ ق. م، عثر على نفس النوع من التجهيزات في المقابر، وإن وجدت معها أنواع جديدة من الخزف، وكمية ضخمة من أشياء مصنوعة من العظم أو العاج، والعديد من نماذج الصلايات رفيعة المستوى، على هيئة حيوانات تتميز إلى حد كبير ببساطة خطوطها وطابعها الزخرفي، وقد يخطر على بالنا أن وظيفتها كانت وظيفة سحرية ودينية. وقد عثر في إحدى جبانات الجبلين (منتصف الألف الرابع) على جزء من نسيج بزخارف ملونة وكان على ما يعتقد قد استخدم في لف شخص بعد وفاته. وتصور الزخارف راقصات ورجالاً يصطادون فرس النهر ومراكب ومجدفين... وفي مقبرة أخرى استطعنا أن نكتشف قائم سرير من الخشب على هيئة قدم حيوان له ظلف. أما تماثيل البشر الصغيرة، للنساء والرجال، فهي كثيرة. كما أخذت المشغولات النحاسية المطروقة (من حلى وأسنة حراب) في الظهور.

واعتباراً من منتصف الألف الرابع، أصبحت المقابر أكثر اتساعاً، وأكثر اتقاناً، ومجهزة في الغالب تجهيزاً فاخراً، الأمر الذي يعكس بكل تأكيد مزيداً من الرخاء. وهيمن الشكل المستطيل، وأخذ القوم يستخدمون الطوب لتكسية الحوائط الداخلية للمقابر. وأصبح الخزف موجوداً بوفرة، وقد زخرف في الغالب بصور حيوانات ذات ملامح بسيطة وصور مراكب. وتصور تماثيل صغيرة من الطين المحروق نساء يرفعن سواعدهن، وربما كان لهن علاقة بالخصوبة أو بعودة الحياة بعد الوفاة. ومن ذلك الحين سنجد في المقابر أشياء جميلة، لم تكن بكل تأكيد من الأشياء التي شاع استعمالها، بل كان هدفها بالأحرى إبراز علو شأن مالكها: فنذكر على سبيل المثال إناء من الحجر الصلد على هيئة ضفدعة، أو سكيناً من الطران له مقبض من عاج، نقشت عليه صور حيوانات، ويحتفظ المتحف البريطاني بكليهما. كما نشير أيضاً إلى سكين جبل العركي في متحف اللوفر. وقرب نهاية الألف الرابع، بدأنا نعثر على حلى من ذهب ومن فضة وأحجار نفيسة. ويعكس وجودها الأوضاع الاجتماعية لأصحابها وتشهد على أنشطة تجارية متطورة (فاللآزورد والسبيج هما من المنتجات المستوردة). وفي هذه المقابر كان الجسد يسجى، في وضع يقلد وضع الجنين في بطن أمه، ويدثر في حصيرة أو قطعة نسيج ويتجه وجهه ومختلفة. كما بدأت تظهر عادة استخدام تواييت من الخيزران أو الطين أو الخشب.

إن مقبرة هيراكنبوليس (الكوم الأحمر، حالياً - م.) رقم ١٠٠ التى يرجع تاريخها الى حوالى ٣٣٠٠ ق. م لتثير اهتمامنا على نحو خاص. فمساحتها كبيرة إلى حد ما، وحوائطها وأرضيتها من الطوب، وقد احتفظت بأشياء عديدة، ورسوم جدارية تصور مراكب وحيوانات متوحشة ورجالاً يتقاتلون أو يصارعون الحيوانات : إنه عالم صيد وحروب يذكرنا بزخارف الأوانى والصلابات المزدانة. شكل (١)

ومن الملاحظ، أنه منذ عصر ما قبل الأسرات والخزف والمشغولات الفاخرة تصنع خصيصاً لتوضع فى المقابر: فالفارق كبير بين نوعية الأوانى التى عثرنا عليها فى المقابر وتلك التى أتت إلينا من المناطق السكنية. ومن ناحية أخرى، نلاحظ تنوع التجهيزات الجنائزية لتعبر عن تمايز طبقي متزايد. ولا تظهر الأشياء ذات الطابع السحري الدينى إلا فى المقابر الأكثر ثراءً. وفى بعض الأحوال، وجدت عند حافة الحفرة جرار ملئت رماداً أو عظاماً متفحمة، وهو ما يفصح عن وجود شعيرة قربان من الأضاحى. فضلاً عن ذلك، فإننا لا نعرف سوى النزر اليسير عن المعتقدات الجنائزية لأبناء هذا العصر. على أن موضوع المركب الذى كثيراً ما نلتقى به فى منتجات الخزف فى الألف الرابع، مثلما نشاهده فى زخارف مقبرة هيراكنبوليس، يمكن أن يحمل دلالة دينية، فيشير إلى رحلة المتوفى فى العالم الآخر.

وقد بقيت الأجساد أحياناً فى هذه المقابر على درجة كبيرة من الحفظ، كلما كانت تلامس الرمال بشكل مباشر. ويعتبر «چينجر»، الموجود حالياً فى المتحف البريطانى، من أكثر الأمثلة وضوحاً على ذلك. إن حجم الجسد فى وضع الإنشاء، يعادل حجمه الطبيعى تقريباً، الأمر الذى يعطيه مظهر حياة أخذ. لقد احتفظ الجسد بشعره وأظافره، والبشرة لونها أسمر فاتح تميل إلى اللون الأحمر. وبالنسبة لنا يصل عمر هذه المومياء التلقائية الى حوالى ٥٢٠٠ سنة.

إن الأمثلة التى وصلتنا من هذا النوع من المومياوات قليلة جداً. إن سوء حفظها يفسر الأمر، إذ يبدو أن حيوانات الصحراء قد نبشتها وأتلفتها. بيد أنه من الراجح أن خروج هذه الرفات البشرية الى النور وهى محفوظة حفظاً جيداً، بمجرد أن تغلب الناس على ما قد يثيره مثل هذا الظهور من فزع ورعب، قد حمل المصريين على التفكير فى أن حياة الفرد تستمر بعد الوفاة. وخير شاهد على ذلك أن الأشياء التى كان المتوفى يستخدمها فى المعتاد قد وجدناها بجواره فى المقبرة.

وتبرهن دفنات عصر ما قبل الأسرات التى كشف عنها «پترى» Petrie فى نقادة عن عادة تختلف كل الاختلاف. إذ يبدو الجسد وقد تقطعت أوصاله مع اختفاء الجمجمة أحياناً. وقد «رست» العظام حسب أشكالها: العظام الطويلة، فالفقرات الح... وهو ما حملنا على الإعتقاد بوجود عملية إعادة دفن (تم خلالها رصّ العظام حسب أشكالها). فربما دفنت الأجساد فى مرحلة أولى حتى تحللت وتم إخراجها من القبر فى مرحلة تالية ليعاد دفن الهياكل العظمية بعد تنظيفها وفصل أجزائها. وربما كانت عبارة «تجميع العظام» التى نلتقى بها فيما بعد، بعد فترة طويلة، فى «متون الأهرام»، هى إشارة إلى هذه الممارسة. ووفقاً لفرضية أخرى، ربما كان الأمر، يتعلق بإعادة دفن رفات بشرية، نبشها اللصوص وسطوا عليها. وفى الواقع يذهب البعض إلى أن سرقة المقابر فى وادى النيل قد بدأت منذ وقت مبكر جداً... إلا أنه قد حدث فى حالة واحدة على الأقل، سجلها «وليم فلنדרز پترى» W. F. Petrie (المقبرة T5 فى نقادة) أن لوحظ أن العظام قد احتفظت بآثار عضّ، الأمر الذى رأى فيه البعض دليلاً على وجود عادة أكل لحوم البشر كعادة شعائرية وفى واقع الأمر مازالت هذه النوعية من الدفنات تثير لنا مشكلة، وإن ظلت ظاهرة نادرة جداً، وليس فى وسعنا أن نقدم تفسيراً شافياً، فى غياب أى اكتشاف جديد.

### (٣) العادات الجنائزية فى العصر العتيق

#### المقابر وأثاثها

إن الرغبة فى حماية أجساد الموتى من أعمال السلب والعبث بها، وربما أيضاً محاولة تجنب ظهورها من جديد، قد دفع القوم إلى تشييد المقابر علوة على حمايتها. وبدأنا نلاحظ قرب نهاية عصر ما قبل الأسرات أن الأجسام كانت توارى فى توابيت من الخشب أو الطين المحروق، وانتشرت عادة تغطية الحفرات بقطع من الخشب أو أغصان الشجر. وكان يخصص قسم مستقل داخل المقبرة لتخزين القرايين. واعتباراً من الألف الثالث، كفت المقبرة عن كونها مجرد حفرة، وباتت تضم بناءً سفلياً، من ناحية، وبناءً علوياً، من ناحية أخرى، يبدأ من غطاء بسيط من الخشب إلى بناء مشيد من الطوب اللبن، سرعان ما سيتخذ هيئة المصطبة. أن هذا النمط من المقابر الذى أطلق عليه فى اللغات الأجنبية الاسم

العربي الدال على الأريكة، يتخذ شكلاً مستطيلاً، متوازي السطوح، جوانبه طويلة وتميل إلى هذا الحد أو ذاك. وسوف ينتشر هذا النمط من المقابر خلال الدولة القديمة على وجه الخصوص.

ومنذ مطلع الأسرة الأولى، أخذت المقابر «الثرية» تشيد بكاملها بالطوب وقد تصل إلى أبعاد ضخمة، نذكر منها على سبيل المثال المقابر الملكية فى سقارة وأبيدوس. وهكذا، فإن مقبرة «واچى» فى سقارة، كانت تبلغ أبعادها حوالى ٥٠ متراً فى ١٥، وكانت تبدو بمثابة كتلة ضخمة من الطوب، جوانبها على هيئة «واجهة القصر». وكان سلم موحد بكتلة حجرية يفضى إلى حجرة الدفن، التى حفرت إلى حد ما على عمق كبير. وكانت هذه الحجرة محاطة بعدد من الغرف، وهى «المخازن» المخصصة للتجهيزات الجنائزية، لاسيما الآنية الحجرية والخزفية، التى يعثر عليها فى المعتاد بكميات كبيرة فى هذا النوع من المقابر. وفى إحدى الدفنان الملكية فى سقارة من الأسرة الثانية، تم الكشف عن وجبة جنازية كاملة على مقربة من التابوت. وكانت تشتمل على خبز وسمك وطيور وقطع لحم عجل وفاكهة وفطائر ونبيد.

وتحاط الدفنان الملكية بدفنات الأشراف، والحرفيين والخدم. وتتقيد مقابر الأشراف من الناحية المبدئية بنفس تخطيط الدفنان الملكية ولكن بمقياس أكثر تواضعاً. إنها تضم فى المعتاد حجرة دفن، تحيط بها من كل جانب، حجرتان للمخازن. إن مصطبة نجع الدير رقم ١٥٣٢، خير شاهد على ذلك.

وتتكون دفنات الخدم فى المعتاد من حفرة ضيقة مستطيلة لها سقف من خشب، مغطى ببناء علوى من الرمل المخلوط بشقف من الحجر، وكل ذلك مغطى بمدماك محدب من الطوب. وكان يوضع بجوار التابوت أشياء لها فى الغالب طابع مهنى. وعلى ذلك، كانت المقابر الموزعة حول مقبرة الملكة «ميرنيت» فى سقارة تضم أدوات من النحاس والظران وأوعية طلاء ونماذج مراكب وسكاكين القصايين، وكلها أشياء تعكس أنشطة شاغل المقبرة.

أما المقابر الأكثر فقراً فكانت مجرد حفرة بيضاوية محفورة فى الرمل ومغطاة ببعض الأغصان أو الحصر، ثم تهال عليها الرمال التى استخرجت من الحفرة على شكل أكمة. وقد عثر حتى فى هذه المقابر الفقيرة على بعض الأوانى الفخارية أو الأدوات الموزعة حول الجسد.

## الموتى ودثارهم

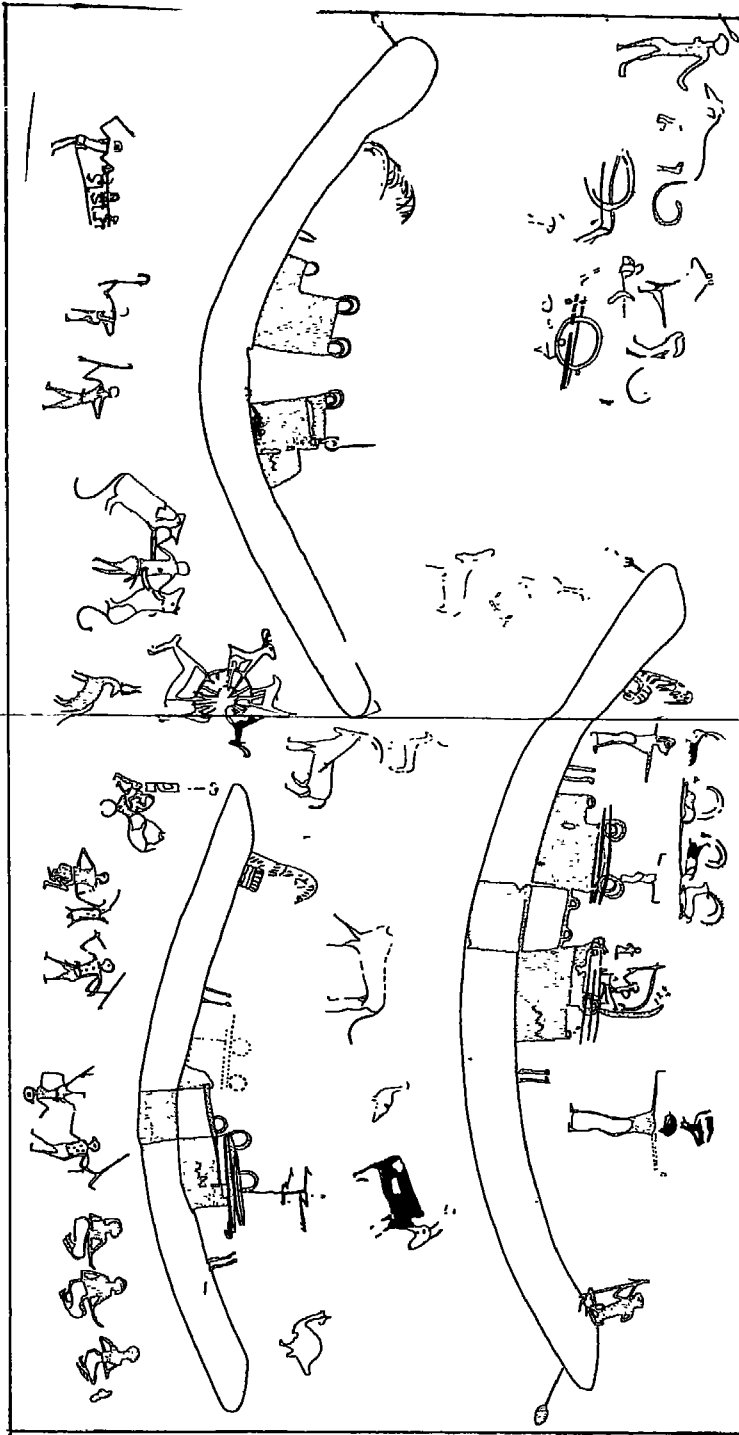
فى مقابر الأثرياء (أكانوا ملوكاً أم أشرافاً) كانت الأجساد المسجاة فى التوابيت ملفوفة بكل عناية باللفائف. ولم يتبق لنا منها شىء، عدا بعض الإستثناءات القليلة: ومع ذلك فقد عثر فى سقارة على بعض النماذج التى ترجع إلى الأسرة الثانية. كانت اللفائف الكتانية التى تحيط بها قد تشبعت بالراتنج فظلت بعد أن جفت محتفظة بشكل الجسد. ويبدو أن الوجه والأعضاء التناسلية قد أعيرت إهتماماً خاصاً. وأقدم الأمثلة على هذا، هو الساعد الذى عثر عليه فى مقبرة الملك «چر» فى أبيدوس (الأسرة الأولى) والذى لم يحتفظ إلا بالعظام والكتاف والأساور. وتدفعنا بعض التوابيت إلى الظن بأن المصريين منذ ذلك الوقت كانوا يأخذون بوضع الجسد ممداً وإن ظل وضع الإنشاء هو الغالب.

إن الدفنات الفقيرة وهى أقل عرضة لأعمال السلب والنهب، قد احتفظت فى المقابل بأعداد كبيرة من الأجساد فى وضع الإنشاء، ومستلقية على الجانب الأيسر. ولم نعث على جسد واحد من الأجساد التى دفنت فى هذا النوع من المقابر سالماً، كما هو الحال بالنسبة لأفراد عصر ما قبل الأسرات : فقد عثر على هياكل عظمية فحسب.

وعلى ذلك، فإن الرغبة فى حماية الأجساد من حيوانات الصحراء أو من اللصوص والسايلين قد دفع أقوام هذا العصر الى ابتكار هياكل على قدر من التعقيد أحياناً، كان القاسم المشترك الذى يجمع بينها هو الإبتعاد عن ملامسة رمال الصحراء الماصة للرطوبة، الأمر الذى ساعد على تعفن الجسد وتخلله. وإذا أرادوا حماية الجسد من كلاب الصحراء فقد تركوه فريسة لديدان الجيفة... ومن الواضح ان مصرىى هذه العصور لم يدركوا خاصية الرمال الخيرة، إذا أحاطت بجسد المتوفى. وليس فى الأمر ما يثير دهشتنا فى هذه البلاد التى خاض فيها الإنسان على مرّ الأيام صراعاً مريراً مع الرمال (فكيف يمكن إذن اعتبار أن ما يشكل خطراً دائماً هو الطيف الأمين؟). (شكل ٢)

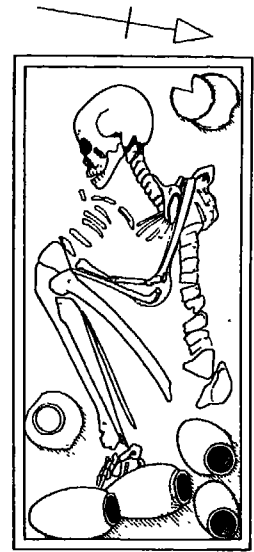
## مشكلة التحنيط

إن وجود الموميאות التلقائية قد دفع المصريون منذ وقت مبكر جداً إلى التفكير فى إمكانية الحفاظ على الجسد، وسوف نشاهد إذن كيف نشأت بالتدريج أساليب تقنية متنوعة غايتها ضمان سلامة الجسد، وتبلورت هذه المساعى ببطء شديد، وجرى العديد من المحاولات المتعثرة التى كللت بنتائج متفاوتة. إن الرغبة فى البقاء على سلامة الجسد



شكل (١)

زخارف مرسومة . المقبرة رقم ١٠٠ هيركنيوليس (الكوم الأحمر)



شكل (٢)

المقبرة رقم ١٢٢

زاوية العريان الاسرة الثانية



بأساليب صناعية رافقتها زيادة فى كمية الأشياء التى وضعت فى المقبرة حول المتوفى، وهو ما يعكس على ما يظن الاعتقاد فى استمرار الحياة بعد الوفاة.

إننا نعرف الآن أن المكونات الأساسية للتحنيط وهى كلمة لا نعرف على كل حال مقابلها اللغوى عند قدماء المصريين، كانت على النحو التالى:

- استخراج الأحشاء الداخلية.

- لف الجثمان باللفائف.

- استخدام الأدهان والراتنج.

- «حمام» النطرون.

هذه القائمة وإن لم تكن قائمة مستفيضة، فهى لا تتقيد بترتيب زمنى صارم، فتاريخ تنفيذ بعض العمليات لم يتحدد بشكل قاطع، وتبعاً لطريقة التحنيط التى يقع الاختيار عليها، ففى الإمكان الإستغناء عن بعض المراحل، وإن كانت معروفة. الأمر الذى يفسر التفاوت فى حفظ الأجساد، مع مراعاة ضخامة تأثير العوامل الخارجية بالطبع.

وبمرور الزمن وتدرجياً، توصل المصريون إلى إتقان مكونات التحنيط، أكثر فأكثر، وجرى استخدامها على امتداد مئات السنين حتى وصلت إلى أوجها بحلول الدولة الحديثة. ومن الناحية العملية احتاج الأمر إلى ألفى سنة.

## الفصل الثانى

### التحنيط فى الدولة القديمة

تكشف الدولة القديمة بجلاء عن وجود سلطة مركزية قوية. والنظام هو نظام يأخذ بالملكية المطلقة ذات الأصول الإلهية. الملك هو الملك وفى فلكه يدور كل شىء، وبوصفته هذه، فإن كل جميل ليس بالشىء الكثير عليه. إن أهرام الجيزة الضخمة التى شيّدت إبان الأسرة الرابعة لخير دليل على ذلك، وهكذا، فإن المقابر الملكية هى التى توفر لنا أساساً كل ما نعرفه عن العقائد والمعتقدات الجنائزية.

#### (١) تطور الأساليب التقنية

حتى نهاية الأسرة الثالثة، لم تفض الرغبة فى الحفاظ على الجسد سالماً إلى نتائج مقنعة رغم أنها كانت رغبة صادقة. إن الأسلوب الوحيد المستخدم كان يعتمد على لف المتوفى بأقمشة مشبعة بالراتنج، ويفضل ذلك، فإن أكثر ما وصل إلينا هو بعض القوالب المجوفة للأجساد التى عولجت على هذا النحو. وإذا استثنينا قدماً عثر عليها فى هرم «چسر»، وتعود إلى مومياة الملك، فلم تصلنا من هذا العصر أية جثة ملكية.

ومع مطلع الأسرة الرابعة، نخطو خطوة كبرى: فمن المؤكد أن الملكة «حتپ - حرس»، زوجة «سنفرو» ووالدة «خوفو»، قد تم استخراج أحشاء بطنها. وبالفعل فقد اكتشف «ريزنر» Reisner ، عام ١٩٢٥، على مقربة من هرم خوفو، فى حجرة صغيرة فى قاع بئر، على جزء من الأثاث الجنائزى الخاص بالملكة وكان يضم فيما يضم صندوقاً من الألبستر يتكون من أربعة عيون بها بقايا الأحشاء ملفوفة فى نسيج كتانى. وكان كل ذلك مغموراً فى محلول نظرون، ويسمح لنا هذا الإكتشاف أن نؤكد أن المصريين كانوا يعرفون أهمية استئصال الأحشاء الباطنية ضماناً لفاعلية عملية التحنيط وتجنب تحلل الجسد. كانت هذه القواعد العملية وفقاً على الملوك وعظماء البلد. والحالة هذه، لم تصلنا مومياة واحدة للملوك الدولة القديمة، فقد سلبت دفناتهم سلباً فادحاً على امتداد التاريخ. إن العثور على بعض

بقايا الهيكل العظمى للملك «چدكارع - إسيسى»، فى هرمه بسقارة، وهى تحمل بعض آثار التحنيط، ليمثل مع ذلك الإستثناء الوحيد.

وفى المقابل، فإن مثال الأمير «رع نفر» الذى عثر على رفاتة فى مصطبة فى ميدوم يقدم لنا مثلاً طيباً عن التحنيط فى هذا العصر. كان الجسد قد تم لفه بأقمشة مشبعة بالراتنج، فشكلت على هذا النحو ما يشبه القلب. وهكذا أعيد الوجه إلى ما كان عليه وكأنه حفر غائر. ومن ناحية أخرى، فقد تم استخراج أحشاء البطن التى لفت فى نسيج ووضعت فى كوة صغيرة نقرت فى إحدى حوائط حجرة الدفن. وقد عثر على مثل هذه الكوات فى العديد من مقابر جبانة ميدوم، ولكنها كانت قد أفرغت فى معظم الأحوال من محتوياتها (وفى الأسرة الرابعة كان فى الإمكان أن تحل حفرة نقرت فى أرضية الحجرة محل هذه الكوة). وفى الحجرة الجنائزية للهرم الناقص فى زاوية العريان، فى وسعنا أن نشاهد فجوة حفرت فى الصخر، خصصت للصندوق الكانوبى.

إن إستخراج الأحشاء سيصبح من الممارسات الشائعة جداً خلال الأسرتين الخامسة والسادسة، وإن لم تكن ثابتة، كما تشهد على ذلك مومياة امرأة من الأسرة السادسة عثر عليها فى إحدى مقابر الجيزة: فرغم أنها قد دثرت باللفائف بإتقان وارتدت فوق اللفائف ثوباً من الكتان، إلا أنه لم يتم استخراج أحشاء بطنها، إذ وجدت بقايا الأحشاء فى مكانها داخل الجسد. وفى الغالب لم يبق سالمًا من الأجساد سوى الهيكل العظمى، لأنها لم تعالج «بحمام النطرون». وفى المقابل كانت تقنية الحشو معروفة: فالتجوييف الباطنى لـ «رع نفر» كان مملوءاً بأقمشة مشبعة بالراتنج. وقد عثر فى ميدوم على حالة إستثنائية تماماً لعملية تفريغ الجمجمة، تمت على كل حال من خلال الثقب القذالى، وهو دليل إضافى على الأهمية التى أولاهها المصريون لاستخراج الأحشاء بشكل عام تجنباً لحدوث التحلل. ومع ذلك، فإن تفريغ الجمجمة لم يصبح ممارسة مؤكدة بشكل دائم إلا اعتباراً من الدولة الحديثة.

ويوجد نموذج كامل للتحنيط فى الدولة القديمة يخص مومياة من الأسرة الخامسة، وقد عثر عليها فى مقبرة عائلية بسقارة: إنها مومياة رجل فى حالة جيدة جداً من الحفظ وقد وضعت فى تابوت من الخشب فى قاع بئر. إن الأقمشة التى دثرت بها كانت مغطاة بالجص وقد اتقنت صناعته بحيث يصور تقاطيع الجسد. وقد لونت ملامح الوجه والشارب، كما أضيفت لحية مستعارة من القماش. لقد ظل القيام بإعداد قالب بالجص من قالب آخر، معمولاً به أيضاً فى الجيزة، عند نهاية الأسرة الخامسة وطوال الأسرة السادسة بأسرها، تارة للجسد بأكمله وتارة أخرى للرأس فقط. ومنذ الآن تظهر أهمية المحافظة على الرأس.

ويظهر نموذج يحتفظ به متحف بوسطن أن صب الجص كان يتم على ما يفترض على الجسد بعد وضعه فى التابوت لأن الواجهة الأمامية من الجسد وجانبه وحدها هى التى يغطيها الجص. وبوجه عام، فإن الجسد يدثر بالكامل فى الأكفان واللفائف، ومع ذلك هناك تقنية أخرى للـف الجسد باللفائف وتعنى بلف الأعضاء عضواً عضواً. وقد عثر على بعض الأمثلة فى الجبلين وسقارة. فأحد شاغلى «مقبرة المجهولين» بالجبلين، كان قد لف باللفائف بعناية تامة، وكان كل عضو من أعضائه على حدة، ورسمت ملامح الوجه على القماش باللون الأسود. كان مسجىً فى تابوت خشبى على جانبه الأيسر واضعاً رأسه على مسند رأس. وقرب نهاية الدولة القديمة، ظهرت الأقنعة الجنائزية المصنوعة من الطين النى المخلوط بالقش، وتبرز ملامح الوجه لمساة باللونين الأسود والأبيض.

ومنذ بداية الأسرة الرابعة تغير وضع الجسد فى المقبرة. فسرعان ما تم العدول عن الوضع «المتنى»، فى أكثر المقابر ثراءً، وإن ظل معمولاً به كقاعدة عامة فى المقابر الأكثر فقراً: ومن المحتمل جداً أن هذا الوضع كان لا يتفق مع المعالجات التى تجرى على الجسد، وفى مقدمتها استخراج أحشاء البطن. ويبدو المتوفى فى أغلب الأحوال فى وضع ممدود وقد استقرت أطرافه العليا على امتداد الجسد ووضعت اليدين على الناحية الخارجية من الفخذين. وفى ترابط مع الوضع المتمد للجسد اتخذ التابوت شكل صندوق من خشب ضيق وطويل. وفى الغالب، يوضع هذا التابوت فى تابوت آخر من حجر، لو كان صاحبه من الأثرياء. ويظهر هذا الثراء أيضاً فى المادة المستخدمة: جرانيت أسوان أم الحجر الجيري الأبيض المجلوب من طره. كما يظهر فى الزخارف الخارجية، التى تكون فى الغالب من النمط المعروف «بواجهة القصر». ومن ناحية أخرى، وفى دفنات الفقراء، يظل الجسد فى وضع إنثاء، وربما يوضع بكل بساطة فى جرة من الطين المحروق.

## (٢) العمارة الجنائزية

فى ظل الدولة القديمة، تطورت العمارة الجنائزية تطوراً ملحوظاً لتصل إلى مستوى من الضخامة مع المجموعات الهرمية الملكية، ومثالها الأول، وهو هرم «جسر» المدرج، يرجع إلى الأسرة الثالثة. وبدءاً من أبى رواش شمالاً وحتى ميدوم جنوباً، تتوزع أهرامات الملوك من الأسرة الثالثة وحتى الأسرة السادسة. لقد توصل المصريون إلى ابتكار تقنيات البناء

الحجرى (من المتفق عليه أن هرم «جسر» هو أول بناء فى العالم شُيد من الحجر)، كما أنهم امتلكوا ناصيت قطع أحجار فى صلابة الجرانيت أو البازلت. إن الأهرامات هى آثار معمارية معقدة، وما زالت أضخمها، تبدو حتى الآن متأثر تقنية حقيقية. ورغم مختلف النظريات التى تم اقتراحها، فلم تتوصل أى منها إلى تفسير مرض يشمل جميع أطوار تشييدها. ويكشف تنسيقها الداخلى عن إهتمام بالغ لحماية حجرة الدفن (وسوف يزداد هذا الإهتمام من أسرة إلى أخرى لىبلغ أقصاه فى ظل الدولة الوسطى). فوقع الإختيار على مواد صلبة (الجرانيت فى المقام الأول)، لتشييد الممرات الداخلية وحجرة الدفن، فيصعب على اللصوص إختراقها. كما وضعت المتاريس قبل حجرة الدفن مباشرة. ولا نشاهد أية زخارف داخلية فى أهرام الأسرة الرابعة، فى حين احتفظ هرم «جسر» بزخارف مصنوعة من قوالب صغيرة من القاشانى الأزرق، كما عثر على نقوش جدارية تصور الملك عند قيامه بشعيرة الركض احتفالاً بعيد «سد» فى «المقبرة الجنوبية» وسرايب الهرم ذاته. ومن ناحية أخرى، كانت حوائط الحجرات الجنائزية لأهرام الأسرتين الخامسة والسادسة مغطاة بالكامل بنصوص دينية على جانب كبير من الأهمية: إنها متون الأهرام.

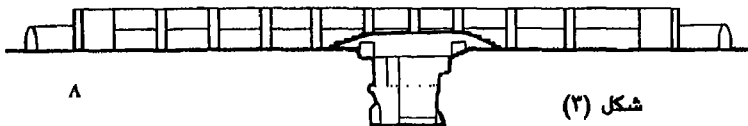
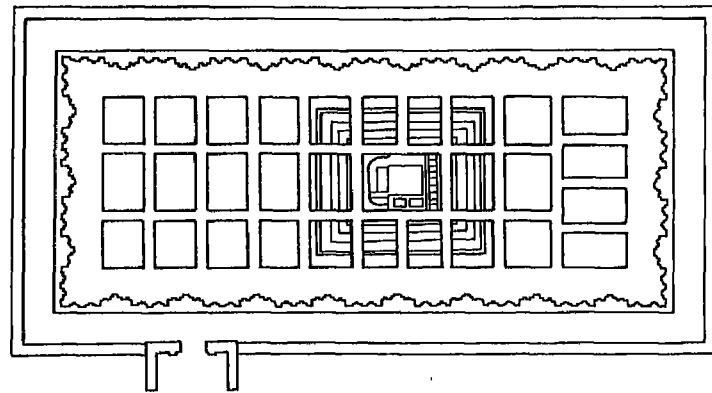
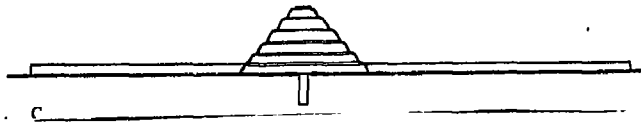
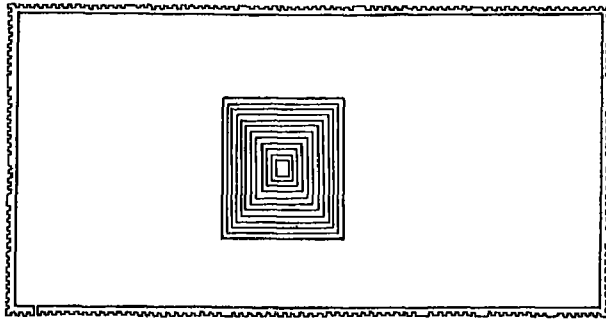
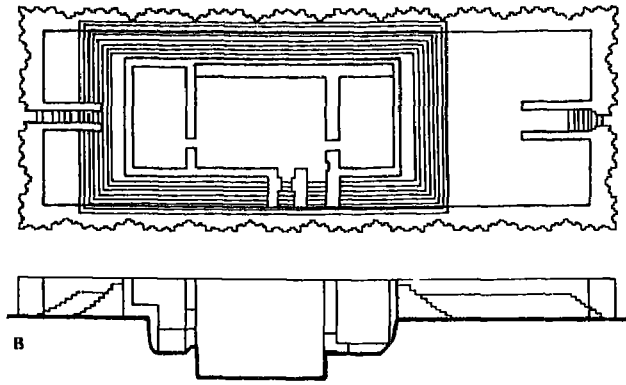
شكل (٣)

إن الهرم هو العنصر الذى يلفت النظر أكثر من غيره من العناصر التى تكون المجموعة الجنائزية التى تضم أيضاً، بوجه عام، معبدين، معبد أدنى (معبد الوادى) ومعبد أعلى (المعبد الجنائزى) يربط بينهما طريق صاعد. وكان هذان المعبدان يستخدمان أثناء الشعائر الجنائزية والطقوس التى تقام من أجل الفرعون المتوفى. ولم يحفظ لنا الدهر سوى القليل من بقايا هذه المباني، إذا استثنينا معبد الوادى للملك «خعفرع» الذى احتفظ بالجانب الأكبر من كسوته الجدارية وأعمدته المصنوعة من الجرانيت الوردى. ومع ذلك علينا أن نضع على حدة المجموعتين «الهرميتين» للملكين «جسر» و«سخم خت» اللتين تتكونان من سور ضخيم يضم فى حرمه كل المباني. وفيما يخص مجموعة «جسر» يجدر ملاحظة التكوينات المتميزة جداً الخاصة بالإحتفال بعيد «حب سد». إنها مبان لها وظيفة رمزية وسحرية بحتة، ومهمتها أن تضمن للفرعون المتوفى أن يظل يحتفل الى الأبد بهذا العيد. ومن ثم فالهياكل التى أقيمت على جانبي الفناء ليست سوى هياكل وهمية لا يستطيع المرء أن يدخل إليها، حيث أننا نعرف - حق المعرفة أن شعيرة الـ «حب سد» كانت تفرض على الفرعون «زيارة» كل واحد منها، وقد عثر على مقربة من العديد من الأهرامات إما على مراكب من حجر كتلك التى شيدت على امتداد طريق «أوناس» الصاعد، أو على

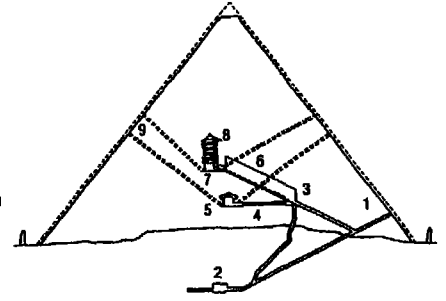
مراكب حقيقية. ويعتبر مركبا «خوفو» أفضل الأمثلة عليها. وتعيد هذه المراكب الى الأذهان الرحلة التي كان على الملك أن يقوم بها على متن مركب الشمس. وإن ظن البعض أن المراكب المصنوعة من الخشب ربما استخدمت أثناء رحلة الموكب الجنائزى.

وانتشرت المصطبة الحجرية فى أوساط الطبقة الحاكمة مع زيادة نظامها الخارجى والداخلى تعقيداً. وكقاعدة عامة أصبح وجود الهيكل ضرورياً، فكان خارج المصطبة فى بداية الأمر، ثم صار جزءاً منها، ويتصل بالخارج عن طريق ممر ضيق، خصص للشعائر الجنائزية. وأول الهياكل التى رأت النور كانت فى طرخان وترجع الى الأسرة الأولى. هذا الهيكل الذى قد تلحق به حجرات كمخازن للأثاث الجنائزى، يضم دائماً قاعة للقرايين بها الباب الوهمى الذى يسمح للمتوفى، معتمداً على السحر، بالخروج من المقبرة. وتصور مقبرة «مريوكا» فى سقارة المتوفى واقفاً، يهيم بالخروج من الباب الوهمى، وتعد الزخارف الداخلية آية فى الإتقان، بصورها المنقوشة الملونة والمدونات بالخط الهيروغليفى. وتطور التماثيل الجنائزية. وتوجد فى حجرة خاصة تعرف اصطلاحاً بالسرداب (حيث تقبع بعيداً عن متناول اليد وإن كان فى الإمكان مشاهدتها من خلال فتحة صغيرة، الأمر الذى يمكن ملاحظته فى مجموعة «جسر» أو أيضاً فى مصطبة «تى»). أما حجرة الدفن فمكانها أسفل المصطبة وعلى وجه التحديد أسفل هياكل القرايين. ويمكن الوصول إليها فى المعتاد من خلال بئر قد تفضى إلى قمة المصطبة أو أيضاً إلى إحدى الحجرات الداخلية. وأحياناً، كما فى مصطبة «تى» يبدأ أحدهم من الفناء المحاط بالأعمدة ليصل إلى حجرة الدفن، وتصطف المصاطب فى نظام صارم حول هرم الملك الذى يحيط به المقربون له وخدمه، حتى فى العالم الآخر. وتشكل هذه المجموعات فى الجيزة وسقارة، مدناً حقيقية للموتى. (شكل هـ)

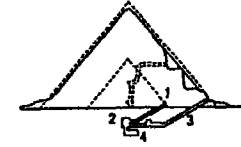
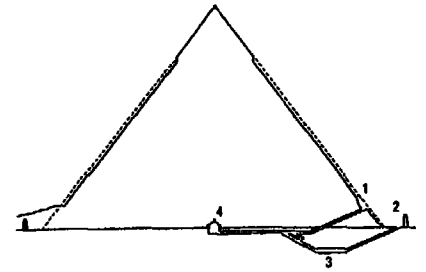
يضم أثاث المقابر، لهذا العصر، لوازم القرايين ومستلزمات الحياة اليومية التى قد تصل الى درجة كبيرة من الدقة، نذكر على سبيل المثال مقبرة «حتپ حرس». لقد وجدت مستلزمات المقبرة وأثاثها ناقصة، بعد أن سلبت المقبرة الأولى ونهبت (فلم يتم العثور على جسد «حتپ حرس») فاعيد على ما يبدو دفن ما تبقى. وإذا كانت الملكة قد استخدمت بعض هذه الأشياء خلال حياتها، فمن الراجح ان معظمها قد صنع خصيصاً ليوضع فى المقبرة: أوانى من ذهب، ومن نحاس، ومن الألبستر، سكاكين ونصالاً وأدوات زينة من ذهب، ولاسيما السرير والمحفة وتبرز جميعها مستوى الإتقان الرفيع الذى بلغه حرفيو الدولة القديمة. وقد تم العثور فى «مقبرة المجهولين» فى الجبلين على أثاث متنوع جداً،



شكل (٣) تطور المصطبة A و B إلى الهرم المدرج C نقلًا عن Spencer



0 100 m



شكل (٤) ب

مقاطع الأهرام الثلاثة من الناحية الشرقية

خول: ١ - ممر هابط

٢ - حجرة دفن المستوى الأول

٣ - ممر صاعد

٤ - ممر أفقي

٥ - حجرة دفن المستوى الثاني

(حجرة الملكات)

٦ - البهو الكبير

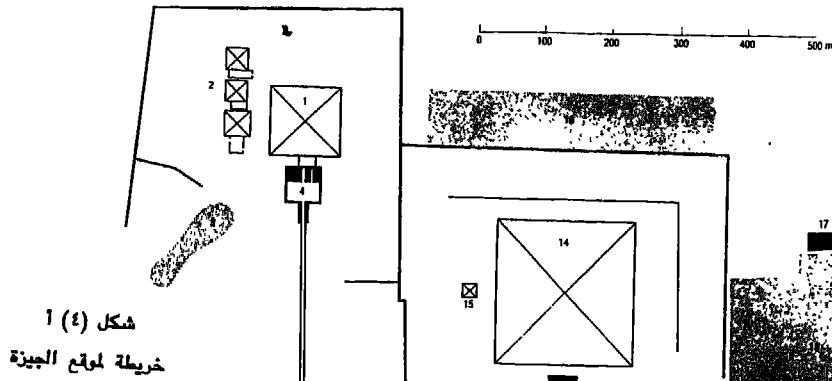
٧ - حجرة دفن المستوى الثالث

(حجرة الملك)

٨ - غرف تقطيف الضفط

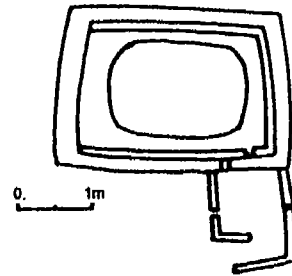
٩ - فتحات التهوية

(ذات دلالة دينية على ما يظن)



شكل (٤)  
خريطة لموقع الجيزة

- (١) هرم منكاورع
- (٢) أهرام الملكات
- (٣) مقابر صخرية
- (٤) المعبد الجنائزى للملك منكاورع
- (٥) معبد الوادى للملك منكاورع
- (٦) مقبرة الملكة خنتكاوس
- (٧) مفاره صخرية
- (٨) مصاطب
- (٩) مقبرة الملكة خمر إيزنبتى الثانية (زوجة خفرع)
- (١٠) معبد الوادى للملك خفرع
- (١١) معبد «أبوه الهول
- (١٢) أبوه الهول العظيم
- (١٣) المعبد الجنائزى للملك خفرع
- (١٤) هرم خفرع
- (١٥) الهرم البديل
- (١٦) مخازن (?)
- (١٧) مقبرة حم يونو
- (١٨) منطقة المصاطب الغربية
- (١٩) هرم خوفو
- (٢٠) حفرتا المركبين
- (٢١) مصاطب
- (٢٢) أهرام الملكة
- (٢٣) منطقة المصاطب الشرقية
- (٢٤) مقابر صخرية
- (٢٥) معبد الدولة الحديثة بلاك حور إم أخت
- (٢٦) قرية نزلة السمان الحديثة.
- (٢٧) مقبرة «حوتب حرسى».



شكل (٥)  
مقبرة طرخان (الاسرة الاولى)



يستجيب بشكل واضح لما قد يحتاجه المتوفى فى العالم الآخر: أوانى من الخزف للطعام، صناديق تحتوى أقمشة، نعال ونصال أدوات من البرونز، ونماذج مراكب من خشب.

وتظل مقابر الفقراء فى غاية البساطة، فهى فى الواقع حفرة محفورة فى الأرض، فى أغلب الأحوال، لها غطاء من الطوب، فى بعض الأحيان. وحول مصاطب «الأثرياء» نجد العديد من الدفنيات من هذا النوع. إنها لا تختلف إختلافاً جوهرياً عن مقابر ما قبل الاسرات، وبسبب تكلفتها الزهيدة، سوف تستمر حتى العصر الرومانى. ويمكن ملاحظة وجود دفنات ذات مستوى متوسط بين دفنات الأشراف وأفقر الدفنيات، وهى الموجودة فى جبانة العمال الذين شيّدوا أهرام الجيزة. لقد عثر حديثاً على هذه الجبانة، فوق الهضبة. وبعض مقابرها متطورة نسبياً وقد شيّدت على ما يبدو بما تبقى من المواد التى استخدمت فى الأهرام وتحاكى نموذج دفنات الأشراف. هنا أيضاً، يظهر التمايز الطبقي، إذ عثر على مقابر متواضعة أحياناً خلف مقبرة أكثر تطوراً (هل هى لرئيس فريق العمال ورجاله؟)

### (٣) المعتقدات الجنائزية

فى ظل الدولة القديمة، ولأول مرة، تظهر نصوص تقدم لنا عرضاً تفصيلياً لمعتقدات المصريين حول مصير الأموات، ومن الأهمية بمكان ان نقرر أن هذه النصوص، المدونة فى المقابر الملكية، لا تخص سوى الملك. وبالفعل فإن «متون الأهرام» هى مجموعة تعاويذ سحرية وتراقيم وابتهالات هدفها الأساسى مساعدة الملك المتوفى على الوصول الى أماكن حياته الجديدة. وبعض التعويذات هى تعويذات قرابين كانت تتلى بلاشك أثناء مراسم الدفن. كما يشير بعضها الآخر إلى بعض الشعائر. ونذكر على سبيل المثال:

«فمه مفتوح من أجل الملك. أنفه مفتوح من أجل الملك. أننااه مفتوحتان من أجل الملك». (نقلاً عن الترجمة الفرنسية : متون الأهرام J.Griffiths 712 a - b, Pyr)  
«لقد فتح «حورس» فمك».

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية : متون الأهرام J.G Griffiths 644C, Pyr)

تدل هذه التعويذات، على أن أداء شعيرة فتح الفم، على شخص الملك على الأقل، كان معمولاً به منذ ذلك العصر. ومن خلال هذه الشعيرة كان الكاهن يعيد إلى المتوفى القدرة على استخدام حواسه.

وبعد الوفاة، كان من المفروض أن يحق الملك بمركب الشمس ليرافق الإله «رع» في سيرته السماوية ويقدم إلى جوار الآلهة وأسلافه من ملوك مصر. ويصبح هو نفسه إلهاً بكل معنى الكلمة. ويندرج هذا التصور لصيرورة الملك في إطار لاهوت هليوبوليس الشمسي، بعد أن صار من الأهمية بمكان اعتباراً من الأسرة الخامسة. واستناداً إلى تقليد يبرز أيضاً من هذه المتون، يتوحد الملك مع «أوزيريس»، الإله الذي مات و«بعث حياً»، وإن كان لا يتناقض والتقليد الهليوبوليتاني كما يشهد على ذلك النص التالي الذي نقش في مقبرة «بيبي»:

«إنك تصعد إلى جوار أمك «نوت»، إنها تمسك بساعدك، إنها تدلك على الطريق نحو الأفق، محل إقامة «رع». عندئذ تفتح من أجلك السماء، وتفتح من أجلك أبواب النسيم العليل. وتلتقي بـ «رع» واقفاً. إنه يحبك ويمسك يدك، ويقودك إلى المقرين الإلهيين في السماء. ثم يعهد اليك بعرش أوزيريس».\*

(متون الأهرام نقلاً عن Cl.Lalouette, trad. Pyr. 752 et sq.)

ولكن التقليد الأوزيرى لن يبلغ أوج قوته إلا بحلول الدولة الحديثة. إن هذه المتون، إذ كانت نصوصاً متطورة جداً، تعود بالتأكيد إلى عصر سابق على الدولة القديمة، إلى حد كبير، وإن كنا لا نعرف أصولها. وهناك نص يؤكد بوضوح أن الموت ليس هو الموت، لأن الملك سيعود إلى الحياة في العالم الآخر:

«إنه («أوزيريس») يحيا، إن هذا الملك يحيا.

«إنه لم يميت، إن هذا الملك لم يميت.

«إنه لم يقض نحبه، إن هذا الملك لم يقض نحبه.

«أنه لا يتألم، إن هذا الملك لا يتألم».

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية: متون الأهرام - J.G. Grif- cité par. Pyr 167-b-d)

(fiths)

\* نقلاً عن الترجمة العربية: نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة. المجلد الأول، الترجمة العربية: ماهر جويجاتي، مراجعة د. طاهر عبدالحكيم. دار الفكر ١٩٩٦. ص ٢٠٨ (المترجم)

«أيها الملك، إنك لم ترحل ميتاً، لقد رحلت حياً».

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية: متون الأهرام Pyr 134 a- b, cité par J.G.Griffiths)

وفى وسعنا أن نربط بين المراكب التي عثر عليها على مقربة من بعض الأهرام وبين الإعتقاد فى رحلة الملك السماوية على متن مركب «رع». ومن هذه المراكب نذكر مراكب «أوناس» المصنوعة من الحجر أو المركبين الرائعين المصنوعين من خشب الأرز اللذين تم الكشف عنهما عام ١٩٥٤، عند سفح هرم خوفو. وهناك تفسير آخر، يرى أن هذه المراكب كانت الوسيلة التي لا غنى عنها للقيام برحلة الحج الرمزية الى «سايس» و«بوتو». فى حين يرى تفسير ثالث، أنها قد استخدمت بكل بساطة على ما يظن خلال الرحلة الجنائزية على صفحات نهر النيل.

وبعد وفاته، كانت تقام من أجل الملك - الإله، شعيرة قرابين فى المعبد الجنائزى أو فى «معبد ملايين السنين». ولهذا الغرض كان الملك يوقف وقفاً توفر موارده الإمكانية المادية لإقامة هذه الشعيرة. وكان هذا الوقف يتكون فى المعتاد من أراضى زراعية تابعة للملك. وفى نهاية المطاف أسهم هذا العمل فى تناقص موارد الملك كنتيجة لتآكل أملاكه.

لقد كانت متون الأهرام وقفاً على الملك دون غيره، فهو الكاهن الأعظم، وكان من الناحية النظرية الوسيط الأوحى بين عالم البشر وعالم الآلهة. وإن نجد أى نص من هذا القبيل فى مصاطب الأشراف التي كانت من جانبها مزخرفة بصور منقوشة، تصور المتوفى محاطاً بأفراد عائلته ويخدمه. وغالباً ما كانت هناك نصوص تصاحب الصور، ومهمتها الأساسية تحديد أعداد القرابين وذكر ألقاب المتوفى وحياته الوظيفية، بل والتعليق على بعض المشاهد المصورة. ولا يمكن اعتبارها بأى حال من الأحوال نصوصاً ذات طابع لاهوتى. إن المشاهد التي نرى فيها المتوفى جالساً أمام مائدة القرابين الزاخرة بالوان الطعام، ومشاهد الحصاد أو تربية الحيوان، أيا كان تفسيرها (كإشارة إلى حياة المتوفى فى العالم الآخر أو الأنشطة اللازمة لإعداد القرابين)، كلها شواهد على الإعتقاد فى الحياة بعد الموت الذى كان ينظر اليه المصرى على أنه مجرد معبر. (٦)

وفى ذلك العصر، عرف المصريون عادة وضع تماثيل جنائزية صغيرة تحمل اسم المتوفى، وهو العرف الذى ندين له بازدهار فن نحت التماثيل ازدهاراً ملحوظاً. إن تماثلى «رع حوتب» و«نوفرت» اللذين عثر عليهما داخل مصطبتهما فى ميدوم، ويعتبران مثلاً حياً



شكل (٦)

لوحة حجرية للأميرة «نفرت إيبات»

الدولة القديمة.

الأميرة الراحلة جالسة أمام مائدة قرايين

متحف اللوفر.

على ذلك ليستوقفان النظر. وفي عصر لم يكن فن التحنيط قد برهن بعد على كفايته، كان فى وسع التماثيل، بفضل السحر، أن تحل محل جثمان المتوفى وتكفل له حياته الجديدة. ومن أجل الهدف ذاته، فإن الرؤوس التى كانت تدعى «الرؤوس البديلة»، كانت كثيراً ما توضع فى المقبرة، الأمر الذى يشهد أيضاً على الأهمية التى كان يوليها المصرى القديم للحفاظ على هذا الجزء من الجسد. والأمر الذى يسترعى الإنتباه عند دراسة موميאות جبانة من الجبانات هو أن انفصال الرأس عن الجسد، هو من «الحوادث» الأكثر انتشاراً. وهكذا تشهد عادة استخدام الرؤوس البديلة على رداءة أساليب التحنيط. إن اختفاءها التدريجى، فى عصر أخذت فيه أساليب التحنيط تزداد اتقاناً، ليبرهن على ذلك بالتضاد. ويشير نص من متون الأهرام بوضوح الى خوف المصرى القديم من أن يرى الجسد وقد فقد سلامته ووحدة أجزائه. يقول هذا النص موجهاً كلامه للملك:

«نوت قادمة... إنها تجمّعك، إنها تعيد تكوينك، إنها تعيد رأسك الى مكانه، إنها تنظف عظامك، إنها تضم أعضاءك، إنها تضع قلبك فى جسدك».\*

(متون الأهرام Pyr. 828, trad. Cl. Lalouette)

أما فيما يخص القسم الأكثر فقراً من سواد الشعب، فلم تصلنا أية معلومات محددة حول المصير الذى كان ينتظر هؤلاء الناس بعد الوفاة. إن حقيقة وجود بعض القرايين التى عثر عليها فى أحوال كثيرة فى المقابر الأكثر بساطة، لتحملنا على الإعتقاد، انه فى هذه الأحوال أيضاً كان هناك اعتقاد باستمرار الحياة بعد الموت.

---

\* نقلاً عن الترجمة العربية : راجع المرجع السابق ص ٢٠٦ (المترجم).

## الفصل الثالث

### فن التحنيط فى ظل الدولة الوسطى

#### (١) عصر الانتقال الأول

اجتاحت البلاد فى نهاية الدولة القديمة قلاقل اجتماعية وسياسية خطيرة. لقد صاحب الضعف الذى أصاب السلطة المركزية بروز فئة من الأشراف فى أقاليم مصر أخذت تزداد قوة حتى كونت ممالك صغيرة حقيقية، انتهى بها الأمر الى فوضى تامة، ضاعف من خطورتها ظهور مشاكل إقتصادية. وخلال هذه الفترة التى استمرت مائتى سنة على أقل تقدير، تم سلب ونهب المقابر بكل صفاقة، سواء كانت مقابر ملكية أو غيرها. وفى نص تنبؤى نعرفه اصطلاحاً باسم «مرثيات إيبور» ويرجع تاريخ تحريره الى الدولة الوسطى على ما يظن، فى وسعنا أن نقرأ ما يلى :

«ذلك الذى كان قد دفن بصفته صقراً إلهياً (= الملك)، هو الآن فوق محفة، (شأنه شأن أى مواطن عادى) والهرم أصبح منذ الآن خاوياً».\*

لقد وضعت أسفار بأكملها عند مطلع الألف الثانى، صورت واقع هذه المرحلة فى عبارات مأساوية تعتمد على حقيقة أن الناس صاروا لا يدفنون موتاهم، كعلامة على مدى انتشار الفوضى. ومازلنا نتذوق بلاغة «مرثيات إيبور» حول هذا الموضوع.

«فكثير من الموتى يلقى بهم فى النهر، المياه هى القبر و«المكان الطاهر» (مكان التحنيط) موجود الآن فى النهر.

لا يبحر أحد إلى بيبيلوس هذه الأيام. كيف سنتصرف للحصول على خشب الأرز (لصناعة التوابيت أو من أجل الحصول على زيت شجر الأرز) من أجل مومياواتنا؟.

---

\* المرجع السابق ص ٢٩٧. (المترجم).

الذين كانوا فى «المان الطاهر» (الأموات) يوضعون فوق المرتفع (يتركون فى الصحراء) لأن أسرار التحنيط قد ضاعت".

(ترجمة Cl. Lalouette)

وفى الواقع فقد بقيت الأعراف الجنائزية ثابتة دون تغيير وينبغى إفساح المجال للمبالغة البلاغية التى تكتنف هذه النصوص (بمثابة إعادة كتابة التاريخ).

إن الرفات البشرية التى ترجع الى هذا العصر، وقد حفظ لنا الزمن منها أعداداً قليلة، تشير الى أن مستوى تطور فن التحنيط كان متواضعاً. إن تصميم مومياء «بيبي سن» باللفائف، المحفوظة فى بوسطن، هو تصميم متقن. (ويتكون من ستة عشر كفنًا، يفصلها حشو بكميات كبيرة!) وقد وضع أمام الوجه قناع من الكرتوناج ومع ذلك تكشف الدراسة السكانوجرافية\* Scannographique للمومياء أن مستوى حفظ الأنسجة اللينة ردىء جداً، كدليل على أن فن التحنيط كان لا يزال فى مراحله الأولى، فى حين دثرت المومياء بعناية فائقة كما هو واضح. إن التابوت الخشبى الذى ينبىء بتلك التوابيت التى ستصنع فى الدولة الوسطى، هو عبارة عن صندوق مزخرف بعينى «واجت» ومدونات هيروغليفية تضم تعويذات القرابين إلى جانب أسماء وألقاب المتوفى. وفى المقابل فإن أثاثه الجنائزى كان محدوداً جداً، رغم كون المتوفى من على القوم.

ولا توجد قطيعة بين تجهيزات هذه المقابر وتلك التى نشاهدها فى مقابر الدولة القديمة. ومع ذلك، نبدأ فى العثور فى الحجرات الجنائزية على «نماذج» من الخشب الملون التى أخذت تنتشر وتعم خلال الدولة الوسطى. ونذكر على وجه الخصوص نماذج المراكب التى ترتبط برحلة الحج إلى أبيدوس، سواء كانت رمزية أم حقيقية. الأمر الذى يبرهن على تطور المعتقدات الأوزيرية. فلنذكر أن مقبرة «أوزيريس» «الرئيسية»، كانت موجودة فى أبيدوس، على ما كان يعتقد.

ويبدو أن الشعائر الجنائزية التى تضمن استمرار الحياة بعد الموت قد أخذت تنتشر فى ذلك العصر لتشمل شرائح أوسع من الجماهير الشعبية. وإذا كانت هذه الحقيقة تعتبر فى الغالب دليلاً على ديمقراطية الممارسات الجنائزية، إلا أننا نرى أنه من التعسف بمكان استخدام هذا التعبير فى هذا المقام.

\* تصوير بالأشعة بواسطة جهاز الـ «سكانر». (المترجم).

## (٢) تقدم فن التحنيط فى ظل الدولة الوسطى

تقدمت نوعية التحنيط فى ظل الدولة الوسطى بفضل الإعتماد المتزايد على استخراج أحشاء البطن وبفضل استخدام ملح النطرون على وجه الخصوص، ليس فى معالجة الأحشاء فحسب، بل مجمل الجسد أيضاً. وعلينا أن نؤكد على التأثير المزدوج للملح النطرون، فهو أساساً مزيج طبيعى من كلوريد وكميونات الصوديوم، لا يعمل على سرعة تجفيف الجسد فحسب، فى سباق حميم مع عملية التحلل، ولكن أيضاً على تصبين (تفكك) Spanofication الشحوم، الأمر الذى يحافظ على «الثبات والإستقرار الكيميائى» للمومياء.

ويبقى أن معالجة الجسد على هذا النحو لا تطبق دائماً بالكامل، وبالتالي فإن مومياوات أميرات الأسرة الحادية عشرة اللائى عثر على مقابرهن فى الدير البحرى، ووجدت سالمة فى الواقع، لم تكن تحمل أى أثر لشق باطنى، كما كان فى الإمكان التحقق من وجود بقايا الأحشاء فى القفص الصدرى الباطنى. وربما عولجت هذه المومياوات بأن حقنت عن طريق الشرج بمواد مذيبة أو جففت بواسطة النطرون (أو بالطريقتين معاً). وكان من الممكن مشاهدة آثار مواد راتنجية على الأغشية ولكن الجلد والأظافر لم تكن سالمة. كذلك، فإن الحلى الموضوعة فوق مومياء الأميرة «عاشيت» قد تركت آثاراً غائرة فى الجلد. ومن ناحية أخرى، فقد تم استخراج أحشاء البطن من غيرها من مومياوات الأسرة الحادية عشرة، نذكر على سبيل المثال مومياء «چحوتى نخت» (حاكم إقليم الأرنب فى مصر الوسطى) التى تم العثور عليها فى مقبرته فى البرشا. لقد عثر فى هذه المقبرة على إناء كانوبى من طراز فريد جداً (إذ كان له قدمان وساعدان!). وتبقى رأس المومياء الذى احتفظ بشعر مموج إلى جانب بشرة الوجه. ونلاحظ أمراً غير عادى، فقد تم تفريغ الجمجمة عن طريق العظمة المصفوية الوتدية ethmoido-sphénoidale، مع إحداث بعض الأضرار فى محجر العينين إذ مرّ المحنط من خلال جيوب الفكين بدلاً من أن يسلك تجويف الأنف، الذى سيصبح الأسلوب الشائع فى ظل الدولة الحديثة. وكما نرى فقد أحرز فن التحنيط تقدماً ملحوظاً، بعد أن تم الإحاطة بعناصره الأساسية، وإن لم تطبق بصورة منتظمة.

لقد وصلتنا مومياء سالمة من الأسرة الحادية عشرة، وهو أمر غير معهود، إنها مومياء أحد النبلاء المدعو «واح» الذى كان يعيش فى عهد «مونتوحتپ» الثالث. كانت.



المومياء تبدو على هيئة لفة ضخمة، إذ كان الجسد ملفوفاً بكمية كبيرة من نسيج الكتان (مجموعه الكلى ٣٧٥ متراً مربعاً!) ولم تلتقط لها صور بالأشعة إلا بعد وصولها إلى متحف المتروبوليتان Metropolitan Museum بوقت طويل. وكشف هذا الفحص عن وجود حليّ وتمائم بأعداد كبيرة إلى جانب فأر وسحلية استقرت عن طريق الصدفة وسط طيات اللفائف. وعلي كل حال، فإن الجسد الذى كان فى حالة جيدة من الحفظ قد استخرجت أحشائه الداخلية.

وتعود مستلزمات خبيثة المحنط التى عثر عليها فى منطقة طيبة إلى نفس العصر، وكانت تضم مخلفات تحنيط المدعو «إيبى». وتتكون من أقمشة، ونطرون وزيت إلخ... وهى أشياء، كانت تعتبر نجسة لأنها لامست الجسد، ومن ثم كان من الضرورى دفنها على مقربة من المتوفى وليس معه ومن ناحية أخرى، كان المقصود بذلك الحيلولة دون استخدام هذه البقايا فى غايات سحرية، يمكن أن تشكل ضرراً ما. ومن ضمن ما عثر عليه فى هذه الخبيثة، مائدة للتحنيط، وهى عبارة عن سرير تحمله أربع قوائم. وكانت كل «السوائل» والبقايا المسحوقة قد وضعت فى ٦٧ وعاء من الطين المحروق، وقد عثر على مستودع من نفس النوع، على مقربة من مقبرة «توت عنخ آمون»، قبل سنوات من اكتشافها، وهو ما كان ينبغى أن يرشد علماء الآثار...

وبالطبع، لم تكن معالجة جميع الأفراد على نفس القدر من العناية، لاسيما سواد الشعب، إن أجساد جنود «مونتوحتب» الثانى الستين، وكانوا قد لقوا حتفهم فى ساحة المعركة ثم دفنوا فى الدير البحرى، قد دثرت فى قماش، وإن لم يحنطوا وفقاً للأساليب المعتادة. وبسبب كمية الرمال الكبيرة العالقة بالأجساد يرادونا الظن أن الرمال قد استخدمت كوسيلة لاستخلاص السوائل منها، وهو ما قد يفسر ان المصريين كانوا يدركون مدى تأثيرها.

وفى ظل الأسرة الثانية عشرة، كانت عادة استخراج الأحشاء من الممارسات المعروفة، وإذا لم يصلنا عن هذه الفترة سوى القليل من الموميאות، فإن انتشار الأوانى الكانوبية فى المقابر، خير شاهد على ذلك. وقد اتخذت هذه الأوانى الشكل الذى ستحافظ عليه على امتداد ألفى سنة: إنها أوانى بيضاوية الشكل، وغطاؤها على هيئة رأس آدمى يتخذ فى بعض الحالات صورة المتوفى. وفيما بعد سوف تتخذ هذه الأغصية هيئة أبناء حورس الأربعة. وعلينا أن نتذكر أن كل ابن من هؤلاء الإبناء كان مكلفاً بحماية أحد الأعضاء: كان «إيمست» ذو الرأس الأدمى يسهر على الكبد، و«حاي» نورأس القرد على

(شكل ٧)

الرئتين، و«دواموت إف» ذو رأس ابن أوى على المعدة، و«قبح سنو إف» ذو رأس الصقر على الأمعاء. إن إطلاق اسم الأوانى الكانوبية على هذه الأوانى هو اختيار سيء جداً: ويعود الى تقليد يونانى مرتبط بالملاح «كانوپوس»، الذى ساد الاعتقاد أنه كان يعبر على هيئة إناء ذى رأس آدمى، ولنعد إلى الأذهان ان شمپوليون هو الذى توصل الى معرفة فيما كانت تستخدم هذه الأوانى فى حقيقة الأمر. فى ١٢ نوفمبر ١٨١٨ بينما كان يفحص محتوى إناء كانوبى، كتب يقول:

الشيء ملفوف بنسيج...

الشيء طوله ٤ بوصات وعرضه بوصتان

طبيعة حيوانية واضحة جداً

نسيج ليفى

بالموقد : رائحة حيوانية

تصلب الجزء الحيوانى

وغلbian البلمس وتحوله إلى فحم أسود

موجود فى قاع الإناء...

إنه كبد أو مخ أو مخيخ...

(نقلاً عن H.Hartleben, Chanpollion. 121-124)

وفى متحف منشستر، تم فى عام ١٩٠٦، فحص موميائين من الأسرة الثانية عشرة، لقد تحول الجسدان من الناحية العملية إلى مجرد هيكلين عظميين، ولكن احشاهما الداخلية كانت قد استخرجت (كانت الأحشاء موجودة فى أوانى كانوبية). كان جلد أطراف الأصابع قد قطع وربط حول الأظافر لتجنب سقوطها : وهو أسلوب سيعمم فى الدولة الحديثة.

ويبدو أن المصريين قد اعتنوا فى هذا العصر إلى حد كبير بمظهر المومياة، فقد استخدموا على سبيل المثال «مواد تعويضية مصرية» من الكتان ليعيدوا الى محجر العين شيئاً من حجمه، أو القطائل فى فتحتى الأنف، وهى من الكتان أيضاً، لتجنب هبوط الأنف

ولو جزئياً، وتم التخلي عن إعداد القوالب الجصية وتصوير ملامح الوجه على الشرائط وقد كان كلاهما معمولاً بهما في ظل الدولة القديمة. ومن ناحية أخرى، فقد شاع استخدام الأقنعة الجنائزية. وتصنع هذه الأقنعة في المعتاد من أقمشة مشبعة بالجص، مذهب في أغلب الأحيان، أو ملونة باللون الأصفر تقليداً للذهب، وهو «لحم الآلهة» وهو ما يشكل اذن أسلوباً للإرتقاء الى مرتبة الآلهة. ومن سمات بعض هذه الأقنعة، انها تمثل رجالاً لهم لحية مستعارة وشارباً، الأمر الذي يدفعنا الى الظن بأن الرجال في مصر ولفترة قصيرة دون شك، قد أرخوا لحيتهم وشاربهم، على عكس العرف السائد في باقى العصور. إن وضع التماث بين طيات اللغائف، الأمر الذى يشكل أسلوباً لحماية المتوفى، لم يكن على ما يرجح قد بلغ الطابع المنتظم الذى سيتخذه في ظل الدولة الحديثة.

### (٣) الدفقات فى ظل الدولة الوسطى

من الآن، أصبح الوضع الممدد هو القاعدة. وغالبا ما يسجى المتوفى داخل التابوت على جانبه الأيسر، وقد اسند الرأس والرقبة على مسند للرأس، قد تدون عليه بعض التعويذات السحرية للحماية وتستعيد التوابيت الأنماط التى سادت فى ظل الدولة القديمة، وإن كانت صنعتها أفضل، والألواح الخشبية أطول وأكثر إتقاناً. وكانت التوابيت الموجودة فى مقابر الأثرياء مزخرفة في الداخل كما فى الخارج. فعلى السطوح الخارجية أفاريز تمثل القرايين و«ممتلكات» المتوفى وشرائط تمتد أفقياً ورأسياً محملة بكتابة هيروغليفية وعلى الجانب الأيسر، موضع الرأس، رسمت عينان (وهما عينا «حورس» اللذان يفترض انهما تضمنان حماية المتوفى) يقترن بهما فى الغالب واجهة القصر ببابها. إن وجود العينين أمام وجه المتوفى، كان أمراً ضرورياً. فكان فى وسع هذا الأخير أن «يبصر» بفضل السحر من خلال هاتين العينين وأن «يخرج» من هذا الباب. وبالإضافة الى النصوص ذات الطابع اللاهوتى التى صارت تنقش وتصور من الآن على التابوت، نلتقى بأسماء وألقاب المتوفى. ونعرف أيضاً شخصية بعضهم ونلاحظ أن الأمر لا يتعلق بعلية القوم ولكن أيضاً بموظفين من الأقاليم من كهنة وأطباء وكتبة، وإن كانوا من أصحاب المقام الرفيع.

أما التوابيت الحجرية التى نجدها فى المقابر الملكية أو مقابر الأمراء، فإن سطوحها هى إما ملساء أو على هيئة «واجهة القصر». وفى القليل النادر قد تصور مشاهد من الحياة اليومية، وفى هذا الصدد، نذكر على سبيل المثال تابوت الأميرة «كاويت» فى الدير البحرى.

وقرب نهاية الأسرة الثانية عشرة، تظهر أولى التوابيت التى تتخذ هيئة آدمية. وكانت فى بداية الأمر مجرد «صناديق» خشبية تتخذ هيئة الجسد بطريقة بدائية غير متقنة، لتصبح أكثر اتقاناً اعتباراً من الأسرة الثالثة عشرة. كانت تصنع من الخشب أو بأسلوب الكرتوناج المثبت على هيكل من خشب، وتشكل بعناية بحيث توحى بتقاطيع الجسد. ويصور الوجه على غطاء التابوت، والزخرف الوحيد ينحصر فى قلادة وفى شريط رأسى، محلى فى المعتاد بالكتابة الهيروغليفية. ويشكل هذا التابوت تطوراً للقناع المطلق بالجص كما كان يستخدم منذ مطلع الدولة الوسطى. وهذه التوابيت الآدمية الشكل كانت توضع على جانبها الأيسر فى توابيت أكبر، تماماً كما كانت توضع المومياوات مباشرة.

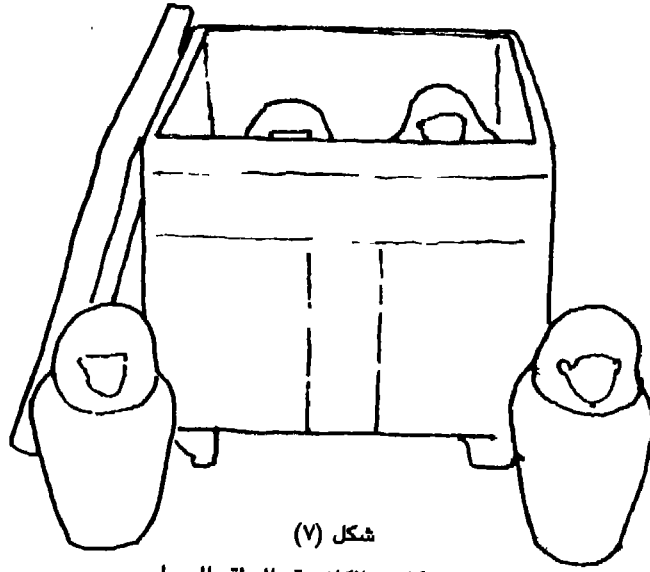
وفى الظاهر ظلت المقابر الملكية القائمة فى دهشور والشت وهواره، دون تطور يذكر، لأنها احتفظت بشكلها الهرمى. أجل، لم تكن أحجامها تشبه فى شىء أحجام أهرام الجيزة العملاقة. ومستوى تشييدها غير مرض على الإطلاق، نظراً لأن نواة الهرم أصبحت تشيد تدريجياً بالطوب بدلاً من الحجر. وفى المقابل، فإن بناء الحجرات الجنائزية والممرات وتوزيعها الداخلى ازداد تعقيداً على أمل الحيلولة دون وصول اللصوص الى حجرة الدفن، وإن خاب هذا الأمل على الدوام.

وظل الاشراف يدفنون فى مصاطب مشيدة من حجر أو من الطوب بالنسبة لأقلهم ثراء. وهنا أيضاً، نرى أن التوزيع الداخلى للحجرات والممرات الى جانب أساليب الحماية، قد ازدادت تعقيداً، على غرار المقابر الملكية. ومن ناحية أخرى، نلاحظ انتشار عادة حفر المقابر فى جروف الجبل التى تطل على نهر النيل. كما نجدها فى مصر الوسطى ومصر العليا، فى بنى حسن والبرشا وأسيوط وقاو الكبير وأسوان، إذ اكتفينا بذكر أهمها. وهذه المقابر هى فى الغالب مقابر أمراء، ذات رسم تخطيطى متطور، يذكرنا الى حد ما بالرسم التخطيطى للمعبد بقنائه المكشوف الذى تكتنفه الأعمدة وممر طويل محورى، يتقدمه أو يليه بهو أساطين، ونصل فى النهاية الى الهيكل. ويوجد التابوت فى حجرة تحت الأرض نصل إليها من خلال بئر.

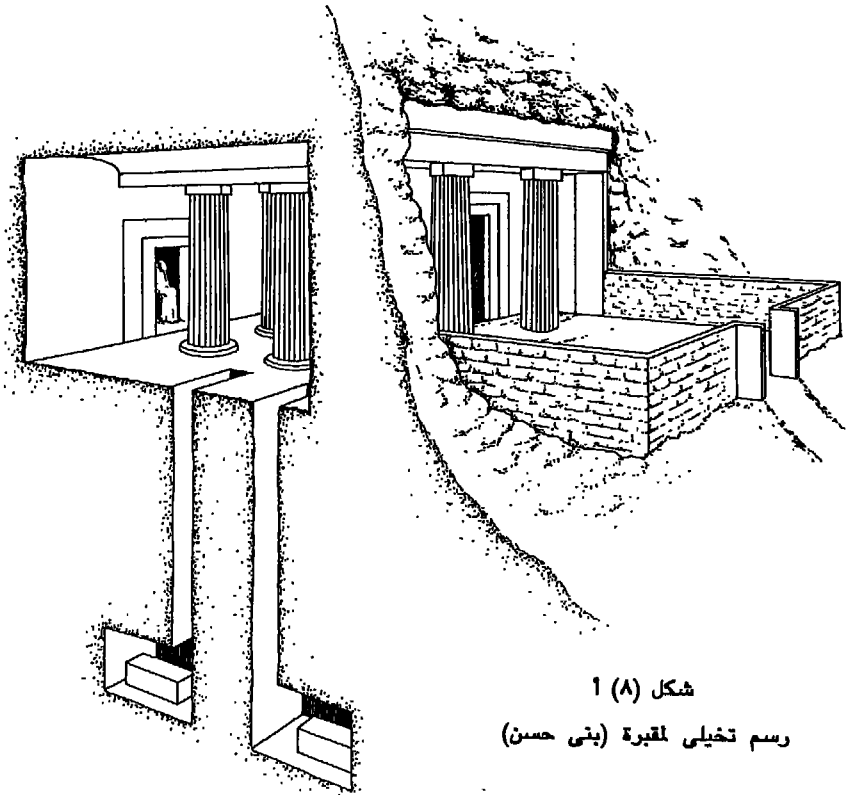
وتزدان بعض مقابر الدولة الوسطى بزخارف منحوتة أو مصورة تسيير على هدى تقاليد الدولة القديمة، نذكر منها على سبيل المثال المناظر المنقوشة فى مقبرة «سارنپوت» فى أسوان، أو رسومات مقبرة «خنوم حوتپ» الثالث فى بنى حسن. وظهرت عادة أخذت تعم وتنتشر تمثلت فى وضع نماذج خشبية ملونة تصور مشاهد من الحياة اليومية: مشاهد القصابة وصناعة الجعة وورش النساجين والنجارين.. كما فى وسعنا أن نعثّر على مجموعات من الجنود، ومختلف أنواع السفن المحملة بشتى أنواع السلع، بخلاف السفن التى تشير الى رحلة الحج التى يقوم بها المتوفى الى أبيدوس، إن أفضل مثال على هذه النماذج وأكملها نجده فى مشهد حصر القطعان، الذى يحتفظ به متحف القاهرة والذى حصلنا عليه من مقبرة «مكت رع» بالدير البحرى. ونرى أن هذه المشاهد قد حلت محل الزخارف الجدارية التى نشاهدها فى مصاطب الدولة القديمة. ونشاهد فيها كما نشاهد فى هذه الأخيرة طوابير حاملى القرايين، المصنوعين أيضاً من الخشب المغطى بالجص بل انهم يرتدون أحياناً الأقمشة. (شكل ٨)

أما منازل الأحياء التى عثرنا عليها فى كثير من الاحيان فى مقابر هذا العصر، فإنها تمثل نماذج من نوع آخر: إنها مصنوعة من الطين المحروق وتصور انماطاً مختلفة من البيوت السكنية. وإذ رأى بعضهم (وكان أولهم «پترى» Petrie) ما بها من قنوات تسريب على غرار القنوات الموجودة فى موائد القرايين، فقد أناطوا بها وظيفة مماثلة وظن آخرون ومنهم «نيوينسكى» Niwinski أنها البديل لهياكل القرايين.

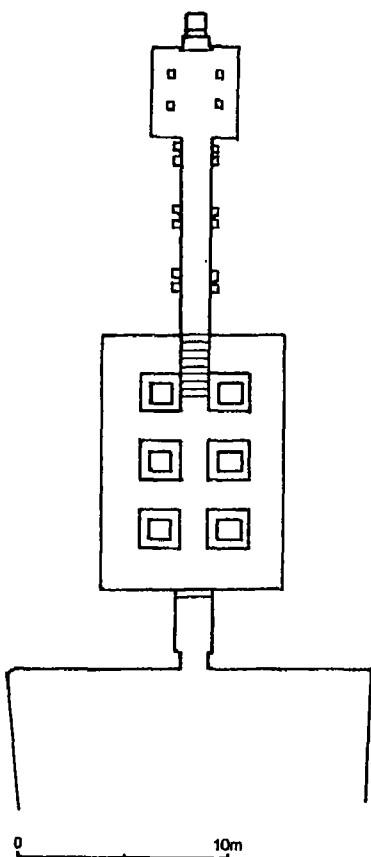
كما ظهرت فى مقابر هذا العصر تماثيل صغيرة لنساء وهى مصنوعة إما من الخشب أو القاشانى أو العاج وقد أطلق عليها خطأ «محظيات المتوفى»، إستناداً إلى أنها مصورة عارية ولها فى الغالب ملامح جنسية مبالغ فيها. وربما كان المقصود بها فى حقيقة الأمر أن تكون رموزاً للخصوبة والتجديد، لاسيما انها وجدت أحياناً فى رفقة أطفال، كما وجدت نماذج منها فى مقابر النساء. أما وظيفة التماثيل الجنائزية الصغيرة فهى مختلفة، وقد سميت فى البداية «شاوپتى» (أو خدم المتوفى) وظهرت عند نهاية الدولة الوسطى. وسوف تنسب اليها القدرة على الطول مكان المتوفى والإجابة فى العالم الآخر بدلاً منه، ومن هنا جاءت تسميتها الجديدة فأطلق عليها «أوشابتى» (أو «المجيبة» فى اللغة المصرية القديمة). وفى هذا العصر كانت هذه التماثيل الصغيرة بلا أى مدونات. ومع ذلك فقد يحدث أحياناً أن تحمل كتابة تحدد اسم وألقاب مالكةا الى جانب تعويذة قريان. وتظل بشكل عام نادرة وقليلة قبل حلول الدولة الحديثة. (شكل ٩)



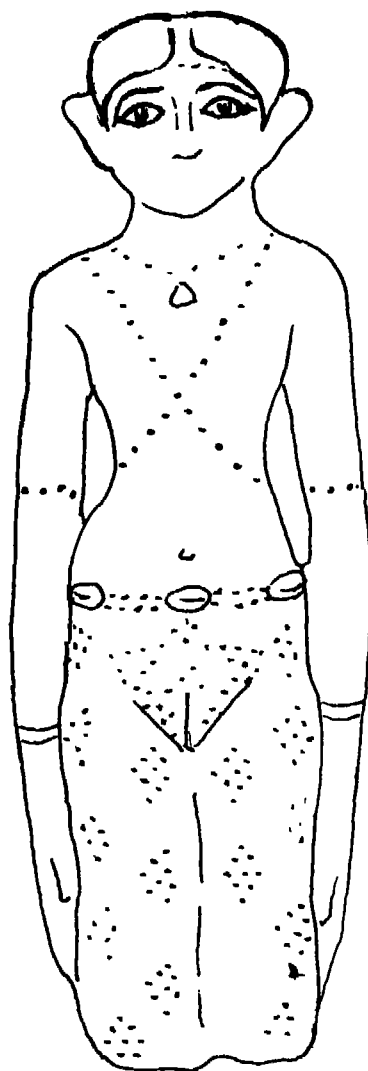
شكل (٧)  
صندوق الأواني الكانوبية النحلة الوسطى



شكل (٨) ١  
رسم تخيلي لمقبرة (بنى حسن)



شكل (٨) ب  
رسم تخطيطي للقبرة «سرنهوت» (أسوان)



شكل (٩)  
محظية المتوفى  
الدولة الوسطى . طيبة  
متحف برلين

ومع ذلك أصبحت التجهيزات الجنائزية، فى مجملها أكثر ثراء وأكثر تنوعاً، فتضم، على حد سواء، أشياء مرتبطة بالطقوس الدينية وبالحياة اليومية، كالحلى وأدوات الزينة أو أشياء ذات استخدام مهنى، كما تضم أيضاً الأسلحة.

وعثر فى العديد من مقابر الدولة الوسطى على أشياء ذات طابع متفرد جداً، غايتها حماية المتوفى: عصى سحرية مصنوعة من عاج فرس النهر، حفرت على سطوحها زخارف تمثل كائنات شريرة متنوعة، إلى جانب رموز واقية مثل الضفدع والإله «بس» والإلهة «تاورت». ونذكر مقبرة تم الكشف عنها بجوار معبد الرامسيوم (أهى مقبرة ساحر؟) وتضم أربع عصى سحرية وتمائم وتمائيل لنساء عاريات، وتمثالاً صغيراً لامرأة تمسك بثعابين وصندوقاً صغيراً مليئاً بقراطيس بردى سحرية.

إن مقابر الفقراء هى دائماً مقابر بسيطة، مشيدة بالطوب ومقبرة، ويوضع الجسد فى الغالب فى قاع بئر. ولا نلاحظ فى واقع الأمر أى تطور منذ الدولة القديمة إذ أن التغيرات قد أدخلت أساساً فى مقابر الأثرياء التى يحاول الفقراء تقليدها فى حدود امكانياتهم.

## (٤) متون التوابيت

منذ الدولة الوسطى، والسطوح الداخلية للتوابيت الخشبية تغطى بالمدونات الهيروغليفية: ألا وهى متون التوابيت. إنها مجموعة غير متجانسة من النصوص التى تختلف من منطقة الى أخرى (وإن ظلت بعض النصوص ذات الأهمية القصوى ثابتة، كما هى، فى كل مكان). ومتون الأهرام هى نموذجها الأصلى، ومن هنا لا يمكن تفسير بعض التعويضات، غير المناسبة للأفراد، إلا لأنها كانت أصلاً تخص فرعون. وفى عصر الإنتقال الأول، أخذ الكتبة ينسخون متون المقابر الملكية لأجل أعيان البلاد. إن الغالبية العظمى للتوابيت التى دونت عليها النصوص قد تم الكشف عنها فى المنطقة المحصورة بين إهناسيا المدينة وأسيوط. الأمر الذى يعكس، بلاريب، الأهمية التى اكتسبتها هذه المنطقة فيما بين عصر الإنتقال الأول والدولة الوسطى.



وتتضمن هذه النصوص عناصر متنوعة جداً: نصوصاً خاصة بحماية جسد المتوفى، وأخرى خاصة بمصير المتوفى، وحسراً بمخاطر العالم الآخر وتعويضات وقائية، و«جغرافية» العالم الآخر... وتشير بعض النصوص إلى قدرات المتوفى في العالم الآخر:

«السماء ملك لك، والأرض منحت لك، لقد تحدد مصيرك في «حقل النعيم المزدوج» (مثنوى الأبرار) مع «أوزيريس»، سوف تصعد نحو «رع» في السماء والآلهة المقيمة فيها سوف تطيعك، فقد أعطيت سلطة رئيس أهل الغرب («أوزيريس»).

(نقلًا عن الترجمة الفرنسية : متون التوابيت : CT 764, traduction P.Barguet)

ويبدو أن تعويذة من هذا النوع كانت تناسب الملك فحسب، ولكن من الواضح أن كل متوفى من عليّة القوم كان في هذا العصر يتمتع بها وتشير بقية النص إلى رحلة العالم الآخر:

«إنى أعرف طريق الغرب، إنى أجتاز البحيرة، إنى أعبّر قبة السماء، إنى انجو من قاعة الذبح، انى أتجاوز وادى الفيافى، إنى أعبّر البلد المقدس، إنى انتعش في السماء الرطبة. إنى بار».

(نقلًا عن الترجمة الفرنسية: متون التوابيت CT 344, traduction P. Barguet)

ومن الأمثلة الفريدة حقاً، «الخريطة» التي تصور دروب العالم الآخر التي رسمت على سطح من السطوح الداخلية لتابوت، يرجع تاريخه إلى الأسرة الثانية عشرة، عثر في البرشا. ويجدير بالملاحظة أن مصير المتوفى، كما تصوره أبناء هذا العصر ينظر إليه من زاويتين : فهو من ناحية رحلة في المحيط السماوى إلى جانب الإله «رع»، وهو من ناحية أخرى، رحلة في العالم السفلى في مملكة «أوزيريس».

ويبين النص التالى إلى أى مدى كان قدماء المصريين يضعون ثقتهم في التعويضات السحرية الطقسية :

«ذاك الذى يعرف هذه الكلمة الإلهية، سيلازم «رع» وسط الآلهة في السماء. سيكون النصر من نصيبه في كل محكمة يمثل أمامها، ويأكل الخبز في كل مكان يتوجه إليه، وسيتحول إلى كل ما يرنو إليه. حقاً إنها لفاعلية :أجعة».

(نقلًا عن الترجمة الفرنسية: متون التوابيت : CT 651, traduction. P. Barguet)

والعديد من هذه التعويذات تستند الى المعتقدات الشمسية، ولكن أهمية دور «أوزيريس» قد أخذت تتعاظم على مر الزمان، إن الاشارات الى تقطيع أوصاله وإلى اعادة تشكيل جسده بفضل «إيزيس» كثيرة جداً، كما أن المتوفى الذى يدعى «أوزيريس» «س»، غالباً ما يندمج فيه. كما أن الإلهة «نوت» تلعب دوراً بارزاً جداً حيث انها تصور فى الغالب داخل التواييت، إن وظيفتها هى أن يولد المتوفى من جديد تماماً، كما انها تعمل على أن تولد الشمس من جديد.

وكما نرى فإن مزايا الخلود، التى كانت وفقاً على الملك والمحيطين به، أخذت تنتشر بين طبقات واسعة من المجتمع: وحتى تصل هذه المعتقدات الى النتيجة المرجوة، يتعين بالطبع ان «تدعمها» شعائر جنازية، وهو ما يعنى تخصيص «أوقاف» لتأمين إقامة هذه الشعائر مادياً (خدمة القرايين). الأمر الذى يفسر من ناحية الأهمية المتعاظمة فى المجتمع المصرى لفئة الكهنة، فالكاهن هو المنوط به القيام بهذه الشعيرة، ومن ناحية أخرى، فإن العائلات الثرية وحدها هى التى فى وسعها أن تتحمل أعباء الوقف.

## الفصل الرابع

### التحنيط فى ظل الدولة الحديثة

#### ١- عصر الإنتقال الثانى

وبعد الدولة الوسطى عرفت البلاد مرحلة جديدة مظلمة. وقد تميزت بالعودة إلى إنقسام مصر إلى مملكتين. إن إختفاء السلطة المركزية الواحدة قد شجع قبائل قادمة من الشرق الأدنى الآسيوى على الإستقرار تدريجياً فى الدلتا، وأن ينتحل زعمائها لقب فرعون، ثم انتهى بهم الأمر إلى فرض سيطرتهم على الوجه البحرى بأكمله ووادى النيل حتى شمال طيبة لفترة قرن ونصف أو قرنين. إنهم الهكسوس الذين تم الكشف عن عاصمتهم أواريس فى القسم الشرقى من الدلتا فى تل الضبعة - قنطير. ورغم أن تمصير هؤلاء «الغزاة» قد بلغ حداً كبيراً، فقد جلبوا معهم عاداتهم الجنائزية وحافظوا عليها، كما تشهد على ذلك مقابرهم التى عثر عليها فى تل الضبعة: فالموتى الموضوعون فى حفر مستطيلة قليلة العمق لم يكونوا محنطين وفى بعض الأحوال، كانت الحمير تذيب، بل أمكن العثور على خدم قتلوا عند مدخل مقبرة سيدهم. إن هذا النوع من الأضاحى، مع الدفن على مقربة من مقبرة السيد، لم يكن أبداً ليتفق والتقاليد والأعراف المصرية.

ومن ناحية أخرى، احتفظت مصر بالعادات الجنائزية التقليدية. ومع ذلك فإن معلوماتنا حول هذا الموضوع شحيحة نظراً لعدد المومياوات المحدود الذى وصلنا عن هذا العصر المضطرب. إن مومياء الملك «سقنن - رع - تاعا» الثانى التى عثر عليها عام ١٨٨١ فى خبيثة الدير البحرى ضمن المومياوات الملكية للدولة الحديثة، يرجع تاريخها إلى نهاية هذا العصر. إن هذا الملك الذى يحمل فى رأسه آثار جروح كثيرة، كان سبب العديد منها ضربة بلطة، قد لقى حتفه، دون ريب فى ساحة الوغى، وربما فى خضم المعركة الفاصلة التى احتدمت بين الهكسوس والمصريين والتى أدت بالضرورة إلى «تحرير» مصر تحريراً نهائياً. وسوف يترك هذا الحدث أثراً عميقاً فى الوعى الجماعى المصرى، لأنه من الآن سيرد ذكر فرعون فى العبارات الرسمية على أنه «محرر» مصر من الهكسوس. ومن

الراجح أن جسد «سقن رع» قد عولج معالجة متسعة بسبب ظروف وفاته المأساوية. لقد تم استئصال الأحشاء وحشى الفراغ الباطنى بالقماش، ولكن ترك الرأس بلا أى معالجة. كان الجسد فى حالة يرثى لها فعثر عليه على هيئة هيكل عظمى عليه بقايا من الجلد. إن مومياء من نفس العصر، عثر عليها «پتري» Petrie فى القرنه، كانت ملفوفة بعدة طبقات من النسيج بعناية فائقة، ولكن الجسد كان قد عولج معالجة غير فعالة (حتى لو افترضنا أنه عولج أصلاً)، إذ لم يتبق منه سوى العظام.

وتظل توابيت هذا العصر محتفظة بشكل صندوق متوازى السطوح، وإن كان الغطاء محدباً فى الغالب. والتابوت الداخلى يتخذ هيئة آدمية وهو مذهب فى الغالب فى مقابر الأثرياء. وفى منطقة طيبة، فإن التابوت الذى على هيئة آدمية، هو من النوع «الريشى»: إنه زخرف متميز يتكون من جناح واحد أو عدة أجنحة تغطى غطاء التابوت. وتذكرنا هذه الأجنحة بأجنحة الإلهتين «إيزيس» و«نفتيس» اللتين تحميان المتوفى، وقد دونت فى وسط الغطاء، بين الأجنحة تعاويذ شعائرية واسم المتوفى. إن نوعية هذه التوابيت هى نوعية رديئة فى الغالب ماعدا توابيت ملوك وملكات الأسرة السابعة عشرة، التى عثر عليها فى دراع أبو النجا، التى تتميز بحسن الصنعة، وهى مذهب، ومرصعة بعينين.

## ٢- اكتشاف المومياوات الملكية

ومع أن مزيداً من التطور كان فى انتظار فنون التحنيط مع مطلع المرحلة الإنتقالية الثالثة، فإن الدولة الحديثة هى التى قدمت لنا أبرز نماذج المومياوات وأشهرها: ألا وهى المومياوات الملكية التى تم الكشف عنها على عدة مراحل فى نهاية القرن الماضى. لقد جعلت هذه الاكتشافات من مصر، البلد الوحيد فى العالم الذى يمكننا أن نتأمل كل ملوكه تقريباً خلال مرحلة تصل إلى أربعة قرون، تمتد من ١٥٥٠ إلى حوالى ٩٦٠ ق.م.

هذا «المجمع» العجيب يسمح لنا بأن نقف على ملامح السكنينة البادية على «سيتى» الأول أو ملامح السلطان البادية على «رعمسيس» الثانى، إذا اكتفينا بالإشارة إلى أشهر تلك المومياوات.

ويعود الإكتشاف الأول إلى عام ١٨٨١ وجاء ليتوج تحقيقات الشرطة التى أمر بها أصلاً جاستون ماسپرو G. Maspero الذى كان مديراً للحفائر (والذى سيصبح فيما بعد مديراً لمصلحة الآثار المصرية) وأمين متحف بولاق. وباشرها بنشاط مأمور شرطة الأقصر. فقد لفت انتباه «ماسپرو» ظهور قطع قيمة جداً فى السوق «الموازية» للآثار جاءت فى المقابر الملكية، كما أثبتت ذلك المدونات التى ذخرت بها (ومن بينها بردية «پاى نجم» الأول). وانصبت شكوكه على أفراد عائلة عبد الرسول المقيمة فى القرنة، ولكن بعد أن استغرقت التحقيقات شهوراً عديدة، دفعت المنازعات العائلية بأحد أفرادها إلى أن يكشف مدير المديرية بهذا الموضوع. فقبل عشر سنوات، كان الإخوة عبد الرسول قد عثروا فى جبل الدير البحرى على خبيئة تضم عدداً كبيراً من الموميאות والآثاث الجنائزى. وتصرفوا بحذر شديد، فلم يأخذوا شيئاً من هذا الكنز سوى ثلاث مرات فى ظرف عشر سنوات. وإذا كان «ماسپرو» غائباً، فقد أوفد الخديوى المفتش أحمد كمال وعالم الآثار الألمانى «بروكش» E. Brugsch (المعاون السابق لعالم المصريين «مارييت») وتمكنوا أخيراً من الدخول إلى الخبيئة يوم ٥ يوليو ١٨٨١. واستناداً إلى ما تلقاه «ماسپرو» من تقارير فإنه يصف هذا الكشف على النحو التالى:

اصطحب محمد أحمد عبد الرسول السيدين «إميل بروكش» Emile Brugsch وأحمد أفندى كمال إلى نفس المكان الذى يقضى إلى المقبرة. إن المهندس المصرى الذى حفر فى الماضى هذه الخبيئة قد وفر لها أفضل الإحتياجات. فلا توجد خبيئة قد أخفيت على نحو أفضل... إن تقرير محمد أحمد عبد الرسول الذى كان يبيع لأول وهلة مبالغاً فيه كان تعبيراً متواضعاً عن الحقيقة: فحيثما كنت أتوقع أن أعثر على ملك أو ملكين من صغار الملوك الخاملين الذكر، كان الأهالى قد كشفوا عن مقبرة مملوءة عن آخرها بالفراعنة. وأى فراعنة! ربما كانوا من أشهر فراعنة تاريخ مصر... وظن السيد «إميل بروكش» أنه كان ضحية حلم إذ وجد نفسه فجأة وسط مثل هذه الجماعة ومازلت أنا شخصياً أتساؤل إن كنت حقاً لا أحلم، وأنا أشاهد وألمس ما كان جسد كل تلك الشخصيات التى كان يظن المرء أنه لن يعرف عنهم سوى الأسماء...

وإذا علقت القضية، فقد تم إفراغ محتوى الخبيئة فى ظرف ستة أيام بواسطة ثلاثمئة عامل لينقل إلى الأقصر ومنها إلى القاهرة. وفى المسافة من الأقصر إلى قفت، تصرفت الجماهير بعد أن أحيطت علماً بالمسألة كما فى المواقب الجنائزية، فعند مرور السفينة التجارية التى تحمل الفراعنة أخذ الرجال يطلقون الأعيرة النارية أما النساء فقد تعالت

صرخاتهن تعبيراً عن حزنهن ... إن أربعين مومياء تعود إلى الفترة الممتدة من الأسرة السابعة عشرة إلى الأسرة الحادية والعشرين كانت قد عادت لترى النور من جديد.

- الأسرة السابعة عشرة: سقن رع تاعا الثانى

- الأسرة الثامنة عشرة: أحمس، وامنحوتب الأول، وتحوتمس الأول والثانى والثالث، وسى أمون. وعشر أميرات وملكات من بينهن أحمس نفرتارى.

- الأسرة التاسعة عشرة: سيتى الأول ورعمسيس الثانى

- الأسرة العشرون: رعمسيس الثالث ورعمسيس التاسع.

- الأسرة الحادية والعشرون: پاى نجم الأول والثانى. وجد بتاح إيوف عنخ وثمانى أميرات وكبيرات كهنة ومنهن «حنيت تاوى».

- إلى جانب ثمانى مومياوات مجهولة الصاحب.

وبعد عشرين عاماً اكتشف فيكتور لوريه Victor Loret ، مدير مصلحة الآثار المصرية مقبرة امنحوتب الثانى فى وادى الملوك: كان الملك لايزال راقداً فى تابوته، وإلى جانبه القوس الذى تروى القصص أنه لم يكن يوسع أحد سواه أن يستخدمه. وسمحت أعمال التنقيب فى المقبرة بالعثور فى حجرتين جانبيتين على خمس عشرة مومياء أخرى، ومنها على ما يعتقد عشر مومياوات ملكية كانت مجهولة حتى الآن وجملة ماقدمه هذا الكشف الجديدة:

- الأسرة الثامنة عشرة: امنحوتب الثانى والثالث وتحوتمس الرابع وتى (٩)

- الأسرة التاسعة عشرة: مرنبتاح وسيتى الثانى وسى پتاح وتاوسرت (٩)

- الأسرة العشرون: رعمسيس الرابع والخامس والسادس.

- خمس مومياوات مجهولة الصاحب.

وأدرك «لوريه» أنه كان قد كشف عن خبيئة شبيهة بخبيئة الدير البحرى وتسمح عمليا باستكمال قائمة فراعنة الدولة الحديثة. وسمحت له دراسة المدونات الواردة على الشرائط بالتحقق من أن إعادة دفن هذه المومياوات كانت معاصرة لإعادة دفن مومياوات خبيئة الدير البحرى. وبالفعل، ففى زمن الكاهن الأكبر والفرعون «پاى نجم» حول عام ٩٦٠،

ولواجهة انتشار عمليات السرقات التى اجتاحت المقابر الملكية، قرر الكهنة تجميع الأجساد، وبعد إعادة لفها بالشرائط على أحسن وجه، قاموا بإخفائها بطريقة آمنة فى أماكن مختلفة من جبل طيبة: فلنذكر قصة طريفة تتعلق بمحنة هذه المومياءات البائسة: فعند وصولها إلى القاهرة، لم يعرف المسئولون تحت أى بند تندرج هذه «السلعة» الغريبة لتقدير رسومها، فُسجِلت على أنها «سمك مجفف».

وفى عام ١٩٠٧، اكتشف «ويجال» A. Weigall و«ايرتون» E. Ayrton فى وادى الملوك المقبرة (رقم ٥٥) وقد ختم بابها بخاتم «توت - عنخ - آمون». ومازالت المومياء التى عثر عليها فى حجرة الدفن تثير مشاكل حول التعرف على صاحبها، ومن المحتمل أنها لأحد أفراد أسرة «إخناتون». ربما مومياء «سمنخ كارع» شقيق توت عنخ آمون أو ربما «كيا» (إحدى زوجات أخناتون). إذ يصعب علينا بسبب الوضع الراهن لرفات المومياء أن نحدد جنس صاحبها بشكل قاطع، وعلى كل حال، فإن فصيلة دم المومياء هى نفس فصيلة دم «توت عنخ آمون».

وفى وقت لاحق أيضاً، فى عام ١٩٢٢، جاء اكتشاف مقبرة «توت عنخ آمون» الذى طبق صيته الأفاق، ليضع فى الصدارة ملك من ملوك الدولة الحديثة، ظل حتى تلك اللحظة مغموراً لانعرف عنه سوى القليل. ولأول مرة، يعثر العلماء على محتويات مقبرة ملكية كاملة فى واقع الأمر، وبصفة خاصة محتويات حجرة الدفن التى لم يقترب منها أحد. تطلب الأمر من «هوارد كارت» أن يعمل على امتداد مالا يقل عن أربع سنوات، قبل أن يتمكن من فتح المقاصير الذهبية التى تحتوى على تابوت الملك.

... كنت فى غاية الإضطراب، وفتحت مزليج الباب الأخير لآخر مقصورة من الخشب المذهب والتى لم تكن مختومة. وفتحت ببطء، وشاهدنا التابوت الضخم المصنوع من الكوارتزيت يملأ المقبرة بأكملها. كان سالماً، كما لو أن أيديا ورعة قد أغلقته لتوها. ياله من مشهد رائع لاينسى، يبرز جماله ضياء الأشياء الذهبية! عند أقدام التابوت، كانت إحدى الآلهات تمتد يديها وجناحيها فى حركة حامية وكأنها تريد إبعاد الدخلاء....

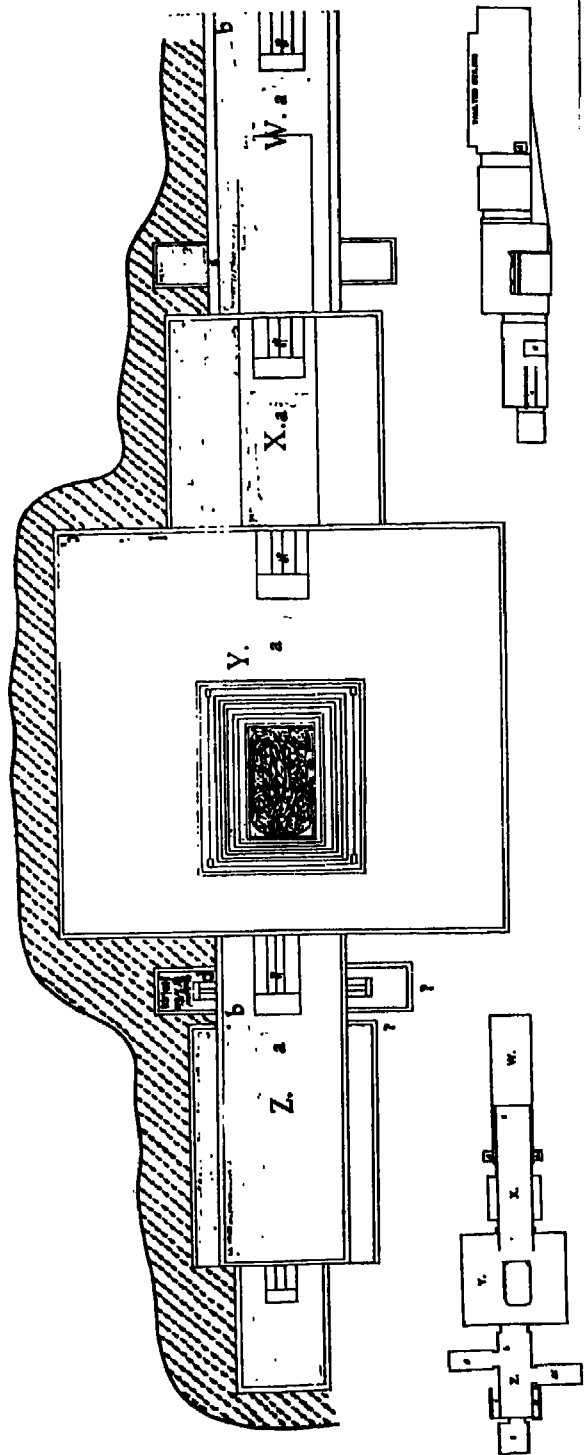
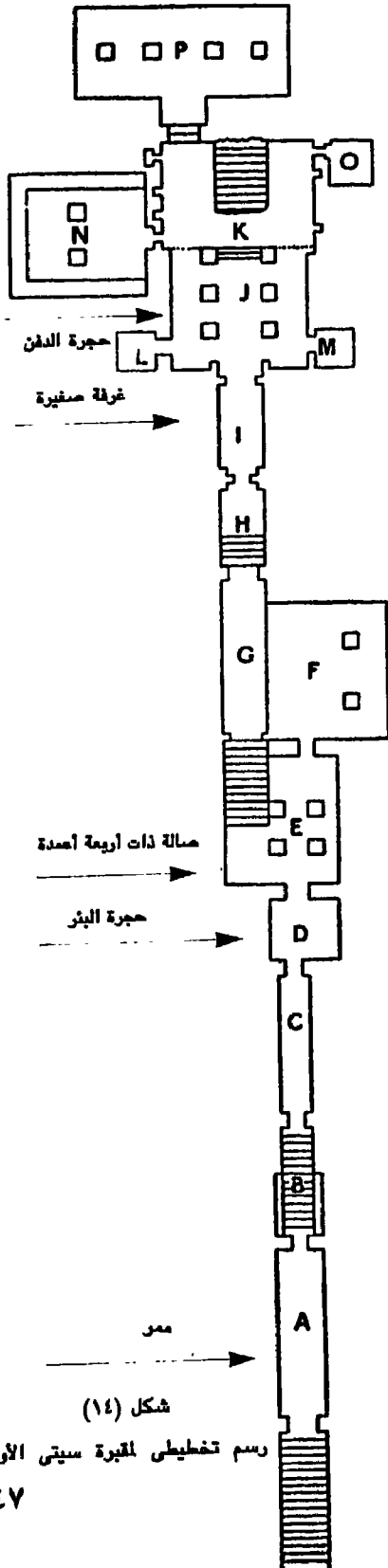
ولاريب أن بطء سير العمل يرجع فى جانب منه إلى ضخامة عدد القطع المطلوب جردها والقوضى الشاملة التى خلفها اللصوص وراهم. ولكن علينا أيضاً أن نأخذ فى الحسبان ضرورة تقوية بل وترميم هذا العدد الكبير من القطع التى أصبحت هشه جداً بعد أن ظلت ٣٣٠٠ عام فى المقبرة. إن قسماً من هذه الأشياء كان له وظيفة شعائرية بحتة ولكن قسماً آخر، يضم أثاثاً وأسلحة وثياباً، ربما كان الفرعون قد استخدمها أثناء حياته.

إن القيمة العظيمة لهذه المجموعة ونوعيتها الرفيعة تبين بوضوح المستوى التقنى والفنى الراقى جداً الذى بلغه صاغة وحرفيو هذا العصر. وإذا نترك العنان لخيالنا يمكننا أن نتصور الكنوز التى كانت تضمها مقابر الفراعنة العظماء والأثرياء من أمثال تحوتمس الثالث أو رمسيس الثانى. إن اكتشاف مقبرة «توت عنخ آمون» لهو حدث على قدر كبير من الأهمية، لأنها توفر لنا أفضل مثال على دفنة الملوك فى أوج قوة مصر.

كان تابوت الكوارتزيت تضمه أربع مقاصير من الخشب المذهب الواحدة داخل الأخرى. وسمح هذا النظام بإلقاء الضوء على بردية متحف تورين التى تصور رسماً تخطيطياً لمقبرة رمسيس الرابع وتفسرها تفسيراً سليماً. أما تابوت الكوارتزيت فكان يضم بدوره ثلاثة تواييت الواحد داخل الآخر. التابوتان الأولان من الخشب المذهب المكفت بالقيشانى وعجينة الزجاج. أما التابوت الأخير فكان من الذهب المصمت ويزن ١١١٠ كيلو جراماً بالتمام والكمال! كانت هذه التواييت على هيئة آدمية، والملك فى وضع أوزيرى ممسكاً العصا «حقاً» وسوط «أوزيريس». ولم تنته المفاجآت عند هذا الحد، حيث إن فتح التابوت الأخير قد كشف عن قناع جنازى من الذهب المصمت (٤٠ كجم) وكانت صياغته آية فى الجمال، وقد وضع على المومياء مباشرة. وكان التابوت الثانى مغطى بالكامل بقماش رصت عليه أكاليل الزهور وتاج التبرير وهو أيضاً من الزهور الطبيعية وكان موضوعاً على الجبين. وقد وضعت أيضاً قلادة كبيرة من الزهور والخرز على صدرية التابوت الثالث. وترتب على فك أربطة المومياء العثور على عدد ضخم جداً من الحلى والتمائم القيمة جداً. أما فيما يتعلق بالمومياء ذاتها، فكان الأمر مختلفاً ومخيباً للأمال إلى حد ما، لأن الكمية الكبيرة من الأدهان، قد «أحرقتها»، بكل معنى الكلمة. كانت فى حالة سيئة جداً. وقد اسودت تماماً نتيجة مواد التحنيط. كانت أصابع الرجلين واليدين داخل أغلفة من ذهب. كان الملك قد توفى وهو فى ريعان الشباب، ويتراوح عمره بين ١٧ و ١٩ سنة، ولكن فحص المومياء لم يساعدنا على تحديد سبب الوفاة. شكل (١٠)

لقد استأثرت دراسة المومياءات الملكية باهتمام العلماء منذ أن تم الكشف عنها. فقد نشر «ماسپرو» و«بروكش» منذ خريف ١٨٨١ ألبوماً فوتوغرافياً للمومياءات التى تم الكشف عنها فى الدير البحرى. وأصدر إليوت سميث Elliot Smith عام ١٩١٢ أطلساً يضم صوراً فوتوغرافية وأوصافاً لمجموعة المومياءات الملكية التى يحتفظ بها متحف القاهرة. وفى عام ١٩٦٧ انتهى «هاريس» Harris من فحص المومياءات بالأشعة فحوصاً متعمقاً، وأصدر عام ١٩٧٣ بالتعاون مع «ويكس» K. Weeks كتاب «الفراعنة بالأشعة





السينية «X Raying the Pharaohs» . ثم عام ١٩٨٠ بالتعاون مع «ونت» E. Wente .. «أطلس المومياوات الملكية بالأشعة السينية» X. Ray Atlas of th Royal Mommies ومؤخراً، ثم فحص العديد من المومياوات الملكية بالأشعة من جديد، بهدف تحديد بعض المعلومات. وكانت مومياة رمسيس الثانى التى نقلت إلى فرنسا عام ١٩٧٦ محل دراسات مستفيضة وترميم متقن.

ويحلول الدولة الحديثة، أصبحت مومياوات الأشراف وكبار الشخصيات أكثر عدداً وتطورت نوعيتها أسوة بمومياوات الفراعنة. ومن الأمثلة الطيبة الزوجان «يوياء» و«تويا» والدا الملكة «تيتى»، زوجة «أمنحوتب» الثالث. لقد احتفظت هاتان المومياوان إلى حد كبير بمظهر الشخص الحى وتشهدان على المستوى الذى وصل إليه فن التحنيط فى ذلك العصر. وكان استخراج الأحشاء الداخلية هو القاعدة بالنسبة للمومياوات التى نالت أفضل معالجة. وينبغى أن نلاحظ تغير مكان الفتحة التى تستخرج منها الأحشاء الداخلية: فبعد أن كانت رأسية فى بداية الأمر، عند مستوى الخاصرة اليسرى، أصبحت هذه الفتحة اعتباراً من الأسرة الثامنة عشرة موازية للخط الحرقفى العانى الأيسر. كما انتظمت عملية تفريع الجمجمة وفقاً لمنهج ثابت: وأصبحت تتم فى المعتاد عن طريق العظمة المصفاوية.

وإن ظلت المومياوات دائماً فى وضع ممدد، إلا أنها حافظت على أوضاع متنوعة فيما يخص الأطراف العليا: فقد توضع على امتداد الجسد، وتلتف الراحتان حول الفخذين أو توضع فوق الأعضاء التناسلية (بالنسبة للرجال)، ويرتبط وضع الساعدين متقاطعين فوق الصدر بالتصور الأوزيرى. فتلتف اليدان حول الكتفين، فى حين أن الراحتين فى حالات أخرى، قد وضعتا بكل بساطة فوق القفص الصدرى.

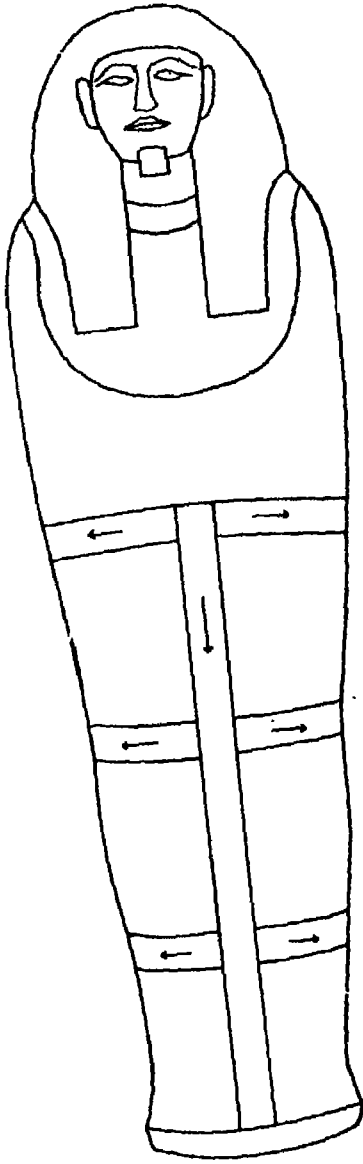
وفى ذلك العصر، شهدت عملية التحنيط انتشاراً أوسع. وهو ما يبرهن عليه اكتشاف «جفرى مارتين» Geoffrey Martin فى سقارة، فقد عثر فى مقبرة الأميرة «تيا» شقيقة رمسيس الثانى على دفنة لأحد رجال البلاط وهو «يورودف». وكانت هذه الدفنة قد أحرقت، بعد دفن «يورودف» بوقت قصير، على ما يبدو لافساح المكان لشاغلين جدد. هكذا تم العثور على ٧٥ مومياة ترجع إلى الدولة الحديثة، من بينها العديد من مومياوات الأطفال.

### ٣- تجهيز الموميا

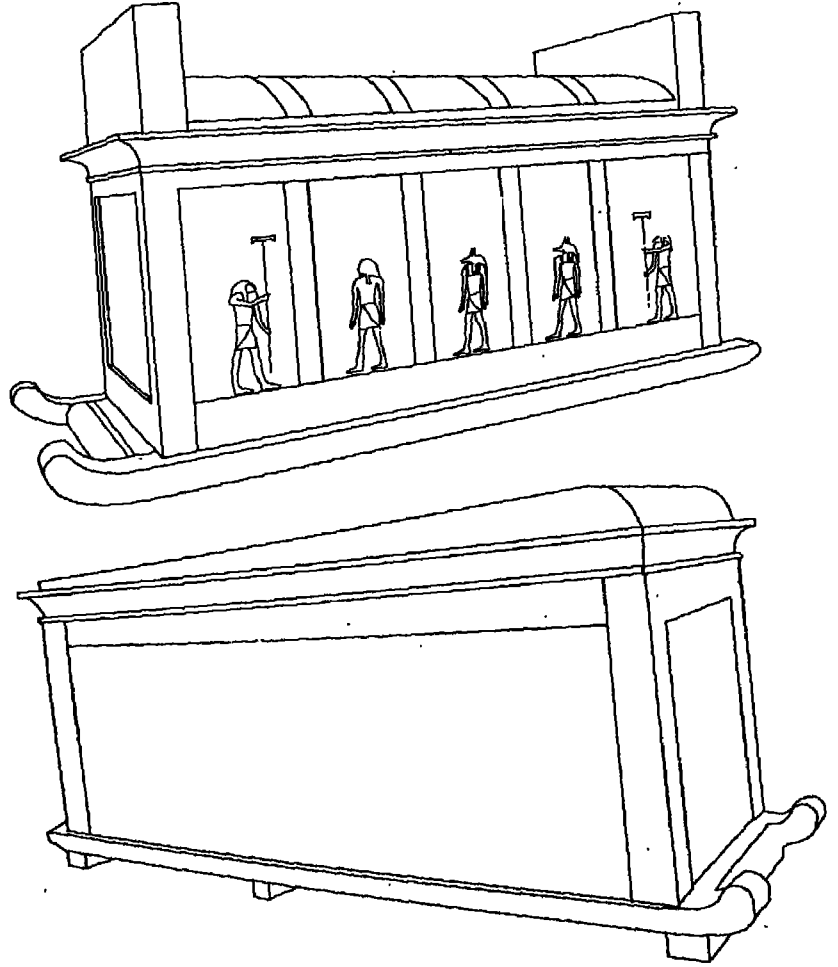
صار استخدام تابوت على هيئة آدمية، هو القاعدة، فى ظل الدولة الحديثة، ولكن كانت زخارفها شديدة التنوع. كانت فى مطلع الأسرة الثامنة عشرة بسيطة نسبياً وضخمة، وتصور موميا مدثرة فى الأربطة وتحمل قناعاً. ورسمت على الغطاء أشرطة تقلد الأربطة، باللون الأبيض فى المعتاد، وتشكل خلفية تدون عليها النصوص. وفى وقت لاحق، اقتربت هذه التوابيت، أكثر فأكثر، من الشكل آدمى، فيمثل القناع فى الغالب حاجبين وهو مرصع بعينين من عجينة الزجاج واليدان منحوتتان بالنحت البارز، وعلاوة على ذلك، أضيفت بين الأربطة، صور توضيحية لمشاهد من العالم الآخر، لتستكمل الجانب الزخرفى. ونذكر على سبيل المثال تابوتى «يوبا» و«تويا» (فى عهد أمنحوتب الثالث)، وفيما بعد أيضاً، ازدادات المساحة المخصصة للنصوص ووزعت العناصر الزخرفية على صفوف ولوحات تمثل مختلف المواضيع الميثولوجية، نذكر منها الإلهة «نوت»، و«إيزيس» و«نفتيس» وهما تعانقان أوزيريس، وأبناء «حورس»... وفى بعض الأحوال يمكن أن يصور المتوفى على التابوت مرتدياً الملابس التى كان يرتديها فى الحياة اليومية: تلك هى حالة «سن نجم» وزوجة ابنة السيدة «إيزيس» (الأسرة التاسعة عشرة).

وحسب ثراء المتوفى، فإن الأغلفة التى تحيط به تزداد أو تقل من حيث العدد والإتقان ويبدو أن كل فرعون كان له ثلاثة توابيت على هيئة آدمية، والأخير الذى يضم الجسد كان من الذهب المصمت كما فى حالة «توت عنخ آمون»، فى حين كان الآخران من خشب الأرز المغطى بصفائح من ذهب وعناصر زخرفية من عجينة الزجاج. كانت هذه التوابيت الثلاثة المتراكبة موضوعة فى تابوت حجرى يحتويه بدوره عدد من المقاصير المصنوعة من الخشب المذهب (بالنسبة لـ «توت عنخ آمون» وربما أيضاً بالنسبة للفراعنة الآخرين، الأمر الذى قد تبرهن عليه البردية التى توضح الرسم التخطيطى لمقبرة رعمسيس الرابع). ومن المؤكد، بلاشك، أن كل هذه التجهيزات كانت وقفاً على الملوك، ولكن كان بعض الأثرياء يملكون فى الغالب ثلاثة توابيت موضوعة فى تابوت ضخّم قد يكون من الحجر أو من الخشب. إن التوابيت الملكية الضخمة هى دائماً من الحجر، فقد تطور شكلها من أبسط الأنواع، المماثلة لتوابيت الدولة الوسطى، أى أن جانبيها وغطاها كانت مسطحة، لتنتهى إلى أشكال أكثر تعقيداً، كأن يكون الغطاء محدباً مثلاً. فتابوت رعمسيس الثالث الضخم على سبيل المثال هو على هيئة خرطوش. والحجر المستخدم بالنسبة للفراعنة هو الكوارتزيت أو الجرانيت

شكل (١٢)



شكل (١١)  
تابوت على هيئة انسان



شكل (١٢)  
(a) تابوت «يوسا»  
(b) تابوت «ثويا»

أيضاً. إن الزخارف هي واحدة على الدوام في واقع الأمر، فتصور العينان «واحات» على الجانب الأيسر، والإلهة «إيزيس» ناحية الرأس، والإلهة «نفتيس» ناحية القدمين. أما النصوص فهي عبارة عن مقتطفات من متون التوابيت (أو الأهرام). وتدرجياً ستحل محلها تعويذات جديدة تعرف باسم كتاب الموتى، ويدورها سيتم نسخها على البردي بالنسبة للأفراد.

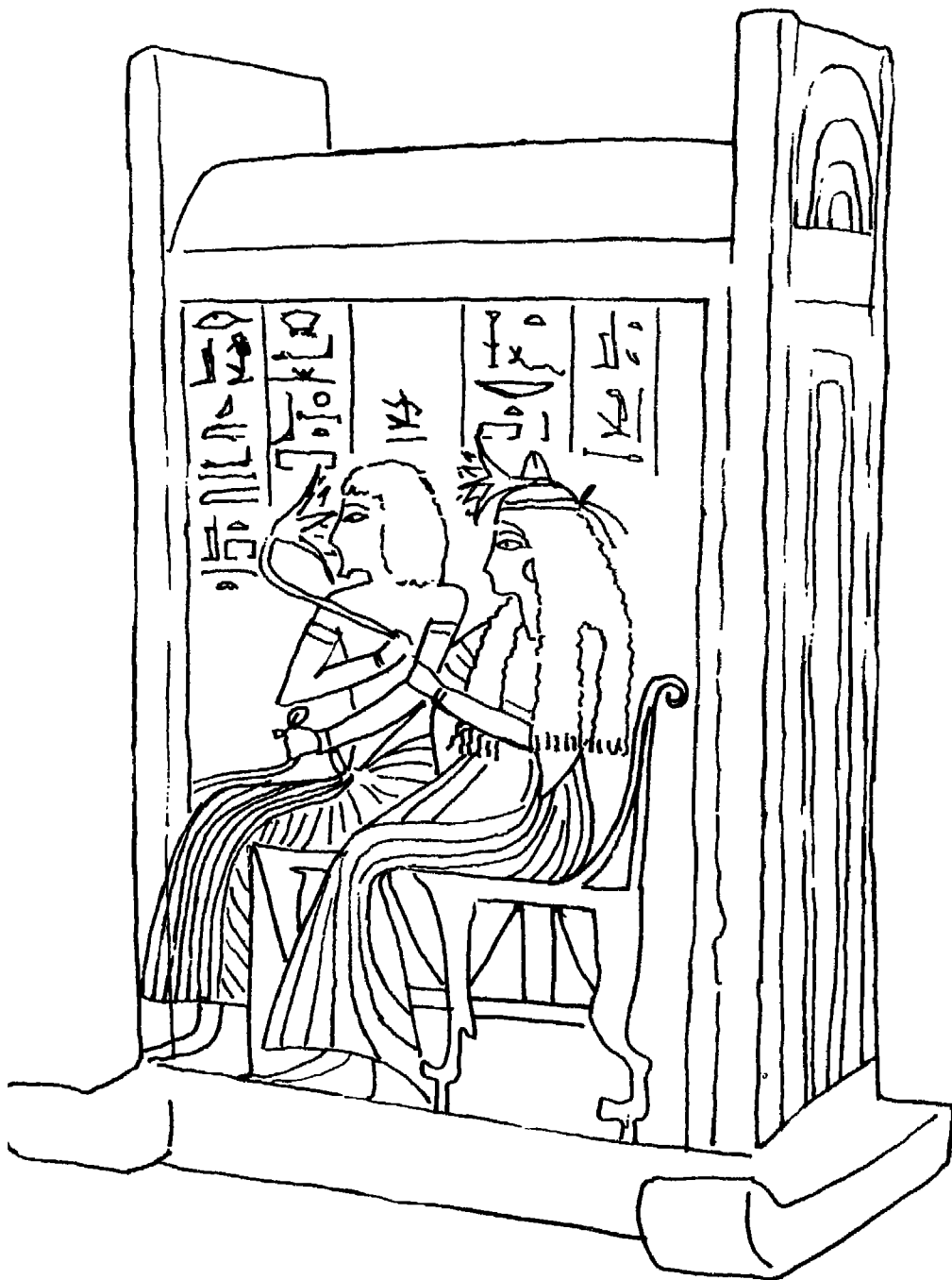
وعند نهاية عصر العمارنة يظهر طراز جديد من التوابيت، وقد صور عن أركانه الأربعة بالنحت البارز أربع آلهات مجنحة هي «إيزيس» و «نفتيس» و «نيت» و «سلكت». إن تابوتي «توت عنخ آمون» و «حورمحب» هما خير نموذجين لهذا الطراز.

وفي عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، كانت التوابيت الضخمة مصنوعة من الجرانيت في المعتاد. ومن الممكن أن تنحت صورة الملك على سطح التابوت. (مثل تابوت مرنبتاح). وتزداد مساحة المدونات وهي أكثر تنوعاً من ذي قبل، ومنقولة عن مصنفات لاهوتية جديدة مثل كتاب البوابات.

#### ٤- الأثاث الجنائزي

وإذ ظلت عمليات سلب ونهب المقابر في مختلف الأزمنة، «رياضة وطنية» حقيقية، فإن القليل من المقابر قد وصلتنا سالمة. وحتى مقبرة «توت عنخ آمون» الشهيرة «زارها» للصمصوم مرتين. وربما كان تشييد مقبرة «رعمسيس» السادس القائمة فوقها على وجه التحديد، هي التي حمتها عندما غطت مدخلها بالردم والركام. ورغم كل شيء فإنها توفر لنا مثلاً طيباً لما كان من الممكن أن تضمه مقبرة ملكية من أثاث. فإلى جانب الأشياء ذات الطابع الشعائري فإنها تتكون من العديد من الأشياء التي تعود إلى الحياة اليومية.

ويضم الأثاث الجنائزي مجموعة رائعة من تماثيل الأوشابتي المصنوعة من خشب الأرز أو من الخزف. وينقسم صندوق الأواني الكانوبية المصنوع من الألبستر إلى أربع خانات ويحتوي على الأواني الكانوبية التي تجسد أغطيبتها صورة الملك، وتضم الأواني بدورها توابيت صغيرة على هيئة مومياء من الذهب المصمت وضعت فيها الأحشاء. وقد وضع صندوق الأواني الكانوبية بدوره في مقصورة من الخشب المذهب وقد وضع كل وجه



شكل (١٣)

صندوق «اوشابتي»

للمدعو «خع باكنت» وزوجته «ايزيس» الدولة الحديثة

متحف كوينهاجن

من وجوهها الأربعة تحت حماية إلهة (إيزيس ونفتيس ونيت وسلكت). كما توجد تماثيل معظمها من الخشب المذهب تصور إما بعض الآلهة (أنوبيس أو حتحور أو إيجي) أو الملك شخصياً فى أوضاع مختلفة أو بإشارات متنوعة. والعديد من الأسرة المزدانة برأس أسد أو بقرة أو فرس النهر هى أسرة جنازية على نحو خاص، فى حين أن سريراً يطوى، كان من المحتمل أن الملك قد استخدمه أثناء حياته. وبيذكرنا وجود عدد من نماذج السفن برحلة الحج التى كان من المفترض أن يقوم بها الملك المتوفى بعد وفاته. كذلك، عثر على قرابين غذائية، لها مقاصد شعائرية، وقد وضعت بعضها فى صناديق اتخذت شكل محتواها (من فخذ وأوز وما شابه ذلك...).

وكان هناك أشياء أخرى مرتبطة بالوظيفة الملكية، دون أن يكون لها طابع جنازى، نذكر منها المقاعد أو العروش، والصندوق الملون الذى يصور الفرعون فى مشاهد الصيد أو الحرب، ومركبات الإحتفالات (التي لم تستخدم) والمذبة والعصى والصولجانات...

وأخيراً، فإن العديد من الأشياء لها علاقة واضحة بالحياة اليومية للملك، فكان بعضها قد تم استخدامه بالفعل، فى حين صنع البعض الآخر على ما يعتقد ليوضع فى المقبرة. ونقص بذلك أثاثاً مثل السرير السفرى (المطوى) أو مختلف المقاعد والصناديق والألعاب («سنت») وملابس كل يوم أو الإحتفالات، والنعال والشعور المستعارة، وقد وضعت حلى فى صناديق. وهى خلاف الحلى التى وجدت على المومياء. ومن الراجح أن عدداً منها قد سرق، إذ وجد بعضها على أرضية المقبرة، فقد فقدتها اللصوص، إذ جاء من ازعجهم أثناء سطوهم. كما عثر أيضاً فى المقبرة على أسلحة ومنها خنجر نصله من حديد، وهو معدن نادر جداً فى هذا العصر، و«عصى الرماية». وبالطبع، لم تكن مقابر الأفراد تحتوى على مثل هذه الثروات. ومع ذلك فإن مقبرة المهندس «خع» التى عثر عليها سالمة فى دير المدينة عام ١٩٠٦ وترجع إلى حوالى عام ١٤٠٠ ق.م، قد امتدنا بتجهيزات جنازية على قدر كبير من الأهمية (وهى محفوظة حالياً فى متحف تورين). ومن بين هذا الأثاث نذكر على سبيل المثال أسرة جنازية لها أقدام أسد، ولها ملة مصنوعة من ألياف نباتية مجدولة. أما سرير «مريت» زوجة «خع» فكان مفروشاً بملاءات، وحرام ذى أهداب ومسدن رأس تم لفه بنسيج ليصبح أوفر راحة! كما تم العثور على أثاث آخر، نذكر منه المقاعد، ومنها مقعد يطوى، وموائد صغيرة منها واحدة مصنوعة من الخيزران. وكان لايزال عليها أرغفة خبز والعديد من الصناديق الصغيرة تضم أشياء للزينة وبعض البياضات والشعر المستعار لـ «مريت». كانت التوابيت الضخمة مغطاه بأغطية كبيرة ووضعت كميات كبيرة من الأقمشة

فى صناديق: سراويل وشيلان ونقاب العورة وأغطيته وسجاجيد... وكان «صندوق خياطة «مريت» لازال يحتوى على إبر الخياطة. وكانت أدوات الأكل كثيرة جداً: كانت جرار ضخمة مزخرفة أولاً، تحتوى على مواد غذائية (لحم مملح ونبيد ودقيق) وأوان صغيرة من الطين المحروق، أو القاشا نى أو الألبستر، تحتوى زيوتاً عطرية وكحلاً. وكانت السلال فى حالة جيدة من الحفظ وهى مصنوعة فى المعتاد من السعف أو الأسل المجدول. وأخيراً، ومن أدوات «خع» المهنية، نذكر أدوات قياس الطول بالذراع، منها قياس يطوى، وجراب ميزان وبلمطة وأزميل.

ومن الملاحظ، أن الأثاث الجنائزى قد تطور فيما بين الأسرة الثامنة عشرة والأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين: فقد تزايدت نسبة الأشياء الجنائزية على نحو خاص تزايداً كبيراً بالمقارنة مع الأشياء التى تخص الحياة اليومية. وبينما كان المصريون فى أيام الأسرة الثامنة عشرة يضعون فى المقابر كمية كبيرة من الأثاث وأدوات الزينة والأوانى والأقمشة، فقد أصبحت هذه المواد نادرة اعتباراً من ١٣٠٠ ق.م تقريباً لتختفى تقريباً حول عام ١١٠٠ ق.م. وفى الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين، تضم المقابر أساساً تماثيل «الأوشابتي» وبرديات جنائزية وربما تماثيل لأوزيريس مصنوعة من الخشب. وتتضح هذه التعبيرات فى مقابر الأفراد على نحو خاص ولكن أيضاً على ما يبدو فى المقابر الملكية: إن أثاث ملوك «تانيس» هو أقل تنوعاً من أثاث «توت عنخ آمون» بشكل واضح. ومع ذلك، لا يبدو أن هذه التغييرات تعكس فروقاً فى التصورات الخاصة بالحياة فى العالم الآخر.

## ٥- المقابر

بعد أن ظل الفراعنة يستخدمون المقبرة الهرمية على مدى ألف سنة تخلوا عنها بحلول النبوة الحديثة. كانت المقبرة الهرمية واضحة للعيان، فمن شأنها أن تجذب إليها لصوب المقابر، لذا حلت المقابر الصخرية المنقورة فى الجبل، وفى وديان مقفرة:

«لقد أشرفت، لوحدى، على حفر مقبرة جلالته، دون أن يرانى أحد، دون أن يسمعنى أحد».



تلك العبارات مدونة فى مقبرة «إنينى» ، المهندس الذى شاد المقبرة الصخرية للملك تحوتمس الأول، أول من أقام مقبرته فى المكان الذى سيعرف فى المستقبل بوادى الملوك. ويعد أن اختار الفراعنة إخفاء المقبرة تماماً، ترتب تلقائياً على ذلك، الفصل بينها وبين المعبد الجنائزى الذى سوف يشيد من الآن فصاعداً فى الوادى، وعلى مسافة كبيرة فى معظم الأحوال. وتستجيب مداخل مقابر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة إلى حد كبير لهذه الرغبة فى السرية، ولكنها ستصبح فيما بعد مداخل فخمة، بلاشك بعد أن سادت قناعة تؤكد عدم جدوى إخفائها. وفى الحقيقة، فإن ظروفها عرضية وحدها هى التى أتاحت لـ «توت عنخ أخون» ألا يتعرض سوى لبدائيات عملية سرقة واحدة، فحسب. ومن الآن، كان توفير الأمن يعتمد فى المقام الأول على وجود حراس فى كل مدخل من مداخل وادى الملوك.

ولاريب، أن التتنظيم الداخلى للمقابر قد صمم بحيث يشيع الإحباط فى قلوب اللصوص: أبار تعترض الممرات، وغرف جنائزية زائفة، وتغيير محور الدهاليز. إلا أن كل التدابير قد بقيت دون فاعلية تذكر. ففى الحقيقة ومع حلول الأسرة العشرين عندما تحول مراقبو الجبانة الملكية فى زمن رمسيس التاسع إلى لصوص أو ضالعين معهم، على أقل تقدير، بات السطو على المقابر أمراً معتاداً. ولحسن حظنا فقد حفظ لنا الزمن جانباً من حيثيات الدعوى التى أقيمت بهذه المناسبة والتى تبرهن على أن الفساد كان قد نال من عمدة طيبة على ما يرجع...

«لقد فتحنا التوابيت ووجدنا مومياء الملك المهيبة... وجمعنا الذهب الموجود فوق المومياء المهيبة لهذا الإله، كما جمعنا أيضاً ذهب التماثيل والحلى التى كانت حول عنقه... وأخذنا الأثاث المكون من أشياء مصنوعة من ذهب ومن فضة ومن برونز واقتسمناها فيما بيننا... وهكذا وبتعاون رفاقى من اللصوص واصلنا حتى يومنا هذا، السطو على مقابر الأشراف ورجال البلد الراقيين غربى طيبة. وعدد كبير من أهل البلد كانوا يسرقونها مثلنا وكانوا شركاءنا».

وهو ما دفع كهنة طيبة (أيام «حريحور» و «پاي نجم») إلى تجميع المومياءات الملكية فى خبايا مثل خبيثة الدير البحرى أو فى مقابر عرف عنها أنها أكثر أماناً عن غيرها مثل مقبرة «امنحوتب» الثانى.

---

(F. Daumas, la Civilisation de l'Egypte Pharaonique, Paris, 1982).

تعتبر مقبرة سیتی الأول مثلاً جليلاً جداً للعمارة الجنائزية فى الدولة الحديثة. إنها تتكون من مجموعة من الممرات ذات انحدار هابط تعترضها سلالم وتسمح بالوصول إلى صالة البئر المزدانة بمناظر تمثل فرعون فى حضرة مختلف الآلهة. ومن هنا ندخل إلى صالة أولى ذات أعمدة تحاكي حجرة دفن. ومن هذه الصالة، يبدأ ممر جديد يهبط إلى صالة أخرى ذات أعمدة كان فى مؤخرتها تابوت قابع تحت سقف مقوس. ومن المفترض أن الأثاث الجنائزى كان موجوداً فى حجرات مجاورة. إن زخرفة هذه المقبرة، وإن لم يفته العمل فيها (فنشاهد فى بعض الأماكن خطوط ورسومات تحضيرية باللون الأحمر) هى آية فى الروعة وتذكرنا من حيث أسلوبها بزخرفة معبد سیتی الأولى فى أبيدوس. وعدد كبير من هذه المشاهد منقول من كتاب «إيمى دوات» ومن كتاب البوابات. إن هذه المقبرة هى واحدة من أكبر مقابر وادى الملوك. شكل (١٤)

أما مقابر الأفراد فهى أيضاً محفورة فى صخر الجبل فى معظم الأحوال، ولكنها تشمل بناء علوياً يضم هيكلأ أضيف إليه هرم صغير مشيد من الطوب المغطى بالجص. وفى هذا العصر تم إعداد جبانات عديدة فى منطقة طيبة نذكر منها جبانة القرنة وجبانة قرنة مرعى وجبانة الحرفيين فى دير المدينة. وهذه المقابر مشيدة فى الغالب تشييداً جيداً ومزخرفة بعناية فائقة، لاسيما إذا كان ملاكها من الأشراف، ولكن أيضاً عندما كان عمال دير المدينة يشيدونها لحسابهم الخاص، ونذكر على سبيل المثال مقبرة «سن نجم». ومن ناحية أخرى، فإن الحفائر التى أجريت منذ عدة سنين فى منطقة منف، قد أخرجت إلى النور عدداً كبيراً من الدفنات لشخصيات مرموقة تعود إلى الدولة الحديثة، ونذكر منها مقبرة القائد العسكرى «حورمحب»، الذى هجرها بعد أن صار ملكاً، أو مقبرة الوزير «عابر - إل». شكل (١٥)

وعلىنا أن نعيد إلى الأذهان أن الغالبية العظمى من جماهير الناس ظلت تدفن فى حفرة بسيطة حفرت فى الأرض.

## ٦- الخلود الأوزيرى

ويحلول الدولة الحديثة أخذ دور «أوزيريس» يبرز ويتأكد فى المعتقدات الجنائزية. كانت الأسطورة الأوزيرية موجودة من قبل فى متون الأهرام ولكننا نجدها فى شكلها التام

فى الدولة الحديثة. ويبدو أن أوزيريس كان يقوم أصلاً بوظيفة مزدوجة: ملكية وزراعية. فهو يتجسد فى حقيقة الأمر فى الحبة التى تنبت وتتمو. وسوف تذكرنا بذلك على الدوام نماذج أوزيريس» الإنماء التى نجدها فى المقابر إعتباراً من الدولة الحديثة. وفى نفس الوقت، فهو منذ الدولة القديمة نموذج للملك المتوفى.

رغم وجود روايات عديدة للأسطورة الأوزيرية، ففى وسعنا استناداً إلى المصادر المتأخرة، أن نعيد تكوين «السيناريو» التالى الذى جرت صياغته تدريجياً على مر الزمان: كان «أوزيريس» وهو من ملوك مصر القدماء عرضة لحقد أخيه «ست» الذى يطمع فى الإستيلاء على السلطة. واستطاع «ست» أن يقتله غدرًا وقطع جسده ويعثره فى جميع أقاليم مصر (أو فى النيل وفقاً لرواية أخرى). ويختلف عدد القطع من تقليد إلى تقليد، فيما بين ١٤ و ٤٢، وهو ما يتفق من الناحية النظرية وعدد الأقاليم (والـ ٤٢ إلهاً الذين يعملون كمساعدين لأوزيريس فى العالم الآخر). وطفقت «إيزيس» زوجة «أوزيريس» تبحث فى طول البلاد وعرضها عن أعضاء زوجها المبعثرة ثم أعادت تشكيكه بفضل أعمال السحر وأعادتة إلى الحياة، حتى أنها حملت منه بطفل سوف يصبح الإله «حورس»، المنتقم لأبيه وخليفته على عرش مصر. وفى رواية أخرى، وهى إلى حد ما متناقضة مع الرواية السابقة، استطاعت «إيزيس» فى الحقيقة أن تجمع جميع أعضاء «أوزيريس» ماعدا عضو التنكير، الذى التهتته أسماك فى النيل. ونجد صدق لهذا التقليد فى عادة خصى المومياءات الشائعة: أن «سيتى» الأول و«رمسيس» الثانى، مثلاً نجلان على ذلك.

«أوزيريس» هو الإله المتوفى، فيصبح تلقائياً إله الموتى، ولكنه يحتفظ بوظيفته الزراعية، إذ يظل مسئولاً عن ارتفاع منسوب المياه فى زمن الفيضان ونمو القمح. وتأسيساً على ذلك، فإن خليفته فرعون هو أيضاً الذى يؤمن خصوبة التربة. وحسب التأويل الإغريقى للأساطير المصرية، فإن «أوزيريس» هو الذى اكتشف الزراعة، وعلمها للبشر، حيث كانوا من قبل من أكلة لحوم البشر.. وحسب تصورات المصريين للعالم الآخر، فمن الآن يحتل «أوزيريس» مركز الصدارة. إن مثنوى الأموات فى الدولة الحديثة، ينظر إليه كمملكة قائمة أسفل الأرض يحكمها الإله ويعاونه «مساعدوه» فى ذلك.

وما أن تنتهى الشعائر الجنائزية ولاسيما شعيرة فتح الفم التى تعين المتوفى على استعادة حواسه، فإنه يوضع فى قبره. وهنا تبدأ «حياته الجديدة»، التى يؤمنها توفير القرابين. وإمعاناً فى التأمين، تصور القرابين أيضاً على جدران المقبرة. ومن الواضح أن

الموت بالنسبة للمصريين ليس حالة نهائية، بل انتقال فحسب، بين شكل وآخر من أشكال الوجود. وبعد أن «يضمن» المتوفى هذه الحياة الثانية، تبدأ بالنسبة له رحلة حقيقية فى العالم الآخر. المرحلة الأولى هى مرحلة المحاكمة (وهى مخالفة تختلف كل الإختلاف عن يوم الدينونة أو الحساب عند المسيحيين أو المسلمين الذى يحل بشكل جماعى فى «آخر الأزمنة»). ويصحب الإله أنوبيس المتوفى من يده ليقيفا أمام الميزان الذى يوزن القلب عليه ويفترض أن المتوفى يوجه فى هذه اللحظة إلى «أوزيريس» الإعلان الخاص ببراءته أو «الإعتراف السلبي».

... لم أقتل  
لم أمر بالقتل  
لم أتسبب فى تعاسة أحد...  
لم أطفف الميزان.  
لم اغتصب اللبن من فم الأطفال الصغار.

كما يوجه المتوفى كلامه أيضاً للإثنين وأربعين إلهاً من مساعدي أوزيريس ليؤكد عدم إدانته:

يا بالع الأطياف الخارجة من الكهوف، لم أغتل أحداً....  
يا محطم العظام الخارجة من «هرقليوبوليس»، لم استول على أطعمة...  
يا ملتهم الدماء الخارجة من الجزر، لم أنهب الماشية الإلهية...

نقلاً عن الترجمة الفرنسية (Livre des Morts ch 125. Trad. J. L. de Cenival)

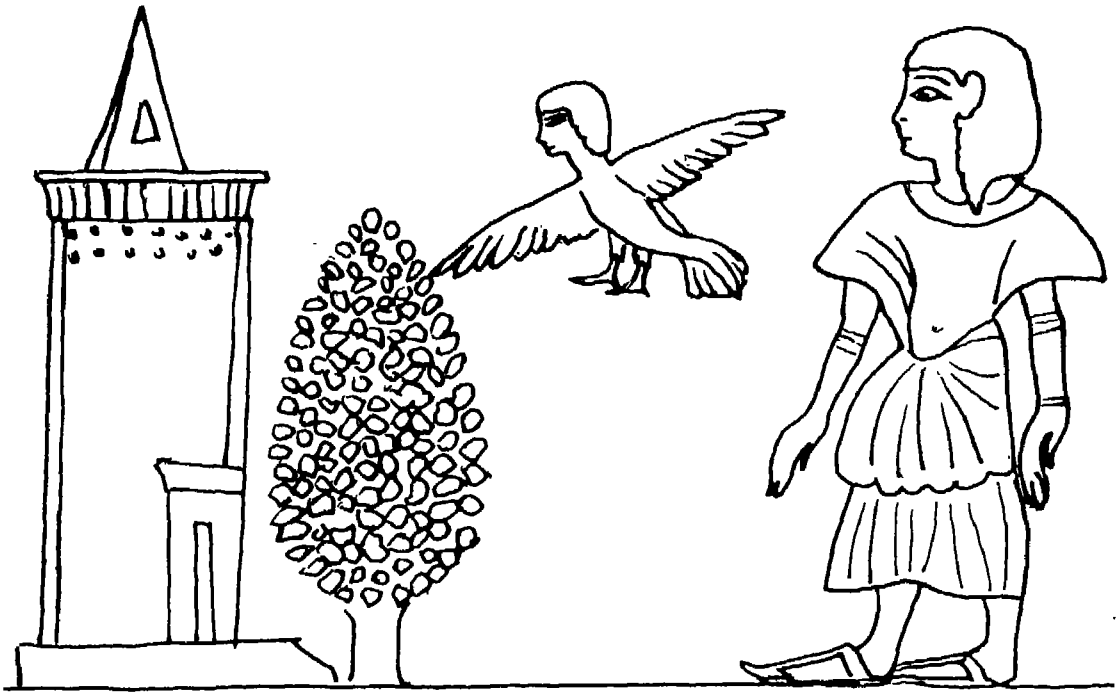
ثم يوضع القلب على إحدى كفتي الميزان، فى حين توضع على الأخرى ريشة «ماعت» التى ترمز إلى الحقيقة والعدالة. وعلى القلب أن يكون أخف من هذه الريشة، وإلا كان معنى ذلك أن سيئاته تجب حسناته فيقدم فى هذه الحالة فريسة للملتهمة «عميت»\* الواقعة بجوار الميزان، متأهبة للالتهام.

إن هذا الإحتمال (المستبعد حدوثه، فى ظاهر الأمر)، قد يحكم على المتوفى «بالموت الثانى»، وهو موت لارجعة فيه، هذه المرة، أن الإله «تحت» برأس أبى منجل، يدون على قرطاس من البردى نتيجة الوزن هذه.

\* نقول فى لغتنا العامية: «عمّ» بمعنى يأكل (الترجم).

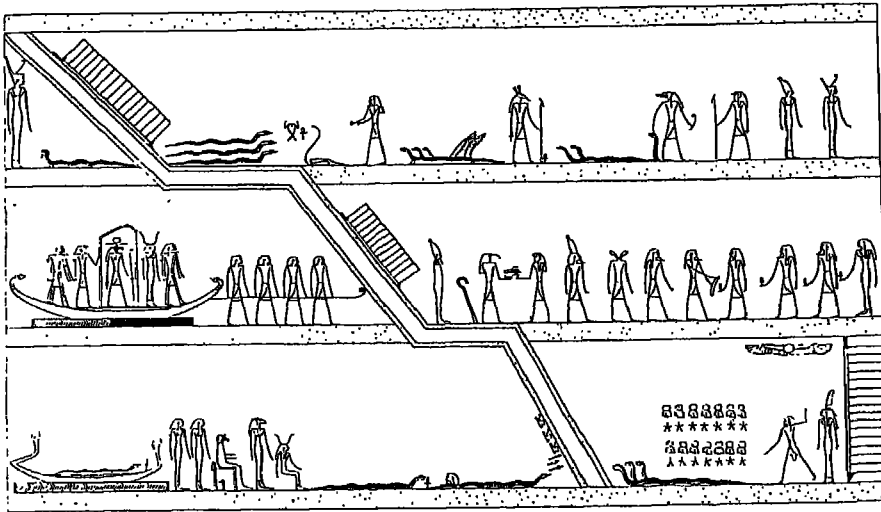
كما أنه يوجد أيضاً فى الغالب على هيئة قرد يقف فوق الميزان أو بجواره. ويذكرنا هذا الوجود بالحكمة التى يجسدها «تحت» فيضمن بالتالى نزاهة الوزن. (راجع بردية آنى) ومن ناحية قد تحل «ماعت» ذاتها محل الفرد. (راجع بردية «حو نفر»). وبعد أن صار المتوفى «باراً»، سوف يتم اصطحابه ليمثل أمام «أوزيريس» الذى تقف بجواره «إيزيس» و «نفتيس»، إلى جانب أبناء «حورس» الأربعة. ومن الآن، وبعد أن صار مساوياً للإله، سيدعى «أوزيريس»، وسيصبح فى وسعه أن يواصل وجوده فى العالم الآخر. ولكن عليه قبل ذلك، أن يقوم برحلة كاملة تصادفه فيها أحابيل لاحصر لها: المرور عبر أبواب تحرسها جنيات مرعبة، مسلحة بالسكاكين، ومواجهة شتى أنواع الكائنات الخرافية المهجنة. لذلك، عليه أن يعرف ويتلو التعويذات المناسبة الواردة فى كتاب الموتى.

وجميع هذه النصوص، تحتفظ بها قراطيس البردى المزدانة برسومات توضيحية وتوضع فى المقبرة، إما فوق المومياء مباشرة مثل التيميمه، أو داخل علبة صغيرة، يعلوها فى بعض الأحوال تمثال لأوزيريس مصنوع من الخشب. إن الهدف من هذه النصوص هو نفس هدف النصوص التى كانت تحفر أو ترسم فى الدولة الوسطى على سطوح التوابيت أو أيضاً داخل الأهرام فى الدولة القديمة. مع ذلك، علينا أن نؤكد، بشأن المقابر الملكية، إن المصريين ظلوا فى الدولة الحديثة يرسمون أو ينحتون على سطوح حجرات الدفن نصوصاً تتحدث عن مصير الملك المتوفى فى عالم الموتى: كتاب البوابات، كتاب الكهوف، وكتاب «إيمى دوات».. إنها نصوص لها أهداف لاهوتية معقدة وتضطلع فيها العناصر حول نشأة الكون بدور بارز. إن صور الأجرام السماوية ومنها على سبيل المثال تلك الموجودة على سقف حجرة دفن رعمسيس السادس، لهى على علاقة وثيقة بالمعتقدات القديمة المتعلقة بإقامة الملك فى السماء وسط النجوم. شكل (١٦)



شكل (١٥)

«نحت»، يسبقه «بأ» ؤ، وهو يتجه نحو مقبرته.  
«كتاب الموتى» الخاص بـ «نحت».  
الدولة الحديثة. المتحف البريطاني



شكل (١٦) رحلة المتوفى فى عالم الموتى :

كتاب «إيمى دوات» . مقبرة تحوتمس الثالث

## الفصل الخامس

### العصر المتأخر

هذه اللفظة الشاملة، تنطوى فى واقع الأمر، على عدد من المراحل المتباينة، سياسياً وثقافياً. لقد انتهى الألف الأول قبل الميلاد، وهو عصر غزوات وسيطرة أجنبية، بالغزو الرومانى، فضاء استقلال البلاد نهائياً.

كانت مرحلة الانتقال الثالثة (من الأسرة ٢١ إلى الأسرة ٢٤)، لاتزال تندرج فى سياق استمرارية حضارة الدولة الحديثة، حيث ظلت طيبة مركزاً دينياً على قدر كبير من الأهمية، إلى جانب كونها مركزاً للسلطة، رغم أن ملوك الأسرة الثانية والعشرين، قد أسسوا فى تانيس فى الدلتا، عاصمة جديدة، واعتباراً من الأسرة ٢٥ دخلت البلاد فى مرحلة تقلبات، ثم عادت مملكة قوية ومركزية فى ظل الصاويين من الأسرة السادسة والعشرين. وأخيراً نشاهد ضياع الإستقلال خلال فترتي الغزو الفارسى الذى انتهى بغزو الإسكندر الأكبر.

#### ١- مرحلة الانتقال الثالثة

فى بداية الألف الأول، قبل الميلاد، فى ظل الأسرة الحادية والعشرين أخذت تقنيات التحنيط تتطور أيضاً، على الأقل فيما يخص مظهر الموميا. إن موميا «حنيت تاوى» التى عثر عليها فى الدير البحرى لتستوقف النظر على نحو خاص، فقد تم عمل حقن تحت بشرة الوجه لادخال أكياس من نشارة الخشب، لإعطاء الوجه حجماً يشبه وجه الإنسان الحى، وللأسف، تشققت البشرة بمرور الزمن. فكانت النتيجة هى عكس ما كانت منتظراً. (فلنذكر بهذه المناسبة أن الأستاذ نصرى اسكندر\* قد قام بمعالجة الموميا منذ وقت قريب). ويبدو \* الأستاذ نصرى اسكندر من مواليد القاهرة عام ١٩٤٢. وهو حالياً مدير عام صيانة الآثار بالمتحف المصرى بالقاهرة ويعمل منذ ثلاثين سنة فى مجال بحوث وصيانة الآثار المصرية، وحائز على جائزة النشر العلمى فى موسوعة «رولكس» السويسرية للإبداع العلمى لعام ٩٣ (المترجم).

أن أسلوب الحشو تحت الجلد كان منتشراً في هذا العصر. وكان المصريون يستخدمون مواد أخرى خلاف نشارة الخشب، نذكر منها الصلصال والرمل والراتنج والكتان. كما أدخلت بعض التحسينات الأخرى على مظهر المومياوات ومنها تثبيت عيون صناعية في محاجر العين. وكانت البشرة تلون في الغالب بالمغرة الصفراء (للنساء) أو المغرة الحمراء (للرجال). وقد زودت مومياء «نجمت» زوجة «حريحور» كبير كهنة آمون بحاجبين مستعارين مصنوعين من شعر آدمى. إن «المعالجة» التي خضعت لها تسبغ عليها مظهراً شبابياً، في حين أنها كانت طاعنة في السن عند وفاتها، كما يخفى الشعر المستعار الصلع الذي كان قد بدأ في الظهور: وإلى جانب ذلك فقد «جمّلت» بعد إضافة نشارة الخشب التي وضعت بين طيات الأشرطة. ويبدو مظهر «ماساهرتا»، كبير الكهنة والقائد في ظل حكم «سمندس» و«پاي نجم» الأول منتقخاً، وهي سمة مميزة لمومياوات هذا العصر. وفي وقت لاحق، وفيما يخص «جد پتاح يوف عنخ»، كاهن آمون، الذي من الراجح أنه كان يرتبط بصلة القرابة بالعائلة المالكة، كما اكتشفت موميأؤه في خبيئة الدير البحري، فإن وجهه كان يمتلىء بصفة خاصة بالحيوية، وإن لم تبلغ نتائج معالجة أعضائه مستوى مرضياً. ومن ناحية أخرى، فإن مومياوات الفراعنة، التي دفنت في الجبانة الملكية بتانيس، ولقيت بكل تأكيد قدراً كبيراً من العناية عند تحنيطها، قد عثر عليها وهي في حالة يرثى لها بسبب رطوبة التربة في منطقة الدلتا، الأمر الذي يبرهن مرة ثانية على حقيقة أن علاجاً جيداً كان غير كاف لضمان المحافظة على الجسد: فمن الضروري أيضاً أن نضمن لحجرة الدفن ولكان الدفن، جفافاً مستديماً.

أما الأحشاء التي كانت توضع حتى الآن في الأواني الكانوبية، فقد أصبحت من الآن، توضع من جديد في التجويف البطني بعد خياطتها ولفها بالكتان. وصار يطلق عليها «اللفة الكانوبية»، كما وضعت معها تمانم تمثل أبناء حورس الأربعة، لتذكرنا بدورها في حماية الأعضاء المحنطة، أسوة بالأغطية الكانوبية المنحوتة. ورغم هذا التجديد، استمر المصريون ينحتون الأواني الكانوبية، ولكنها أصبحت مجرد صورة، لم يكن من مبرر لوجودها سوى التمسك بتقليد موروث.

سوف يستمر هذا «التحنيط النمطي» حتى نهاية الأسرة الثانية والعشرين مع ملاحظة وجود تغييرات في العادات وفقاً لمستوى دخل الأفراد.



باتت التوابيت الحجرية نادرة، حتى بالنسبة للطبقة الحاكمة التي كانت تستخدمها بكثرة في العصور السابقة. أما بالنسبة للفراغة فقد اكتفوا بإعادة استخدام التوابيت التي صنعها أسلافهم. وهكذا نجد في المقابر الملكية في «تانيس»، إنه من بين الثلاثة عشر تابوتاً التي تم الكشف عنها، كانت ثمانية منها قد أعيد استخدامها، ولم تكن المدونات الأصلية قد محيت تماماً، الأمر الذي سمح لنا بالتعرف من بين «أصحابها» الأصليين على الملك «مرنپتاح» وكاهن يدعى «أمن حوتب»، كان قد دفن في طيبة في زمن الدولة الحديثة. وكانت توابيت أخرى قد نحتت ابتداءً من عناصر معمارية ومنها التماثيل على سبيل المثال... وكان الفراغة يرقدون في توابيت جميلة من الفضة، وضعت داخل التوابيت الحجرية، نذكر منها تابوت «بسو سينس» وتابوت، «شاشانق - حقا خبر رع» (ويجدر بالملاحظة أن الفضة كانت تعتبر في مصر ولزمن طويل أثمن من الذهب). ومن ناحية أخرى ظل استخدام أقنعة جنازية من الذهب المصمت معمولاً به، وهو ما يشهد عليه قناع «بسوسنس» وقناع القائد العسكري «أونوچبا ونجد» اللذان عثر عليهما في «تانيس» أيضاً.

أما الأفراد فقد ظلوا يتمتعون من جانبهم بتوابيت مصنوعة من الخشب على هيئة آدمية، كما في الدولة الحديثة. وقد تم الكشف في الدير البحري (باب القسس) على مجموعة عامة من التوابيت لكبار كهنة آمون في طيبة (تقدر بمئات التوابيت). وفي أحوال كثيرة كانت الأشرطة تحمل مدونات، الأمر الذي سمح لنا بالتعرف على أصحابها. وقد زودت هذه المومياءات في المعتاد بتابوتين من الخشب على هيئة آدمية إلى جانب ما يشبه الغطاء من الخشب المنحوت والملون (والذي كان مستخدماً منذ عصر الرعامسة) ليغطي المومياء.

أما الزخارف الخارجية للتوابيت فهي شديدة الشبه بتلك التي شاعت عند نهاية عصر الرعامسة: فعناصرها ملونة بألوان حية فوق أرضية باللون الأصفر. وفي المعتاد تصور الإلهة «نوت» على الغطاء الذي ينقسم جانبه السفلى إلى صفوف مزخرفة بموضوعات دينية متنوعة وبنصوص. شكل (١٧)

ومع نهاية الأسرة الحادية والعشرين، يبدو أن بعض التغييرات قد أدخلت على هذه الزخارف حتى بلغت أكثر فأكثر حد المبالغة. ونقلت الموضوعات الرئيسية عن كتاب الموتى: رحلة المتوفى إلى العالم الآخر، والمحاكمة في حضرة «أوزيريس». وترتبط موضوعات أخرى بالأساطير الشمسية أو تظهر موضوعات تخص أساطير خلق العالم مثل الفصل بين «جب» و«نوت». والكثير منها مرتبط ببعث المتوفى.

ومع ذلك، نلاحظ فى هذه الزخارف تغييرات على قدر كبير من الأهمية، الأمر الذى يدفعنا إلى الظن بأن الحرفيين (أو أصحابها) كان لهم هامش نسبى من حرية الاختيار. ويجدر بالملاحظة أن الإله الشمسى يحتل غالباً مكان الصدارة، بل إنه يذكر بدلاً من أوزيريس، فى تعويذات القرايين، ويات من الواضح تماماً أن الأفراد فى ذلك العصر قد أخذوا يتمتعون بما كان وقفاً فى السابق على الملوك. أى الاندماج فى الشمس: وتغطى الزخارف باستمرار السطوح الداخلية للتوابيت أما قعر التابوت فيضم غالباً صورة لإلهة الغرب أو أيضاً العامود «جد» رمز أوزيريس الذى قد يعنى الثبات والى الدوام. وقد رأى البعض أنه يصور عاموداً فقيراً، الأمر الذى يفسر وجوده على مقربة من سلسلة ظهر المتوفى... ومن ناحية أخرى، فإن عدداً كبيراً من التوابيت التى كانت مخصصة فى الغالب لشخصيات أقل شأنًا، قد صنعت صناعة رديئة إلى حد ما، وتصور زخارف نمطية ومقولة.

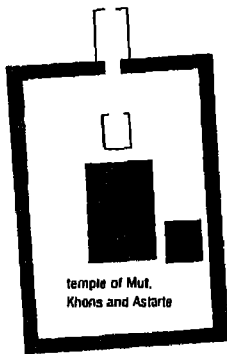
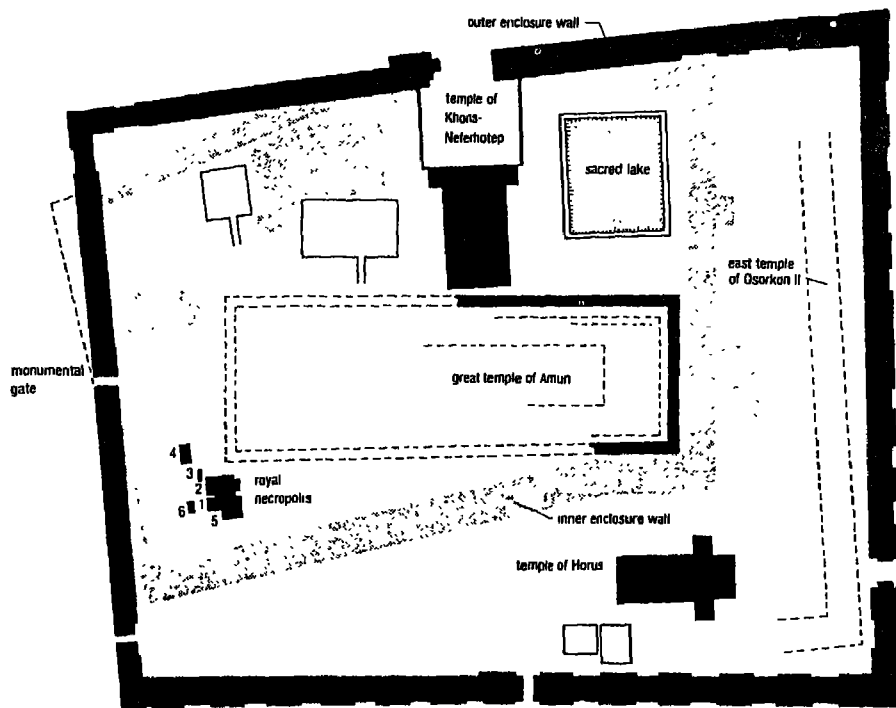
وفى ظل الأسرة الثانية والعشرين، أدخلت تغييرات هامة على تجهيزات الموميا، ويمكن ملاحظتها فى مختلف طبقات المجتمع. فأخذ شكل التابوت يميل إلى البساطة، وانتشر على وجه التحديد غلاف من نمط خاص: «الكارتوناچ» le Cartonnage . ولاريب أننا نلاحظ ظهور هذا النمط منذ الدولة الوسطى، على هيئة قناع على الأقل، وإن لم ينتشر استخدامه إلا فى العصر المتأخر. إنه عبارة عن قالب يغلف المومياء بالكامل، ويتكون من نسيج متكتل مغطى بالجبس. وكان يصنع هذا القالب بتثبيتته على حامل على هيئة جسد آدمى مصنوع من الصلصال المضاف إليه القش. إن وجود فتحة طويلة فى الناحية الخلفية كان يسمح بفصل الكارتوناچ، عند ما يجف، عن «تمثاله».

وهكذا كان يصنع ما يشبه العلبة لتوضع فيها الموميا. إن تثبيت الكارتوناچ فى مكانه كان يتم بواسطة رباط خلفى. وقد اطلق اسم الكارتوناچ على هذه الأغلفة، لأنه كثيراً ما كان يستخدم فى العصر البطلمى ورق البردى المتكتل بدلاً من النسيج، فكان يشبه الكارتون (أو الورق المقوى). وكانت الزخارف الملونة لتوضع على الكارتوناچ إلا بعد أن توضع الموميا فى «علبتها». ومن الراجح أن صناعة الكارتوناچ كانت أقل تكلفة بشكل ملحوظ فى صناعة تابوت خشبى بالنظر إلى ندرة الأخشاب فى مصر. ولاشك أن بعض الأشخاص كانوا يتمتعون بامتلاك كارتوناچ وتابوت فى آن واحد. ولكن ظل الكارتوناچ فى كثير من الأحوال يشكل الغلاف الخارجى الوحيد للموميا.

وتطورت المقابر الملكية ومقابر عليّة القوم: وهجر وادى الملوك، بعد أن ثبت بالدليل القاطع، مدى امكانية النيل منها فى هذا الوادى. وكان رعمسيس الحادى عشر آخر فرعون معروف تم دفنه فيه). وبالفعل، وفى ظل حكم «پائى نجم» من الأسرة الحادية والعشرين، نقلت مومياوات الملوك من الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة الحادية والعشرين، إلى مكان آمن فى خبيئة الدير البحرى وإلى مقبرة امنحوتب الثانى أيضاً. وجرّت العادة على تشييد المقابر على مقربة من المعابد، داخل الحرم المقدس، على أمل تأمين حماية أفضل لها. وهكذا فقد شيدت مقابر «تانيس» داخل حرم معبد آمون. وقد ضاع البناء الفوقى لمعظم هذه المقابر. ويعتقد أنها كانت من نفس طراز المقابر التى شيدت فيما بعد فى مدينة هابو لعابدات آمون الإلهيات: إنها مقابر على هيئة معبد، لها صرح عند المدخل وفناء مفتوح وهيكل مغطى. وكان يتم الوصول إلى حجرة الدفن الموجودة تحت الأرض عن طريق بئر محفورة أسفل الهيكل. وإذا كان اللصوص قد «زاروا» العديد من المقابر الملكية، ولو بشكل جزئى، فقد أفلتت بعضها من عمليات السلب والنهب. وفى حالة مقبرة شاشانق الثالث، تمكن اللصوص من حفر نفق سمح لهم بالوصول مباشرة إلى حجرة الدفن، بجوار التابوت، إن ثراء الأثاث الجنائزى الذى عثر عليه فى معظم هذه المقابر ليوضح بجلاء، أن أعمال السلب والنهب، لم تكن مع ذلك قد قطعت شوطاً كبيراً. شكل (١٨) — شكل (١٩)

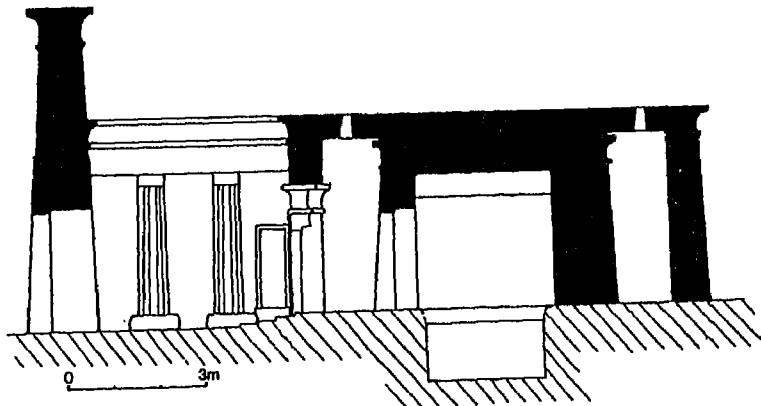
وتتكون واحدة من أبرز المجموعات الجنائزية لهذا العصر من المقبرة الجماعية الكبرى لكهنة وكاهنات آمون فى الأسرة الحادية والعشرين التى تم الكشف عنها عام ١٨٩١ أسفل الفناء الأول لمعبد حتشبسوت بالدير البحرى والتى أطلق عليها اسم باب القسس. ويفضى دهليز يبلغ طوله حوالى مائة متر إلى حجرتين جنائزيتين متلاصقتين. وقبل هاتين الحجرتين بقليل، يتفرع دهليز آخر بزاوية قائمة، يبلغ طوله حوالى خمسين متراً. وينحدر إلى أسفل حتى عمق مائة متر. كانت المقبرة تضم ٢٥٤ تابوتاً (١٠١ مزدوج و ٥٢ مفرداً) وأغلبها فى حالة مدهشة من الحفظ، ومكدسة فى الدهليزين والحجرتين. إن هذه المقبرة الجماعية هى بالنسبة للكهنة المقابل للخبينة الملكية بالدير البحرى. ومن الراجح أنه تم تجهيزها فى كل حكم بسوسينس الثانى، قرب نهاية الأسرة الحادية والعشرين لتأوى توابيت كهنة وكاهنات آمون وما تبقى من تجهيزاتهم الجنائزية (من أوشابتي وأوانى كانوبية وتمائيل لأوزيريس). وكان هؤلاء الكهنة والكاهنات قد دفنوا أصلاً فى مقابر متعددة فى الجبانة الطيبة.

أما بالنسبة لأفراد، هذا العصر، فإن معظم مقابر منطقة طيبة تتكون من مجرد حجرة محفورة فى صخر الجبل. ومما يجدر بالملاحظة أن الجبل فى منطقة طيبة، كان صخرياً شديد الإنحدار، ويوفر امكانات واسعة لحفر مقابر فى وسعها أن تغالب الأيام



شكل (١٨)  
رسم تخطيطي لمقبرة تانيس

0 50 100 m



شكل (١٩) قطاع طولى فى هيكل مقبرة «أمفرديس»  
«مدينة هابو»

أكثر من منطقة الدلتا المنبسطة والرملية. وفي واقع الأمر لم يعثر في الدلتا سوى على القليل من المقابر التي تعود إلى ذلك العصر.

## ٢- العصران الصاوى والفارسى

لن يطراً اعتباراً من الأسرة الخامسة والعشرين أى تغيير ملحوظ على التحنيط غير أن «اللفات الكانوبية» ستوضع على مقربة من الموميا، بل بين أطرافها السفلى أو أيضاً فى النادر جداً، فى أوانى كانوبية، عملاً بالتقليد القديم. وفى هذا العصر شاعت عادة دهن الجسد بمادة تميل إلى السواد، لامعة كالقار، هشة، لها بريق خارجى، تعرف فى المعتاد بلقظة «القار» Bitume، رغم أن التكوين الكيميائى لهذه المادة قد يكون مختلفاً. ومع ذلك فقد لقيت هذه الكلمة رواجاً، نظراً لأن كلمة موميا مشتقة من مقابلها العربى «الموم»\*.

وبعد معالجة الأجساد على هذا النحو كانت توصف فى الغالب «بالمومياوات السوداء» فى مقابل تلك التى كانت تعالج وفقاً للأسلوب التقليدى، فيطلق عليها أحياناً «المومياوات البيضاء» (وإذا كان لونها أصفر فاتحاً، فى واقع الأمر). ويبدو أن استخدام المادة السوداء قد سمح بسرعة تحنيط عدد أكبر من الأجساد. وبنفس الطريقة، كانت تستخدم فى معظم الأحيان مادة سوداء لدهان أشرطة الموميا، ويحتمل أن ذلك كان لضمان التصاق مختلف طبقات النسيج فيما بينها. كما طليت بعض التوابيت باللون الأسود ولكن ليس مؤكداً أنها نفس المادة: ونميل إلى الاعتقاد أن هذه المادة كانت شفافة فى الأصل (ربما كانت مجرد ورنيش شفاف) ثم مال إلى السواد بمرور الزمان، لأن وجوده يخفى فى حالات كثيرة زخارف ملونة.

وهناك تباين واضح بين العناية التى تتوفر عند إعداد بعض المومياوات والمستوى الردىء جداً للعديد منها. ومن العوامل التى تفسر وجود مومياوات «سيئة»، يمكن أن نشير إلى تلك العوامل التى يذكرها «هيروdot»:

\* «الموم» الشمع. والشمع هو موم العسل أو الشحم وغير ذلك مما يدبر على الهيئة المعهودة فيستضاء به - المنجد - دار المشرق - بيروت، ١٩٩٢، ص ٧٨٠ و ٤٠٢ (المترجم).

«إن زوجات الشخصيات المرموقة، لايسلمن عند وفاتهن إلى التحنيط فى الحال، ولا أيضاً النساء الفائقات الجمال ولا النساء الرفيعات الشأن: فلا يسلمن إلى المحنطين إلا بعد إنقضاء يومين أو ثلاثة على وفاتهن، وذلك حتى لايجامع المحنطون هؤلاء النساء. لأنه يقال أن أحدهم قد ضبط وهو يجامع جثة توفيت حديثاً بعد أن أبلغ عنه زميل له....».

(Herodote, II, 89)

وبالطبع، فإن التأخر فى إجراء عملية التحنيط، الأمر الذى يقف فى الغالب وراء المستوى الردىء للموميאות، كان يرجع إلى أسباب كثيرة أخرى يمكن المجاهرة بها!

ويفضل مومياء عثر عليها «پترى» Petrie فى مقبرة بجبانة تل نبشة، لم تنتهك حرمتها، وترجع إلى الفترة الواقعة بين الأسرة الخامسة والعشرين والأسرة الثلاثين، يمكن للمرء أن يكون فكرة عن ترتيب التمائم فوق المومياء. وبالفعل فقد كانت التمائم فى ذلك العصر من الكثرة بمكان، فقد كان هناك حوالى أربعين تميمة فى مكانها فوق المومياء، لاسيما فى أعلى الجذع، على مقربة من القلب وفى منطقة الحوض. تتعلق هذه التمائم على نحو خاص بأشياء رمزية غايتها أن تضمن للمتوفى غذاءه (العين «وجات») والثبات (العمود «چد») وميزان البناء وحمايته (أنشودة «إيزيس») وبعثه إلى الحياة (الجعران والصفدع) والشباب الأبدى (صولجان البردى).

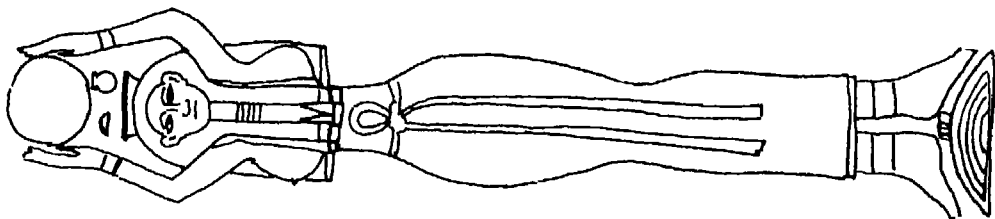
وعلى غرار العصور السابقة، فإن «مخلفات» التحنيط، أى كل ما استخدم فى تحنيط المتوفى، بالإضافة إلى «البقايا البيولوجية» كانت تدفن على مقربة من المقبرة. فقد تم الكشف على مقربة من الجيزة على خبيئة من الراجح أنها ترجع إلى العصر الصاوى، وكانت تضم حوالى ثلاثين إناء من الخزف ذات طرز مختلفة، وتدل المدونة الواردة على أحد هذه الأنية على أنها كانت تحتوى على مواد «غسيل» وكان وعاء آخر مخصصاً لوضع النطرون. كما عثر أيضاً فى مقابر المراحل المتأخرة على الأدوات التى كانت تستخدم عند التحنيط: ملاقط وسكاكين وخطافات وأقماع خاصة للماء المجمعة بالراتنج.

تمثل توابيت الأسرة الخامسة والعشرين مرحلة إنتقالية: فقد قلت أعداد الكارتوناج لتحمل محلها توابيت خشبية تمثل المومياء واقفة فوق قاعدة مستطيلة، ولها دعامة رأسية خلفية، والكل مغطى بالمدونات. وبعد عدة عقود اتخذت تماثيل «الأوشبتي» نفس الشكل «النمطى» بدعامة رأسية خلفية وحامل سفلى. ومن الراجح أن شكل التابوت هذا قد صمم لتسهيل الوضع الرأسى الذى تتخذه المومياء خلال المراسم الجنائزية (وفى المقام الأول

أثناء شعيرة فتح الفم التى تقام عند باب المقبرة)، وكان المتوفى يزود فى بعض الحالات بتابوت خارجى على هيئة صندوق له غطاء محدب ويضم أربعة أعمدة فى زواياه، قد توضع عليها صقور. ومثال ذلك تابوت «جد تحوت إف عنخ» الذى عثر عليه فى الدير البحرى. هذا النوع من التوابيت الذى يتخذ شكل الهيكل يرتبط ببعض أوجه الشبه مع بعض نماذج الدولة القديمة. وفى هذا العصر كما فى العصر الصاوى فى وقت لاحق، نلاحظ أن زخارف الأثاث الجنائزى تميل بوضوح إلى تقليد القديم. هكذا يعود موضوع العينين إلى الظهور على السطح الخارجى ناحية الرأس، بوظيفته المزودة كحماية سحرية و«كنافة» على الخارج.

وفى العصر الصاوى، وفى الحالات الأكثر شمولاً، استخدمت مجموعات تضم تابوتاً خارجياً على هيئة آدمية له قاعدة، ويتراكب داخل تابوت ثان على هيئة آدمية أيضاً، والتابوتان يضمهما تابوت خارجى قد يكون على هيئة آدمية أو على هيئة «صندوق». وزخارف التوابيت على هيئة آدمية، هى فى الأساس عبارة عن شرائط من النصوص تلتف حول صور دينية منقولة عن كتاب الموتى. إن الواجهة الخلفية للتابوت الداخلى تحمل فى المعتاد على سطحها الخارجى زخارف تمثل إما عمود «جد» أو أعمدة من النصوص. وكان السطح الداخلى يحمل فى الغالب صورة لـ «نوت» أو «حتحور». أما القسم الذى يضم القدمين، فإنه يحمل فى الغالب عند مستوى باطن القدمين زخارف تصور عجل أبيس يعدو وهو يحمل المتوفى على ظهره، وهى صورة ظهرت منذ العصر الليبى. وسوف يستخدم هذا النوع من التوابيت على إمتداد العصر الصاوى، فى طيبة وفى منطقة منف، على حد سواء. ان تابوت «بفتياو - نيت» الذى عثر عليه فى سقارة لخير مثال على ذلك. والسطح الخارجى للغطاء مغطى فى معظمه بأشرطة من النصوص رسمت بعناية فائقة أسفل صورة مجنحة للإلهة «نوت»، فى حين رسمت صورة أخرى لـ «نوت» على السطح الداخلى للغطاء وهى واقفة وعارية، بينما تلد الشمس. وكما يحدث فى هذا العصر، فإن القناع ملون باللون الأخضر بحيث يزيد من اندماج المتوفى مع «أوزيريس». فاللون الأخضر يذكر بوظيفة «أوزيريس» الزراعية. شكل (٢٠)

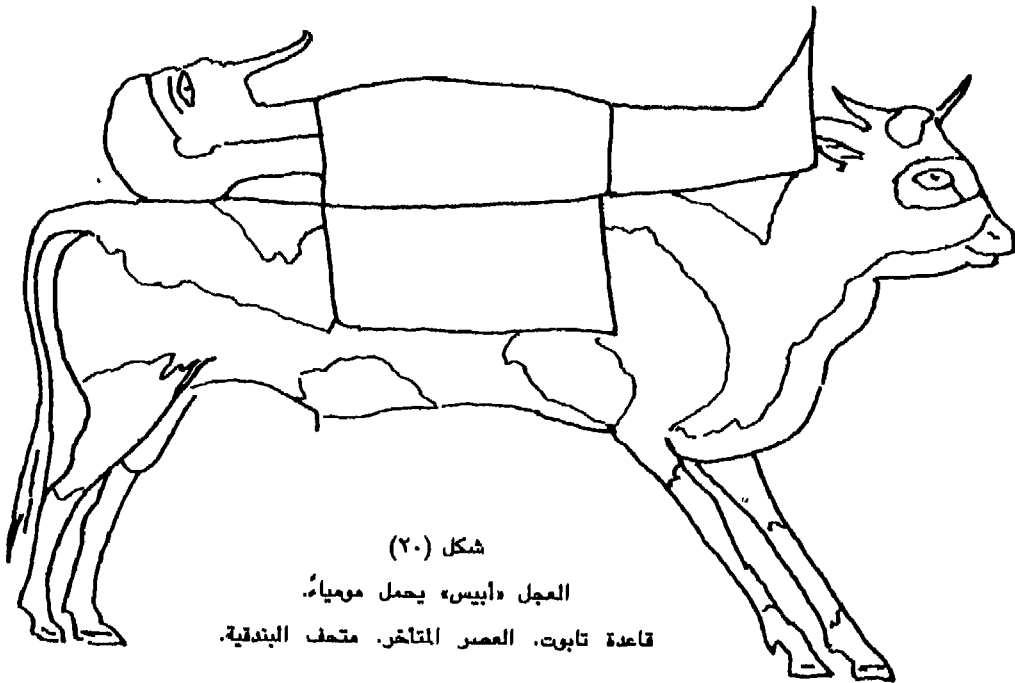
ومن الملاحظ، أن العصر الصاوى قد عاد إلى استخدام توابيت حجرية، سواء فى مقابر الأفراد أو فى المقابر الملكية، ولو أن المومياءات التى تضمها التوابيت الحجرية لها فى المعتاد تابوت أو تابوتان من الخشب، فقد يتصادف أن توضع مباشرة فى التابوت الحجرى الذى على هيئة صندوق. وقد تكون هذه التوابيت مستطيلة الشكل تزينها لوحات واجهة القصر وفقاً لطران الدولة القديمة (ولكنها حالات نادرة). ولنذكر، أنه قد لاحظت فى



شكل (١٧)

تأبوت «حوتب آمون».

العصر المتأخر (الأسرة ٢٥) متحف هيدلبرج



شكل (٢٠)

العجل «أبيس» يحمل مومياء.

قاعدة تأبوت، العصر المتأخر، متحف البندقية.



العصر الصاوى نزعة حقيقية للعودة إلى المنابع مع نسخ إبداعات الدولة القديمة. وإلى هذا العصر يرجع حفر الممر الهابط، أسفل هرم «چسر»، للوصول بطريقة مناسبة إلى الأجنحة الجنائزية، لنقل بعض النقوش، فحسب.

تتخذ توابيت العصر الصاوى فى الغالب، هيئة آدمية وكتلتها مصممة وجوانبها سميكة وتستخدم مواد أولية صلبة (البازلت)، وذلك لأسباب تتعلق بالأمان. والنصوص الواردة على هذه التوابيت منقولة عن متون الأهرام، وهو مثال آخر على ولع هذا العصر بكل ما هو قديم. أما التوابيت التى لاتتخذ هيئة آدمية فهى تحاكي نماذج الدولة الحديثة، والطرف ناحية الرأس مستدير، ويتضاعل عرض الصندوق الحجرى ناحية القدمين. وهكذا نشاهد تابوتاً من الأسرة السادسة والعشرين يحتفظ به المتحف البريطانى فى الوقت الراهن، وهو منقول نقلاً أميناً عن تابوت الملك تحوتمس الثالث، ليس من حيث الشكل فحسب، بل بكل زخارفه أيضاً.

إن بعض مقابر الأسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين تتميز على نحو خاص، بحالة جيدة من الحفظ. نذكر على سبيل المثال مقابر عابدات آمون الإلهيات التى شيدت على مقربة من معبد مدينة هابو وتبدو كمعابد مصغرة. والوضع مماثل بالنسبة لمقابر عليّة القوم المشيدة فى جبانة طيبة فى العساسيف ولاسيما مقبرة «مونتو إم حات» عمدة طيبة. إن أبعاد الهياكل هى أبعاد ضخمة فى الغالب والأجزاء السفلية المنحوتة فى صخر الجبل، تذكرنا بالمقابر الملكية من حيث أبعادها وتعقيداتها.

وفى منف، فى العصر الفارسى، كانت المقابر ذات الآبار المحفورة على عمق كبير، تضم على ما يظن بناءً علوياً مشيداً من الطوب. أنها أكمل مثال، على نظام جديد مبتكر للحماية، أثبت فاعليته، فأمدنا بثلاث مقابر سالمة. كانت حجرة الدفن مشيدة فى أعماق بئر ذات مقطع ضخم. وكانت هذه البئر تملأ بالرمال بعد الإنتهاء من وضع التابوت والأثاث. وكان سقف حجرة الدفن يحتوى على أوانى خزفية تكسر قعرورها عند الإنتهاء من عملية الدفن، الأمر الذى يسمح للرمال بأن تملأ الحجرة. وكان آخر القائمين بمراسم الدفن يهريون من خلال بئر جانبية، ذات مقطع صغير، كانت تملأ هى أيضاً بالرمال بعد صعودهم. ومن هناك ندرك استحالة الدخول إلى حجرة الدفن، أياً كانت الطرق التى يسلكها اللصوص (سواء عبر الآبار القائمة أو من خلال ممرات اللصوص).، إذ سوف تعود الرمال كلما حاول أحدهم أن يفرغها.

ولدينا نموذج جميل للعمارة الجنائزية التي ترجع إلى الأسرة الحادية والثلاثين تتمثل فى مقبرة «بتوزيريس»، فى تونا الجبل، وهى جبانة «هرموبوليس» (الأشمونين، حالياً) وتبدو المقبرة وكأنها معبد مصغر بواجهة ذات الحوائط النصفية وفقاً لنموذج سوف تأخذ به المعابد البطلمية. والهيكل، يحصر المعنى، حيث تقام شعائر القريان، يتقدمه فناء بأعمدة. وفى أرضية الهيكل توجد بئر تقضى إلى حجرة الدفن التى وجد فيها التابوت الرائع، الموجود حالياً فى متحف القاهرة، والذي صنعت مدوناته الهيروغليفية من عجينة الزجاج المرصعة فى الخشب الملون بالأسود. ان زخارف هذه المقبرة فريدة على نحو خاص: أنها تبرز تحولاً فى طريقة تجسيد الموضوعات، التى تظل مع ذلك مصرية تماماً (أعمال الحقل، وموكب حاملى القرابين...) أن التأثير اليونانى ملحوظ فى أسلوب الإفراط فى الزخارف، وفى حركة الأشخاص، الذين يصورون من الأمام فى الغالب، إلى جانب بعض المشاهد الشبيهة إلى حد كبير بالمشاهد التى تزخرف اللوحات الجنائزية اليونانية.

وفى هذا العصر أيضاً حفرت مقابر عديدة فى الجرف المطل على الوادى. وهى فى الغالب حجرات دفن بسيطة بلا زخارف. ومن ناحية أخرى تم الكشف فى جبانة سيوه على مقابر جميلة مرسومة، تعود إلى هذا العصر، مثل مقبرة «سى آمون»، فموضوعاتها مصرية، فى حين أن بعض عناصر الزخارف وأيضاً ملابس المتوفى وأفراد عائلته تنم عن تأثيرات أجنبية (ليبية؟).

وتجدر الإشارة إلى أن صورة العالم الآخر فى ذلك العصر، قد تميزت بطابع «أخلاقي» واضح، كما يتبين من نصوص مقبرة «بتوزيريس»:

«الأمنى» هى دار من هو بلا خطيئة: طوبى لمن يصل إليها! لا أحد يصل إليها إلا صاحب القلب القادر على ممارسة العدالة. هناك، لتمييز بين فقير وغنى، إلا لصالح من وُجد بلا خطيئة، عندما يكون الميزان والوزنة أمام رب الأبدية...

(Trad. G. Lefebvre)

## الفصل السادس

### العصران اليونانى والرومانى

يسجل غزو الإسكندر لمصر إنعطافاً فى تاريخ البلاد. لقد أسس الغزاة المقدونيون أسرة جديدة، هى أسرة اللاجيين (والكلمة مشتقة من اسم القائد «بطليموس» بن «لاجوس» الذى تسلم مقاليد الحكم تحت اسم بطليموس الأول) كما أسسوا عاصمة جديدة هى الإسكندرية.

وعلى امتداد ثلاثة قرون تقريباً، عرفت مصر عصراً من الإستقرار النسبى. لقد وصلت براعة الغزاة حداً جعلهم لا يُغيّرون بنيان البلاد، فراعوا مجمل تقاليدها وأعرافها، لاسيما على الصعيد الدينى، الذى لم يعثره تغير يذكر. ومع ذلك، فمن الواضح أن الإغريق قد أمسكوا بزمام الأمور، فى بداية الأمر على الأقل، وفرضوا لغتهم على البلاد لغة للإدارة، الأمر الذى أكره المصريين على أن يصطبغوا بالصبغة اليونانية، ولو جزئياً. إن الجماعات الأجنبية الى استقرت فى مصر (من إغريق ويهود وفرس وسوريين...) قد جلبت معها ألهتها التى تعايشت جنباً إلى جنب مع ألهة الديانة التقليدية، التى كانت لاتزال حية. وهكذا تشكل مجتمع أشبه بما نطلق عليه فى الوقت الراهن مجتمعاً متعدد الثقافات.

وفى مجال الممارسات الجنائزية، نلاحظ ان الإغريق وان استمروا فى بداية الأمر يحرقون جثث موتاتهم، عملاً بأعرافهم، إلا أنهم أخذوا تدريجياً بعادات أهل البلد. وفيما بعد بعدة قرون، سيحذو الرومان حذوهم، الأمر الذى يبين بوضوح قوة النموذج المصرى للموت وجاذبيته.

### (١) التحنيط فى العصر اليونانى الرومانى

إن الذى ساد هذا العصر وهيمن عليه، لا ينسحب على التقدم التقنى، بقدر ما يرتبط بالتوسع فى التحنيط، حتى أن جميع شرائح المجتمع قد أخذت به، من الناحية العملية.

وهكذا ازدادت أعداد المومياوات زيادة كبيرة. كما أن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الزيادة السكانية (إذ يقدر عدد سكان مصر مع مطلع التقويم الميلادى بثمانية ملايين نسمة مقابل حوالى خمسة ملايين فى ظل الدولة الحديثة)، ومن ناحية أخرى، وحيث أن هذه المومياوات كانت أقل قدماً، فإن حفظها فى البقاء سالمة كان أوفر. وعلى كل حال، نلاحظ ازدياد الجبانات، والتوسع فى إعادة استخدام المقابر القديمة. وهكذا نرى فى منطقة طيبة، أن العديد من مقابر دير المدينة ووادى الملكات التى ترجع الى الدولة الحديثة قد حشرت فيها المومياوات حشراً، بكل معنى الكلمة، فى العصر الرومانى، وأن هذه المومياوات مجهولة الصاحب.

ولم تتغير تقنيات التحنيط خلال هذا العصر: فالذى تطور، هو النسبة التى تخص كل صنف من أصناف المعالجات المعمول بها. وهكذا ونظراً لانتشار التحنيط بين الشرائح الأكثر فقراً من سواد الشعب، تزايدت الأهمية النسبية لأبسط التقنيات وأسرعها، وهو ما دفع البعض الى الظن بأن مستوى التحنيط قد تدنى. وهذا القول أبعد ما يكون عن الحقيقة، لأن الأمثلة كثيرة على مومياوات ذات مستوى رفيع، وهو ما تبينه الدراسات على المومياوات التى تحتفظ بها المتاحف (راجع «جرى» GRAY و«داوسون» Dowson أو «دافيد» A.R.David) وأيضاً الدراسات التى فى زمن أقرب إلينا على مومياوات جبانات «دوش» و«عين لباخا» فى الواحات الخارجة (دونان ولشتنبرج - Dunand et Lichtenberg).

إن أكثر الطرائق انتشاراً فى هذا العصر هى الطريقة التى تنتج مومياوات «سوداء»، وهى التى تتطابق بلاشك مع الصنف الثانى من انواع التحنيط كما وصفها «هيروروت». فعندما يصور جسد المتوفى فى كتب الموتى، اعتباراً من الدولة الحديثة، وأيضاً على التوابيت أو الأكفان المرسومة فى الأزمنة المتأخرة، فإن هذا الجسد يظهر باللون الأسود، وهو ما يشهد على قدم هذه التقنية. ومع ذلك فهذا النوع من الصور نادر جداً، إذ يصور المتوفى فى الغالب ككائن حى. ان المادة المسئولة عن اللون الأسود، والتى كانت معروفة ومستخدمة فى العصور السابقة، والتى مازالت خواصها الكيميائية ومصدرها محل جدال، من المحتمل أنها قد تغيرت بتغير المناطق والعصور. ويعتقد البعض ان هذه المادة هى القار الذى تم جلبه من البحر الميت على ما يرجح، فى حين يعتقد البعض الآخر انه منتج نباتى اكتسب لونه الأسود نتيجة التحولات الكيميائية التى طرأت عليه على مر الزمان. ان استعمال المواد النباتية المجلوبة من الشرق الأوسط (زيت الأرز على سبيل المثال) تؤكد وثائق من العصر البطلمى التى تذكر ان الدولة توفر منها كميات محدودة للمحنطين، الذين

يتولون بدورهم توزيعها على زبائنهم. ورغم ان هذه الموميאות «السوداء» هى أقل جمالاً فى مظهرها من الموميאות «البيضاء» التقليدية، إلا انها على قدر معقول من الحفظ، وان لم تستخرج أحشاؤها. لقد برهنت خبرتنا المستمدة من جبانة «دوش» على أن الموميאות «السوداء» المكتشفة فى هذا الموقع لم يتم فى الغالب استخراج أحشائها. ان الأظافر وشعر الرأس وشعر البشرة فى حالة جيدة ويمكن التعرف على الأعضاء التى بقيت فى مكانها كالرئتين والكبد. وكان فى وسعنا بفضل دراستها بالأشعة ان نؤكد هذه الحقائق وازدياد وجه الشبه بين هذه الموميאות وتلك التى تم اعدادها بأسلوب الصنف الأول من التحنيط، التى عثرنا أيضاً على أمثلة لها فى هذا الموقع.

ومن السمات المميزة لموميאות هذا العصر انها تبدو أحياناً «متنفخة»، الأمر الذى يعطيها حجماً مماثلاً تقريباً لحجم الكائن الحى. وتوجد مسافة بين الأغشية والهيكل العظمى. انه فراغ جاءت الدراسة بالأشعة لتؤكد. وربما حدث هذا الانتفاخ، وهو أمر نادر جداً، نتيجة لبداية عملية تعفن توقفت بسبب عملية إزالة الماء من الجسد، فليس من الأمور النادرة ان نصادف فى البلدان الجذبة حيوانات نافقة فى الصحراء وقد أخذت هذا المظهر الخاص. ويمكن القول انه سباق حقيقى بين عمليتي إزالة الماء من الجسد وتعفنه.

وفى نفس سياق الأفكار هذا، نلاحظ أن العديد من الموميאות تظهر علاقات معالجة متسعة، وناقصة أو تمت فى وقت متأخر جداً. ان هذه المعالجة المتسعة تجد تفسيراً لها فى العدد الضخم من الأجساد المطلوب معالجتها فى آن واحد. ودعك من الموميאות التى انفصلت رؤوسها، وهو ما قد يحدث أثناء عملية التحنيط كما يشهد على ذلك «الجريد» الذى عثر عليه فى القناة الفقارية وفى تجويف الجمجمة وكانت الغاية منه تدعيم الرأس والجذع الى حد ما.

وفى أدنى سلم الجودة، توجد أشباه الموميאות، ذات المظهر اللائق ولكنه زائف، فإذا ما انتزعت الأكفان الجنائزية، عثر على مزيج مذهل من العظام، يعود لعدة أشخاص أحياناً، وهو ما لا يستحق أن يوصف بالموميا.

وأخيراً، يتصادف ان «الموميאות» ذات المظهر اللائق، لا تحتوى فى حقيقة الأمر سوى على عناصر صناعية غير آدمية. وقد تعود هذه الموميאות الزائفة الى العصور القديمة ونتاجت عن ضياع الجثمان عند المحنط أو إتلافه. كان المحنط إذن يضع هذه البدائل، لخداع أهل المتوفى. ومن الصعب أحياناً التمييز بين هذه الموميאות الزائفة والتقليد الحديث الذى يصنع لأغراض تجارية، عندما انتشر الولع بالآثار. ونعرف جميعاً

ان الرحالة، كانوا خلال القرن السابع عشر يهودون من مصر ومعهم موميאות لتأخذ مكانها في «متحفهم الخاص».

أما هيئة الموميאות، فلم يطرأ عليها سوى تغيير محدود، فالأطراف منبسطة في المعتاد، والأطراف العليا على امتداد الوجه الخارجى من القخذين. واليدان موضوعتان عند الصبية فوق الأعضاء التناسلية وعند الإنسان البالغ نلاحظ أيضاً، ولكن فى النادر، ان الأطراف العليا تتقاطع فى الوضع الأوزيرى أو أن الساعد الأيمن على امتداد الجسد، فى حين ينثنى الساعد الأيسر بزاوية قائمة أمام البطن. ويمكن ملاحظة هذا الوضع فى زمن سابق ومنذ الدولة الحديثة، وفوق غطاء التوابيت على الأقل، ونذكر على سبيل المثال، ما نشاهده على غطاء تابوت السيدة «إيزيس» الذى عثر عليه فى مقبرة «سن نجم» بدير المدينة.

وهناك عادة تذهيب الجسد التى تبدو من خصائص العصر اليونانى الرومانى. ومنذ العصر اليونانى كان القوم يذهبون أحياناً جفون وشفاة وأظافر بعض الموتى: وقد وصلتنا أمثلة على ذلك من جبانة كهنة فيلة، وفى العصر الرومانى تثبت على البشرة مباشرة رقائق من الذهب بحيث تغطى جزئياً على الأقل الرأس والأطراف. وقد عثر على موميאות من هذا النوع فى «أنطينوه» (الشيخ عبادة، حالياً - م)، وفى الجبانة الطيبية ومؤخراً أيضاً فى جبانة دوش. وإن كانت هذه العادة فيما تبدو لنا محدودة جداً من حيث انتشارها : فمن بين ٣٤٥ مومياء تم تسجيلها فى دوش، نجد أن اثنتى عشرة مومياء فقط كانت تبدو عليها آثار التذهيب. ومع ذلك فإن دراستنا الحديثة حول موميאות جبانة العصر الرومانى فى عين لباخا (على بعد ٤٠ كم الى الشمال الغربى من مدينة الخارجة) قد سمحت لنا بتحديد ثمانى موميאות تحمل آثار ذهب وذلك من بين أربعة وأربعين حالة تم دراستها وهو أمر شديد الأهمية. وربما كانت النسبة أكبر من ذلك بكثير، لأن أكثر من اثنتى عشرة مومياء قد احتفظت بالكامل باللفائف التى تدثرها، الأمر الذى يحول فى الوقت الراهن دون التوصل الى حكم نهائى. إن استخدام التذهيب يتناسب عادة ومدى اتقان التحنيط والارتفاع النسبى فى مستوى الأثاث الجنائزى. وفى وسعنا إذن ان نميل الى الاعتقاد انها كانت عادة قاصرة على الأعيان ولم تكن هذه العادة وقفاً على البالغين، إذ توجد أيضاً على موميאות الأطفال فى عدد من الحالات ليست بالقليلة، ولاسيما على مومياوين من موميאות المتحف البريطانى (British Museum (no Inv. 30362 - 30363 وعلى مومياء من دوش ومومياوين من عين لباخا. ان لهذه العادة دلالة ذات طابع دينى: فالذهب

هو «لحم الآلهة»، وبصفته هذا يمنح المتوفى صفة إلهية. ويمكن النظر الى هذا التذهيب على اعتباره المقابل للأقنعة الذهبية الخاصة بالفراعنة. إن سفر شعيرة التحنيط الذى ظل يعاد نسخه حتى العصر الرومانى، يعد المتوفى بما يلى:

«سوف تتجلى ككائن من ذهب، سوف تتألق مثل الإكثرون»

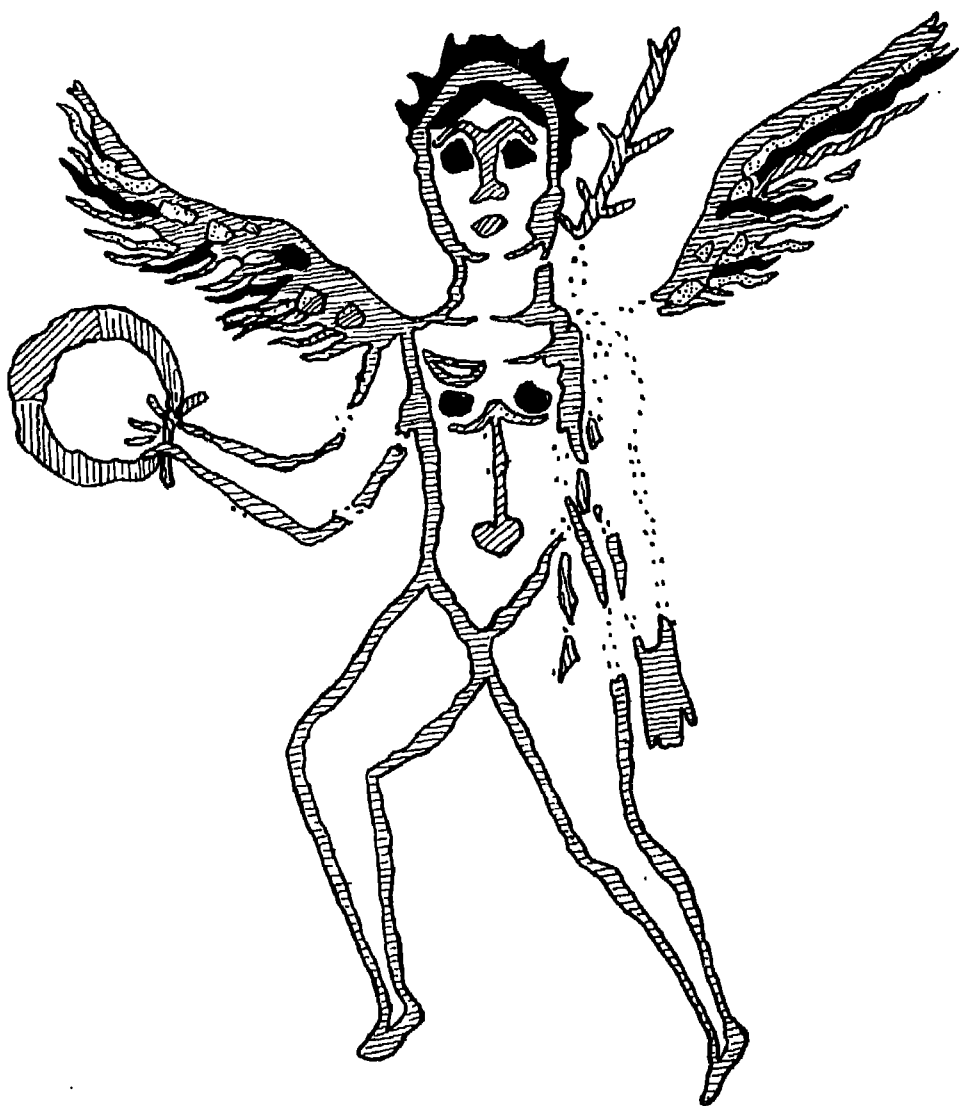
نقلا عن الترجمة الفرنسية (trad. J.C.Goyon)

بلغت العناية بلف الموميااء باللفائف شأواً عظيماً فى العصر البطلمى وفى العصر الرومانى على وجه التحديد. كانت اللفائف ضيقة جداً فى الغالب (فيبلغ عرضها سنتيمترين فقط) فكانت تنسج إذن خصيصاً لهذا الغرض، الأمر الذى يسمح بتكوين نماذج هندسية معقدة كالمعين أو المربعات أو «السلام». ومما يزيد من أثرها الزخرفى استخدام ألوان متنوعة، لاسيما الأبيض والأسود والأحمر (بدءاً من الأحمر الفاتح وصولاً إلى الأحمر الطوبى الغامق). وفى وسط هذه النماذج، توضع فى الغالب رسائى من الجص المذهب، والمومياوات التى عثر عليها پترى Petrie فى هواره هى خير مثال على ذلك.

وفى بعض الأحوال، كسيت المومياوات بنسيج يلتصق تماماً بالجسد وتركت الأطراف حرة. ان موميااء من العصر الرومانى موجودة فى المتحف البريطانى، وقد تم اعدادها بكل عناية، لتعتبر مثلاً حياً على ذلك. (Inv. 6704). إن هذه التقنية لتذكرنا بمظهر بعض مومياوات الدولة القديمة.

ومع ذلك، يظل «إلباس» المومياوات فى كثير من الأحوال على قدر من البساطة. فالجسد مدثر بعدة أكفان ثبتت فى مكانها بواسطة أشرطة من النسيج عريضة الى حد ما، و«اللفائف» ليست فى هذه الحالة سوى مجرد أربطة من النسيج الممزق وليس لها حاشية أو أطراف. وإذا كانت الأكفان الخارجية هى من النوع الجيد فى المعتاد، ومطرزة ولها هدأب وحاشية مشرحة (والعامة تقول مسرحة - م.)، فان الأقمشة غير المرئية هى فى الغالب رديئة جداً، ومرقعة، وصلت بعضها ببعض بواسطة خياطة خشنة. وبين طبقات الأكفان وضعت كميات من الأقمشة المغضنة والشاش والملابس القديمة لتزيد من حجم «الرزمة» التى تشكل الموميااء. وهكذا فقد عثر فى دوش بين طبقات أكفان طفل يبلغ السابعة من عمره على فستان مطرز مستعمل لفتاة بالغة، وربما كان لوالدة الغلام. ان فك اربطة موميااء يحتفظ بها متحف التاريخ الطبيعى بمدينة ليون الفرنسية يوفر لنا مثلاً آخر عن «استعادة» اقمشة مستخدمة. لقد أشرف على ذلك العالمان «جويون» J.C.Goyon

شكل (٢١) .



شكل (٢١) . سوال موزيكش. دوش. المقبوة رقم (٢٠)



و«جوسيه» P.Josset فعثرا على أجزاء كبيرة من شراع سفينة، وهو ما لا يعنى بالضرورة ان صاحب المومياء كان ملاحاً...

كما عثر أيضاً وسط الأكفان، مثلما كان يحدث فى العصور السابقة، على تمائم الغرض منها ضمان حماية أعضاء المتوفى. وكان جعران للقلب لا يزال مستخدماً. ومع ذلك، وبشكل عام، يبدو أن عدد هذه التمائم قد تناقص: وبوجه عام فإن الحفائر الحديثة فى جبانات العصر اليونانى الرومانى لا تشير الى وجودها. ومع ذلك، فإن بين نماذج التمائم التى لا حصر لها الموجودة فى المتاحف أو ضمن المجموعات الخاصة، الكثير الذى قد يرجع تاريخه الى هذا العصر ويعود الى مقابر سلبيت ونهبت.

ويمكن أن نستكمل حلى المومياء بشبكة من الخرز المصنوع من القاشانى، المستطيل الشكل، ولونه فى المعتاد أخضر أو أزرق فيروزى. وكان فى الإمكان أن تطعم عيون الشبكة التى على شكل معين، بعناصر أكثر اتقاناً، متعددة الألوان، صنعت من الخرز أو من رقائق من القاشانى. وقد تمثل هذه الصور ابناء «حورس» أو العمود «چد»، أو الجعران أو أيضاً «أنوبيس»، على هيئة ابن أوى. ويبدو أن هذه العادة كانت ترجع الى الأسرة الخامسة والعشرين، بل وربما الى الأسرة الحادية والعشرين. وفى الأزمنة المتأخرة، على وجه التحديد، ولأسباب تتعلق بالتكلفة، كان يكتفى فى الغالب برسم شبكة من الخرز على الكارتوناچ أو على الكفن الخارجى. وفى العصر المتأخر، يظهر «أوزيريس» فى صورته فى الغالب وهو يرتدى كفنأ بزخارف على شكل معين.

## (٢) التوابيت والكارتوناچ

ويظل استخدام التوابيت أمراً شائعاً. وحتى العصر الرومانى، توجد توابيت من خشب على هيئة آدمية، ولكن استخدامها أخذ يتناقص وهى بوجه عام على هيئة صندوق، غطاؤها مسطح أو مستدير أو جمالونى. ويمكن ان يكون التابوت مزخرفاً أو غير مزخرف، فى الداخل أو فى الخارج. ان الجانب الصغير لبعض التوابيت هو على هيئة واجهة معبد بباب زالق يكتنفه عمودان ويعطوه إفريز. وكان هذا الباب يتيح فتح التابوت وادخال مومياء رضيع الى جانب أمه على سبيل المثال، كما هو الحال بالنسبة لتابوت عثر عليه فى مقبرة

(غير مسيحية) فى جبانة البجوات، ويرجع الى القرن الرابع الميلادى. والزخارف هى فى الأغلب زخارف ذات موضوعات تقليدية: «أنوبيس» مقعياً\*، وأبناء حورس و «أوزيريس» فى جلاله، والمتوفى مسجى فوق سريريه الجنائزى، تحيط به النائحات. وعلى السطح الداخلى لغطاء تابوت «بوليوس سوتر» Pollios Soter، حاكم طيبة، فى عهد الإمبراطور «تراچان» (٩٨-١١٧) صورت الإلهة نوت، من الأمام، وهى واقفة، وهو عنصر زخرفى بدأ فى الظهور منذ الأسرة الثانية والعشرين، ولكن يحيط بالإلهة دائرة بروج (زودياك) ذا طابع رومانى على نحو خاص. إن الجمع بين عناصر زخرفية مصرية وأخرى يونانية رومانية لهو أمر ملفت للنظر: فقد يصور المتوفى فى صورة يونانية، مرتدياً قميصاً طويلاً واضعاً فوق رأسه إكليلاً من الزهور، ولكن تحيط به «إيزيس» و «نفتيس». وعلى سطح تابوت منجدولة (الفيوم) فى وسعنا أن نشاهد على الجانبين الصغيرين قرّة وصورا لأنوبيس وعلى الجانبين الطويلين عناصر زخرفية يونانية تتكون من صفائر من أوراق الشجر وجماجم ثيران. وفى نفس الوقت، نجد فى الإسكندرية، على وجه التحديد، توابيت من حجر ذات طابع يونانى محض، وقد تكون أحياناً غير مزخرفة، وقد تحمل أحياناً أخرى زخارف مستعارة من الميثولوجيا الإغريقية. وهكذا فقد صورت أسطورة ديونيزوس وأريان على سطوح تابوت آية فى الجمال عثر عليه فى المكس (وهو من أحياء الإسكندرية).

وشاع أيضاً فى العصر الرومانى استخدام «خزائن المومياء». إنها عبارة عن دولا ب له بابان، لا يفتح أحياناً سوى جانبهما العلوى، فيسمح بالتالى بمشاهدة المومياء (أو الرأس فقط) مرتدية الكارتوناچ! وهذا النوع من الخزائن لم يكن الغرض منه على ما يبدو أن يوضع فى المقبرة بل بالأحرى فى المنزل، ريثما تقام مراسم الدفن. ويشير بعض الكتاب الكلاسيكيين القدماء من أمثال ديودورس الصقلى (٩٠ - ٢٠ ق.م) وشيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق.م) إلى هذه العادة المصرية فى حفظ مومياء الأقارب المتوفين فى المنزل، وذلك من باب الإستغراب والإندهاش من هذه العادة. وقد عثر على «خزائن» من هذا النوع فى أبوصير الملق.

وعرف استخدام الكارتوناچ فى العصرين البطلمى والرومانى رواجاً عظيماً. وفى العصر البطلمى بدلاً من أن يحتوى المومياء صندوقها المصنوع من النسيج أو البردى المجصى، فإنها تغطى فى المعتاد برقائق من الكارتوناچ قطعت على شكل الزخارف، وهو

\* أى جالسا على مؤخرته ومركزاً على ذراعيه. (المترجم).

ما يحدد حقيقة إطار الموضوع الزخرفى. وتتثبت هذه الرقائق فى مكانها بواسطة مشابك (أو بواسطة أشرطة) فى الأماكن التى تحددها الشعائر: وهكذا فإن القلادة «أوسخ» (وهى قلادة كبيرة من الأزهار برؤوس صقر) توضع عند قاعدة الرقبة، فى حين أن صورة «نوت» المجنحة توضع فى مكان أدنى، عند مستوى الواجهة الأمامية للقفص الصدرى. ويغطى الرأس بقناع قد يكون مذهباً، والقدمان موضوعان فى «صندوق للقدمين» مزخرف فى المعتاد على الواجهة الأمامية بصورة «أنوبيس» مقعياً وعلى التعلين صور للأسرى أو أشكال هندسية فى الغالب (رقعة داما متعددة الألوان، وأصداف...)

وفى هذا العصر، كان الكارتوناچ يصنع فى الغالب من عدة طبقات من البردى المضغوط ضغطاً قوياً، فيعطى لهذه المادة صلابتها المعهودة. ودفعت هذه الممارسة علماء الآثار الى استعادة البرديات التى تشكل الكارتوناچ للإستفادة من النصوص التى مازالت موجودة عليها، ولكن حساب الشئ ذاته للأسف. ووصلتنا مومياء من جبانة دوش لم تحتج إلى هذا الضرب من العمليات: إذ وجدنا أنفسنا أمام أمر غير معهود، فقد كانت المومياء تحمل، جزءاً كبيراً من بردية يونانية، ملتصقة بالصدر، ومازلنا لا نجد تفسيراً لذلك: فالبردية تضم قائمة الضرائب العينية التى سددها سكان قرية دوش عند مطلع القرن الثانى قبل الميلاد.

وفى العصر الرومانى طرأت تعديلات جديدة: فقد اختفت رقائق قطع الكارتوناچ ليحل محلها كارتوناچ بالكامل يأخذ فى الغالب شكلاً يشبه صندوقاً له غطاء. ويشكل وجه المتوفى وساعده ويده بالجص السميك بل يبدو أحياناً الجسد بأكمله على هيئة نحت بارز: وهكذا، نشاهد إحدى النساء التى توفيت وقد صورت على كارتوناچ من أبى صير الملوك، يرجع الى القرن الأول الميلادى، وهى ترتدى ثوباً ومعطفاً لصيقاً، ولدينا مجموعة من النماذج تعود الى أزمنة لاحقة عثر عليها فى الغالب فى أخميم وتصور المتوفين بثيابهم اليومية وقد ارتدت النساء فساتين ذات زخارف هندسية وارتدى الرجال قمصاناً لها اكمام ومعاطف تلتف بثناياها فوق الكتف الأيسر. وفى حالات أخرى، فإن جذع المتوفى أو المتوفاة وحده، هو الذى تم تشكيله حسب نفس التقنية، ليطلق بالأشرطة. وأفضل الأمثلة على ذلك هى جذوع «مير» ذات الوجوه المزدانة بمساحيق التجميل بشكل مبالغ فيه، والتى يحتفظ بها متحف القاهرة. وفى حالات أخرى، يستطيل القناع على هيئة صدرية ملونة ثبتت على المومياء بسيور. وقد زخرفت الصدرية فى معظم الأحوال بمشاهد جنائزية تقليدية موزعة على عدة صفوف. والقناع مغطى بالجص السميك ومذهب. شكل (٢٣)

كما كانت الأقنعة ذات النمط المصرى لاتزال منتشرة فى صدر العصر الرومانى، فقد بدأ تدريجياً استخدام الأقنعة الجصية السمكية، والأكثر واقعية وهى فى الغالب أقنعة على قدر كبير من التفرد. انها مرصعة فى المعتاد بعيون مصنوعة من عجينة الزجاج، والوجوه ملونة بألوان تشبه ألوان الإنسان الحى. وعلى غرار الأقنعة المصنوعة من الكارتوناچ، فقد ثبتت فى مكانها بواسطة أشرطة. هذا الإنتاج الغزير، الذى يظهر بوضوح فى مدينة «أنطونوه» (الشيخ عبادة حالياً - م.) على نحو خاص، استمر حتى مطلع القرن الرابع الميلادى.

وجنبا الى جنب مع ما سبق، واعتباراً من القرن الأول للميلاد، ظهرت فى مصر صور شخصية جنائزية، رسمت فى بداية الأمر على القماش، ثم على الخشب فى المقام الأول، بألوان مائية أو باللون الشمعى، وعرفت باسم «بورتريهات الفيوم» (فالفيوم هى التى امدتنا بمعظمها وبأعداد كبيرة). ووفر لنا هذا التقليد، امكانية مشاهدة معرض دائم حقيقى للصور الشخصية، وإن كانت نمطية أحياناً، وذات قوالب جامدة، ولكنها على قدر كبير من الواقعية والقيمة الجمالية. انها تقنية رومانية، ولايربطها شىء بالتقاليد المصرية. ومن المحتمل أن بعض هذه التصاوير قد نفذت عندما كان أصحابها على قيد الحياة. ويمكن أن نأخذ بالرأى القائل انها كانت تعرض آنذاك فى المساكن، قبل أن توضع فى مكانها فوق المومياء. ان نموذج لصورة شخصية ترجع الى مطلع القرن الثالث الميلادى ويحتفظ بها متحف «جيتى» J.P.Getty ليووضح الأمر بجلاء: إذ وجد محاطاً بصورة للإله «سيرابيس» وبصورة أخرى للإلهة «إيزيس» ليشكلوا لوحة ثلاثية المشاهد.

وفى العصر الرومانى انتشرت الى حد ما الأكفان المرسومة وترجع بعض نماذجها الى الدولة الحديثة. وقد حلت هذه الأكفان بلاشك محل الكارتوناچ أو التوابيت الضخمة. انها تصور فى المعتاد المتوفى كاملاً، ويحيط به «أوزيريس» و «أنوبيس»، وتحيط بالمشهد الرئيسى «لوحات» صغيرة، تصور موضوعات تقليدية، وآلهة جنائزية وأشياء رمزية الخ... وقد وصلتنا مجموعة هامة من «أنطونوه». ويمكن ان يرجع تاريخها الى القرن الثالث والرابع الميلادى، وتصور على نحو خاص نساء يرتدين حلياً جميلة منها الصليب ذو العروة، الأمر الذى دفع البعض الى افتراض أصول مسيحية لهؤلاء الأفراد، ولكن يبدو أن هذا الافتراض مستبعد.

إن أغلفة المومياوات ذات الزخارف المرسومة التى ترجع إلى أزمنة متأخرة جداً، هى بلا أدنى شك، تلك التى تم الكشف عنها فى مجموعة معبد حتشبسوت فى الدير البحرى:

والقناع المغطى بالجص يمتد على هيئة مستطيل من القماش الملون، وتم وصله بالكفن بخياطة غير متقنة، وصور على هذا المستطيل موضوع قديم جداً، يمثل مركب «سوكر»، ولا يمكن أن تعود هذه الأكفان المزخرفة، ذات النمط المتكرر، الى تاريخ سابق على القرن الرابع الميلادي.

وفى العصر اليونانى الرومانى، كثيراً ما نجد فى المقابر أقراصاً تحمل مدونات (ويطلق عليها أيضاً hypocéphales)\* مصنوعة من نسيج مغطى بالجص أو البردي بل من البرونز، وموضوعة تحت رأس المتوفى (ومن هنا جاء اسمها) وفى المعتاد فإن الموضوعات المصورة على سطوحها، تتكون من البقرة السماوية، وأبناء حورس، وأمون - رع، على هيئة كائن له أربعة رؤوس كباش، وبعض الرموز الشمسية الأخرى المتنوعة.

والنص المدون هو نص الفصل ١٦٢ من كتاب الموتى، إنه ابتهاج، تنطق به البقرة من الناحية المبدئية حتى «يأتى اللهب تحت رأس المتوفى»، أى يحتفظ بدفنه فى العالم الآخر.

### (٣) المقابر

أما المقابر فلم تتطور إلا قليلاً. ولنطرح جانباً مشكلة المقابر الملكية البطلمية: إذ لم يعثر عليها أبداً، زد على ذلك، أننا لم نعثر أيضاً على مقبرة الاسكندر التى نعرف على كل حال (استناداً إلى تقليد متواتر) ان جثمانه قد أعيد الى الاسكندرية حيث كان يعرض فى تابوت من زجاج، وهو ما يشير ضمناً أن الجسد كان قد تم تحنيطه.

وتعتبر مقبرة «بتوزيريس» حالة خاصة متميزة. كان «بتوزيريس» كبير كهنة تحوت فى «هرموبوليس ماجنا» (الأشمونين، حالياً) فى السنوات ٣٤٠ - ٣٣٠ ق. م. ومقبرته أشبه بمعبد مصغر، له بهو أساطين ومجازات محاطة بحوائط نصفية وهو النمط الذى سيعم وينتشر فى العصر البطلمى. وحجرة الدفن موجودة فى قاع بئر عميقة تفضى فتحتها العلوية الى الهيكل. والزخارف الداخلية لبهو الأساطين والهيكل على قدر كبير من الأصالة وهى زخارف مركبة، فتعالج مشاهد تقليدية مصرية وفقاً للقواعد اليونانية. وتتكون

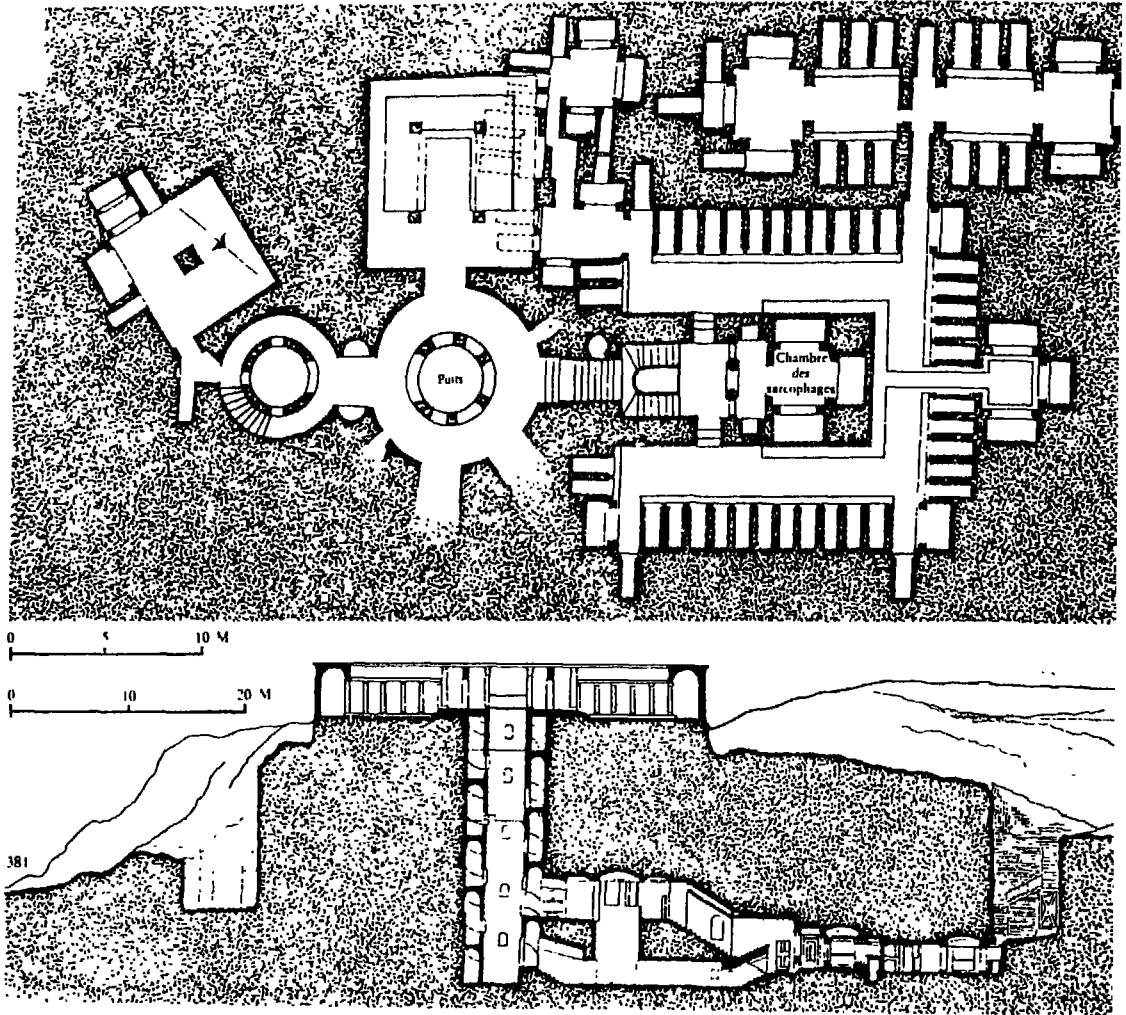
\* وهى كلمة مكونة من مقطعين: hypo ويعنى تحت و céphale ويعنى الرأس. (المترجم).

النصوص المنقوشة على الحوائط من ابتهالات إلى الأحياء ونصائح إلى البشر ليحيوا حياة مستقيمة. والتابوت آية فى الجمال، وموجود الآن فى متحف القاهرة، ومزخرف بعلامات هيروغليفية، صنعت من عجينة الزجاج الملون، ورسع بها الخشب الملون بالأسود.

وتوفر لنا جبانات الأفراد العديدة قائمة وافية بمختلف فئات الدفنات، وتنتشر جبانات الإسكندرية على امتداد الشاطئ، من الشرق الى الغرب، وبعضها أقرب ما يكون الى سراديب الموتى (أى الكتاكومب). والحجرات الجنائزية متعددة وتضم إما «أرائك» توضع عليها التوابيت أو كوات لتوضع فيها الأوانى الجنائزية، إذ كان القوم يقومون فى كثير من الأحوال بحرق الجثث عملاً بالأعراف اليونانية. وقد زخرفت بعض هذه المقابر بزخارف جدارية تختلط فيها العناصر اليونانية والمصرية، ويضم بعضها الآخر لوحات حجرية جنائزية على النمط اليونانى المحض.

إن مقبرة كتاكومب كوم الشقافة هى من الناحية المعمارية، المجموعة الجنائزية التى تشد اهتمامنا أكثر من غيرها: إنها عبارة عن مقبرة ضخمة محفورة فى الصخر وموزعة على ثلاثة مستويات، وقد شيدت فيما بين القرن الاول والقرن الرابع من التقويم الميلادى. ويتكون البناء العلوى من رواق وأسفله يبدأ سلم حلزونى، يفضى الى المقبرة الرئيسية القائمة عند المستوى الثانى. ان تنسيقها شديد الشبه بتنسيق مقبرة من العصر الفرعونى، بهيكلها الذى يضم تمثالى الزوجين المتوفيين وقد وضعا فى حنيتين، وحجرة جنائزية ذات زخارف تقليدية، كان يوجد بها ثلاثة توابيت، يونانية الطراز، بكل وضوح. وهذه المجموعة محاطة بدھليز عريض تنفتح عليه عيون سدّت ببلاطات ضخمة، وتتسع لثلاثمائة متوف. وتوجد أروقة مجاورة تتيح للمرء أن يصل إلى مجموعات أخرى من المقابر. وفى هذه المجموعة الشاسعة توجد مختلف انماط الدفنات جنبا الى جنب: دفنات فردية فى توابيت، اوانى من الطين المحروق أو حفر محفورة فى الأرض، ودفنات جماعية فى أقبية. شكل (٢٢)

إن جبانة «ترنوتيس» (كوم أبو بللو، حالياً م.)، فى القسم الغربى من الدلتا، تضم عدداً من الهياكل الجنائزية متنوعة الأحجام والأنماط وموزعة فى فوضى تامة فوق مساحة شاسعة. وتنطوى الأهمية الرئيسية لهذه الجبانة فى وجود مئات اللوحات الجنائزية من النوع المختلط، اليونانى المصرى، حيث يصور المتوفى فى أغلب الأحوال فى وضع المصلى، وفى وقت لاحق، ستعود الإيقونوغرافيا المسيحية، فى أغلب الأحوال، إلى تبنى هذا الوضع.



شكل (٢٣)

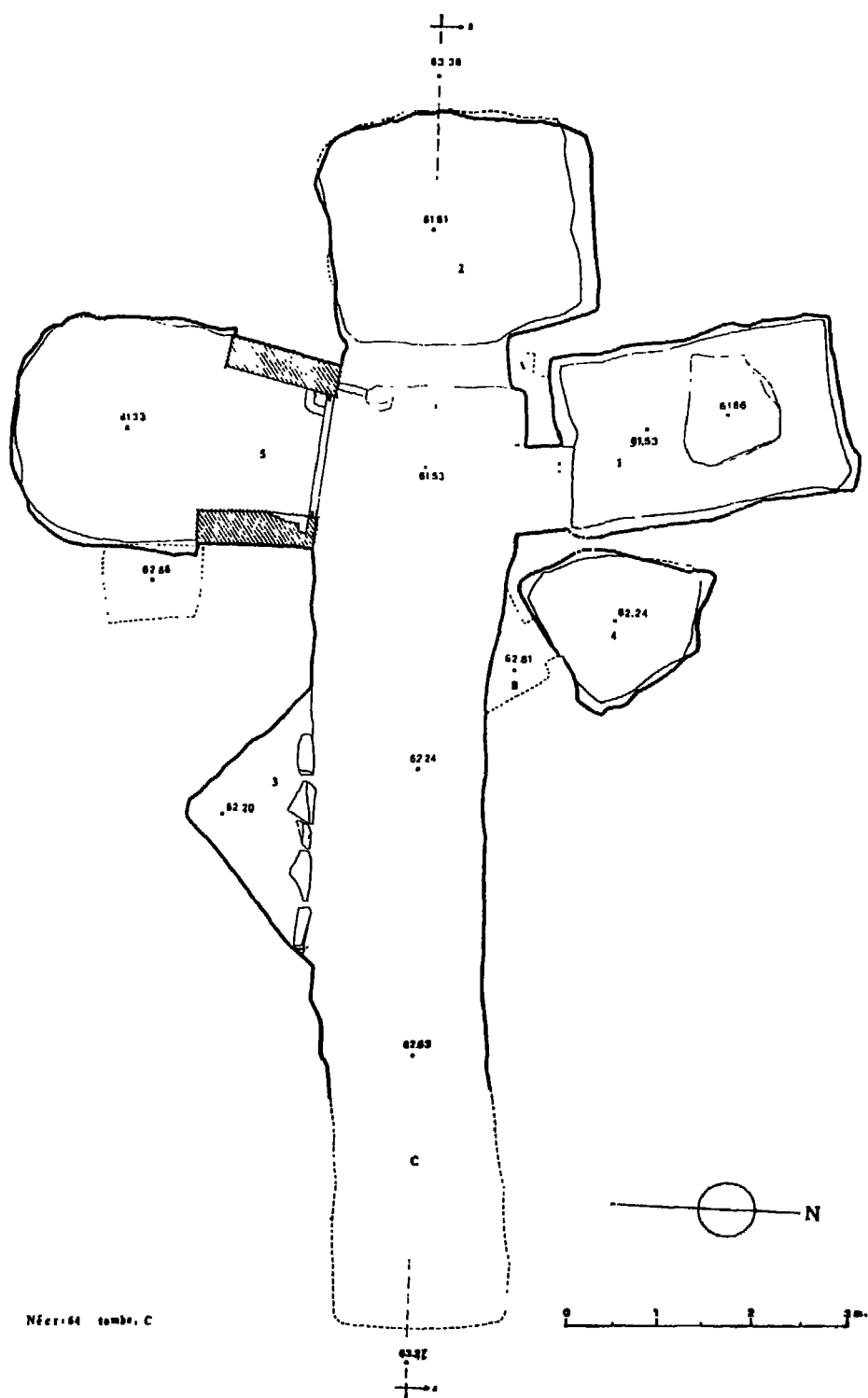
رسم تخطيطي لجبانة كوم الشقافة . الإسكندرية

وفى مصر الوسطى، فإن تونا الجبل وهى جبانة هرموبوليس (الأشمونين، حالياً - م.) تعتبر مدينة حقيقية للأموات. وقد جرى استخدامها منذ العصر البطلمي وحتى العصر الرومانى. وبعض هذه المقابر لها طابع فريد متميز: انها عبارة عن بنايات من الطوب المغطى بطلاء من الجص، ولها فى الغالب رواق بأعمدة، ويتكون من طابق يصل اليه المرء من خلال سلم داخلى. وكان الموتى يوضعون فى حجرة جنازية، فى هذا الطابق. وتقدم لنا مقبرة «إيزيدورا» مثلاً طيباً. فكان التابوت موضوعاً فوق أريكة حفرت فى الجدار الذى رسم عليه سرير على هيئة أسد، من النمط التقليدى.

وإذا طرحنا هذه الأمثلة جانباً، يمكن القول ان العمارة الجنازية فى العصر اليونانى الرومانى كانت تتسم عموماً بالبساطة. فهى عبارة عن بنايات من الطوب اللبن مغطاة بأسقف مقبوسة «نوبية» (ذات حنيات مائلة) أو هى فى الغالب مقابر ذات آبار أو حفر أو هى أقبية نقرت فى مرتفع من التربة. إن جبانة «دوش» وهى مدينة صغيرة تقع جنوب الواحة الكبرى (الواحات الخارجة - م.) تعطينا مثلاً طيباً لهذا النمط من الجبانات. لقد حفرت المقابر ذات الآبار فى رصيف من الحجر الرملى، عند قمة ربوة شاسعة الى حد ما، فى حين أقيمت المقابر ذات البنيان العلوى والأقبية عند الأطراف. ولا نلاحظ فى هذا النمط من الجبانات أى اهتمامات معمارية، وهو ما يرتبط بلاشك بمستوى إقتصادى متواضع. شكل (٢٤)

ومن ناحية أخرى، فإن السمة التى تميز هذا العصر هى اكتظاظ المقابر وإعادة استخدام المقابر القديمة. لقد جاء هذا الوضع نتيجة لانتشار التحنيط أولاً، وثانياً بسبب نقص الأراضي المناسبة للتوسع فى هذه الجبانات الشاسعة المحصورة بين الأرض المنزرعة والصحراء التى رأى الناس انه من غير الضرورى التوغل فيها كثيراً. ومن ثم، فإن مقابر وادى الملوك، التى يرجع تاريخها الى الدولة الحديثة، قد وجدت مملوءة بمومياوات رومانية. وزخارف هذه المقابر بسيطة فى أغلب الأحوال، بل غير موجودة. ومع ذلك، توجد بعض النماذج الجميلة ذات الزخارف المرسومة، ونجدها فى هرموبوليس (الأشمونين، حالياً - م.) أو أيضاً فى المزوقة، فى الواحات الداخلة، حيث تم الكشف قبل بضع سنوات عن مقبرتين رومانيتين نواتى زخارف مصرية بحتة على وجه التقريب. كما فى امكاننا أن نذكر أيضاً مقبرة شارع تيجران بالأسكندرية التى تجمع رسوماتها بين عناصر زخرفية يونانية وموضوعات مصرية (ومن الراجع ان هذه المقبرة يعود تاريخها الى القرن الثانى الميلادى). شكل (٢٥)

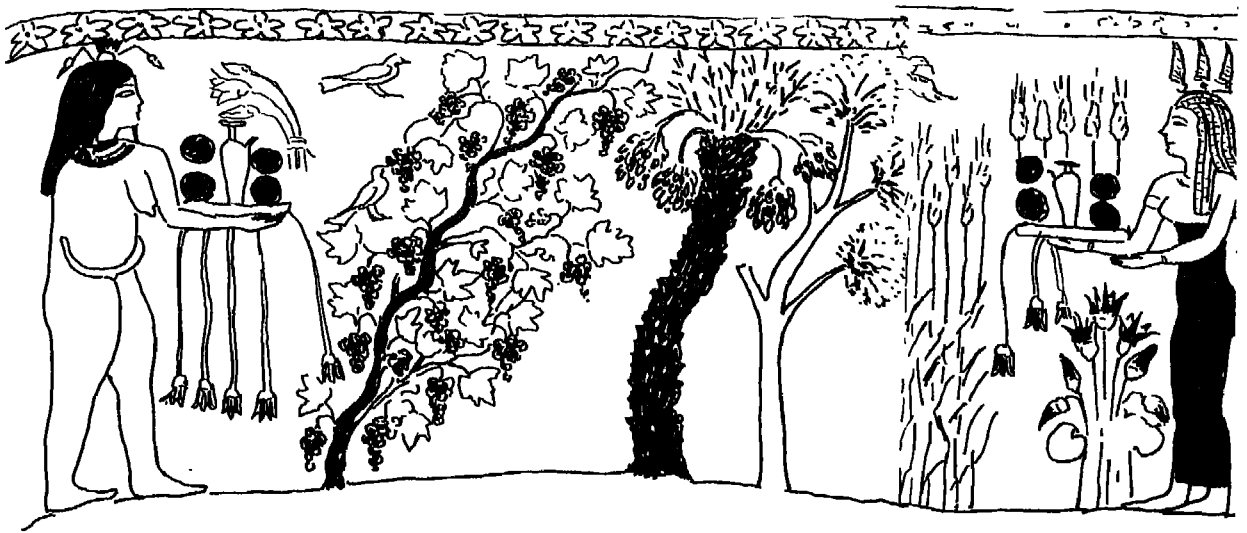




N° 64 - tombe, C

شكل (٢٤)

نوش - رسم تخطيطي للمقبرة رقم ٦٤



شكل (٢٥)  
حدائق وحقول العالم الآخر.  
مقبرة بتوزيريس - المزوقة . القرن الثاني الميلادي



شكل (٢٢)  
قناع وصدرية لامرأة في العصر الروماني  
أنطونيه (الشيخ عباده)  
متحف اللوفر

## (٤) المعتقدات الجنائزية

يبدو بجلاء من زخارف المقابر الى جانب زخارف الكارتوناج والتوابيت، ان المعتقدات الجنائزية قد ظلت ثابتة. بيد ان الأمر يحتاج الى توضيح بعض الفروق الدقيقة. إن وصول الإغريق الى مصر، على نطاق واسع، منذ مطلع القرن الثالث قبل الميلاد، قد صاحبه انتشار نسبي للأفكار والأعراف الجنائزية اليونانية حول الموت. فانتشرت عادة حرق جثمان الموتي في الاسكندرية انتشاراً نسبياً، ونعرف حالات، وان كانت نادرة جداً في حقيقة الأمر، رُفُض فيها التحنيط. ان المدونات الجنائزية باللغة اليونانية، التي تشير الى الموضوعات التقليدية، تعبر في الغالب، عن أفكار تختلف إختلافاً بينا عن المثل المصرية: الأسف على الحياة التي يتركها المتوفى، رؤية الموت وكأنه بمثابة ليل لا رجوع عنه، وعبارات من نوع «لا أحد مخلص فيها».

وفي الحقيقة، سنشاهد تدريجياً، ما يشبه الامتزاج الثقافي الجنائزي، للإغريق الذين اعتنقوا باطراد العادات المصرية في هذا المضمار. ولا عجب في ذلك، بالنظر إلى الصورة التي تقدمها الديانة المصرية والرجاء في الـ «حياة» الآخرة بالمقارنة مع الرؤية الكثيية، في الغالب، للعالم الآخر التي أخذ بها الإغريق. ويظهر التجاور بين الأفكار والصور، اليونانية والمصرية، بشكل ملحوظ في المدونة الجنائزية لسيدة تدعى «أفروديزيا»، وهي زوجة ضابط من أصحاب الرتب العليا كان يعيش في أدفو، في القرن الثاني قبل الميلاد: فبينما يشير النص اليوناني في أسلوب كلاسيكي إلى «الزمان الذي يراقب كل شيء» ومغازل «الباركات»\* و«هاديس» الذي تنتحب المتوفاة أمامه، كان النص الهيروغليفي أكثر تفاؤلاً، فيطالب آلهة العالم الآخر بالحفاظ على جسدها وأن يرفعوا من شأنها أمام «أوزيريس». فظلت أسطورة «أوزيريس» ذات شأن عظيم، كما تشهد على ذلك، كثرة تصوير الإله في المتاع الجنائزي، وهو ما يعكس تصدر عبارة «أوزيريس» مجالات أخرى غير المجال الجنائزي، كما يشهد على ذلك الهيكل الذي أقيم في دندره فوق سطح المعبد والمكرس لشعائروفاة ويعت الإله (وعلى كل حال كانت أعياد شهر كيهاك تقام في أرجاء مصر). وجاء اكتشاف حديث في الكرنك ليؤكد قوة الشعبية الأوزيرية: فقد استخرجت تصاویر

---

\* تقول الأسطورة اليونانية أن الإله «زيوس» لم يكتف بأن أولد أخته «ثيميس» «الهواري»، فأولدها «الباركات» وهن ثلاث : «كلوتو» التي تنسج خيط الحياة و«لاخيسيس» التي تحدد طوله و«أتروپوس» التي تقطعه. (د. ثروت عكاشة : معجم المصطلحات الثقافية: ص ٢٤٨) المترجم.

أوزيرية عديدة من مبنى يشبه القبو، فجاءت لتؤكد تغلغل «أوزيريس» الى داخل المجال المخصص لـ «أمون».

إن التحنيط مهما كان بسيطاً هو فى حد ذاته محاكاة لـ «أوزيريس»، ومن ناحية أخرى، فإن كتاب الموتى الذى ظل ينسخ طوال العصر البطلمى وحتى العصر الرومانى، يعمل على استمرار عقيدة محاكمة المتوفى و «تبريره» الذى يؤهله للدخول الى الحياة الثانية». وأسوة بمقابر العصور السابقة، فقد عثر فى المقابر التى تعود الى العصرين اليونانى والرومانى على تماثيل صغيرة لـ «أوزيريس» وغيره من الآلهة الجنائزية («أنوبيس»)، وهى التى تضمن استمرار الحياة بعد الموت.

كما أن العقائد الشمسية حاضرة حضوراً واضحاً فى القصائد الجنائزية للأزمة المتأخرة، وهو ما تشهد عليه زخارف الكارتوناچ والتوابيت، التى كثيراً ما تصور مركب الشمس والجعران المجنح..

وفى العصر الرومانى سوف تختفى تدريجياً تماثيل الـ «أوشبتي»، وهو ما قد يعنى ان الفكرة القائلة بأن المتوفى سيحتاج إلى المجيئين أو الى الخدم قد أخذت تتلاشى. وبالمقابل، فكثيراً ما يُعثر فى مقابر هذه العصور على تماثيل صغيرة لنساء عاريات (من النوع الذى يطلق عليه فى المعتاد «محظية المتوفى») أو على تماثيل رجال يظهر فيها عضو التذكير بكل وضوح وهو ما يؤكد بلاشك الاعتقاد فى استمرار الحياة الجنسية فى العالم الآخر لكل من الجنسين. إن هذا التقليد هو استمرار للتقليد الذى نلاحظه منذ الدولة الوسطى، والقاضى بأن توضع فى المقابر تماثيل صغيرة لنساء عاريات، لها سمات جنسية واضحة.

كما درجت عادة لها أصول يونانية أو يونانية رومانية: وهى عادة وضع قطعة نقود الى جانب المتوفى. انها التقدمة الشعائرية التى تمنح لـ «شارون»، العبار الذى يساعد على عبور المتوفى نهر «الستيكس» ليرسو فى مملكة الأموات، وذلك حسب العقائد اليونانية، ولكن هذه الفكرة المرتبطة بالعبور لا تتناقض مع المعتقدات المصرية التى اعترفت على الدوام بوجود رحلة ملاحية أو عبور لبلوغ العالم الآخر. وينقل الفصل التاسع والتسعين فى كتاب الموتى الحوار الذى يدور بين المتوفى والملامح الذى يقوم بنقله عبر النهر السماوى، وهو درب التبانة.

ومن ناحية أخرى، ومن الواضح كل الوضوح ان فكرة العقاب الذى يتم انزاله بأولئك الذين ارتكبوا المعاصى فى هذه الدنيا قد وجدت طريقها الى الرؤية المصرية للعالم الآخر. ان قصة «ستنى» الديموطيقية\* (التي حفظتها بردية من العصر الرومانى، وإن كانت أقدم من ذلك بكثير) تروى لنا زيارة «ستنى» وابنه «سا- أوزير» الى عالم الأموات حيث اكتشفوا قاعات يوقع فيها على المذنبين ألوان من التعذيب، فى حين يؤذن للأبرار بالدخول الى نعيم السماء. وقد سبق ان ظهرت هذه الرؤية الأخلاقية للعالم الآخر، كما لاحظناه، فى بعض نصوص مقبرة «پتوزيريس».

---

\* راجع «نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة» المجلد الثانى. الترجمة العربية: ماهر جويجاتى نقلا عن الترجمة الفرنسية بقلم كلير لالويت. الناشر: دار الفكر ١٩٩٦. (ص ٢٧٩-٢٨٤) - (المترجم).

## الفصل السابع

### من الوفاة إلى مراسم الجنازة

خلافًا للفصول السابقة التي أخذت بالتتابع الزمني، فإن هدف الفصل الحالي المخصص لعملية التحنيط، كما نستطيع أن نعيد تركيب خطواتها من خلال النصوص والدراسة العلمية للمومياوات، نقول أن هدف الفصل الحالي هو الوصول إلى تركيب لمعارفنا والإستشهاد بالمراسم الشعائرية التي تسمح للمتوفى بالدخول إلى الحياة الآخرة، بعد أن تكون عملية التحنيط قد تمت وانتهت.

لايوجد بالفعل نص مصرى واحد يقدم لنا وصفاً لعمليات التحنيط. وعندنا على الأكثر نصوص خاصة بالشعيرة المتعلقة بلف الجثمان باللفائف. ويظل «هيرودوت» أفضل مصادرنا وأقربها إلى الحقيقة. إن هذا المؤرخ الذى زار مصر فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد قد ترك لنا وصفاً دقيقاً إلى حد ما لما كان يحدث فى عصره. إنه يُنظر إليه فى كثير من الأحيان على أنه ينسج الكلام ويتخيل الأحداث وأنه غير موثوق فيه، ومع ذلك فإنه يبدو شاهداً جديراً بثقتنا فى المجال محل اهتمامنا. ورغم أن شهادته تجئ متأخرة نسبياً، فإن توافق أقواله مع المعلومات التى استقيناه من الدراسة العلمية للمومياوات تسمح لنا بالقول أن التقنيات التى يصفها هى تلك التى كانت تطبق فى الدولة الحديثة.

وكما يقول «هيرودوت» فبعد الوفاة، عندما تحمل الأسرة الجثمان إلى المحنط، يقوم هذا الأخير عندئذ بعرض نماذج لمومياوات مصنوعة من الخشب الملون، تحاكي النتائج المنتظر الحصول عليها من مختلف المعالجات المقترحة. بهذه الطريقة، كان فى وسع الزبائن وهم على دراية فعلية بواقع الأمر، أن يختاروا نوعية المعالجة التى يودون إجرائها على المتوفى. لقد كان هناك فى الواقع ثلاثة أنواع من التحنيط، يقابلها بالطبع أسعار مختلفة.

إن معالجة الصنف الأول هى أكثرها اتقاناً ومازلنا اليوم ندين لها بما نشاهده من أجساد حفظت لنا حفظاً تاماً، ولها ملامح الإنسان الحى. ووفقاً لرواية «هيرودوت»، فإن

المحنطين يبدؤون باستخراج المخ بواسطة «قطعة» حديد مثنية» (أنها فى حقيقة الأمر، عبارة عن قضيب من البرونز طرفه على هيئة خطاف وقد عُثر منه على عدة نماذج). وفى نفس الوقت، يصبون فى الجمجمة سائلاً يساعد على إذابة بقايا المخ. وبعد ذلك، يشقون الخصر «بحجر أثيوبي» (من السيج)، ومن هذه الفتحة يستخرجون الأمعاء التى ينظفونها بنبيذ التمر، ثم التوابل. بعد ذلك، يملؤون البطن بمختلف المواد البلسمية، لاسيما المر والقرقة، ويخيطون الفتحة. عندئذ، تبدأ عملية التجفيف بواسطة النطرون، فتترك فيه الجثة لمدة سبعين يوماً. وبعد انقضاء هذه المدة يغسل الجسد ثم يدثر بالأشرطة المصنوعة من الـ «بيسوس» (أرق انواع الكتان) ويتم تثبيتها بواسطة نوع من الصمغ.

ولن ندخل على هذا الوصف سوى القليل من التغييرات. ومن جانب آخر، فى وسعنا أن نستكملة بفضل المعلومات التى توفرها الكشوف الأثرية والنصوص المصرية أيضاً إلى حدٍّ ما. كانت تسبق عملية التحنيط، على ما يبدو، عملية غسل الجسد بماء أضيفت إليه كمية قليلة من النطرون، وذلك فى مكان يدعى «إيبو»، وكان التحنيط ذاته يتم فى الـ «برنفر» (البيت الجميل) أو الـ «وعبت» (المكان الطاهر). ولابد أن هذا المكان كان فى الأصل أشبه بخيمة أو بناية أعدت على عجل على مقربة من الجبانة. وفى العصر المتأخر، استخدمت مبانٍ من الطوب اللبن يمكن أن تتسع فى آن واحد لعدد من الأجساد. كما توضح نصوص من العصر الرومانى انه كان على المحنطين أن يبقوا خارج المدينة، سواء عند ممارسة أعمالهم أو فى سكنهم. (أن عبارة «إكسوبيليت» Exopylite، الدالة عليهم والتى تعنى حرفياً «الساكن خارج الأبواب»، لخير برهان على ذلك.) ويمكن ان نتخيل ان المناظر والروائح المنفرة التى تحيط بأنشطة التحنيط قد دفعت المواطنين إلى تجنب الإحتكاك بأصحاب هذه المهنة الفريدة فى بابها....

ومن الواضح، ان المعالجة الأولى التى تجرى على الجسد، كانت تقتضى استئصال المخ، وخاصة عن طريق الفتحة الأنفية المصفوية، وهو ما وصفه «هيرودوت»، ولكن يمكن استخراجه أيضاً، وإن كان فى النادر القليل، عن طريق المنطقة القذالية. وكان تجويف الجمجمة يُمَلأ بمادة تصبح سائلة بعد تسخينها، ويتم إدخالها عن طريق فتحتى الأنف بواسطة مايشبه القمع الذى عُثر على بعض نماذجه. إن مكونات هذه المادة متغيرة، وتتخذ بعد أن تتجمد، مظهراً زجاجياً، يميل إلى السواد. وبعد ذلك يتم استخراج الأحشاء الداخلية. لقد تغير مكان الفتحة: كان الثقب قبل تحوتمس الثالث جانبياً ورأسياً فى المعتاد، وكان مكانه عند مستوى الخاصرة اليسرى. وفيما بعد كانت تفتح البطن فى الغالب فى مكان أدنى، وعند خط مواز لثنية الفخذ. وكما يقول هيرودوت كانت الأمعاء تستأصل أولاً.

ولكنها لم تكن الأحشاء الوحيدة التى يتم استئصالها، فتزال معها أيضاً الكبد والمعدة والرئتان. وكان القلب خلافاً لذلك لا يستخرج، أو إذا حدث أن استؤصل من القفص الصدرى عن طريق السهو عند استئصال الرئتين، كان يعاد إلى مكانه من الناحية المبدئية بعد أن يتم تحنيطه لوحده. فلنتذكر إذن الأهمية التى كان يعلقها المصريون على القلب، وتوخياً للسلامة، ومع احتمال اتلاف هذا العضو الجوهري، فإن جعراناً يدعى جعران القلب، دونت عليه تعويذة منقولة عن الفصل الثلاثين من كتاب الموتى، كان يحل محله. وفى وسعنا أن نقرأ على جعران القلب للملك «سوبك إم ساف» الثانى (الأسرة ١٧) مايلى:

«ياقلبي، ياقلب أمى، ياقلبي لمختلف سنوات عمرى، لاتشهد ضدى، لاتنحز ضدى فى «المحكمة»، لاتجعل الميزان يميل لغير صالحى أمام الوزان («تحتوت»)، فأنت قوتى التى فى بطنى، (فأنت) صانع الأشكال، الذى منح الحياة لأعضائى...

نقلا عن الترجمة الفرنسية (traduction. J.L.de Cenival)

وكقاعدة عامة، لم يكن المحنطون يتعرضون للكليتين، والطحال والمثانة ولا للأعضاء التناسلية للمرأة، التى كان يصعب الوصول إليها عن طريق البحث اليدوى الأعمى، والتى لم يتوصل المصريون على ما يبدو إلى معرفة أهميتها. وبعد استئصال الأحشاء، كانت تحنط بمفردها بالنطرون، ثم تضمّد بالشرائط. وبعد ذلك، كانت توضع لفات الأحشاء هذه فى أوانى كانوبية (التي توضع بدورها فى صندوق من الخشب أو الحجر). وفى بعض العصور، كانت توضع هذه «اللفات» على مقربة من الموميا، بل أحياناً داخل الجسد. وتعتبر حالة الملكة «حتب حرس»، والدة «خوفو»، أول مثال معروف لاستخراج الأحشاء مع الحفاظ على الأعضاء: كانت الأحشاء قد وضعت فى عيون صندوق من الألبستر كان لا يزال يحتويها عندما عثر عليه «ريزنر» Reisner، وكانت مغمورة فى السائل الحافظ لها، المكون من محلول من النطرون. وللأسف لاتسمح السمة الفريدة لهذا الكشف أن نبدي رأياً قاطعاً حول مدى انتشار أسلوب الحفظ هذا المعروف بالمرحلة السائلة.

وبعد استخراج الأحشاء، كان يمر الجسد بعملية غسل جديدة خارجية ثم داخلية، تليها عملية حشو مؤقتة لتجفيف البطن، عندئذ يغمر الجسد فى النطرون. إن كلمة حمام التى شاع استخدامها هى كلمة فى غير محلها: وعلى كل حال، يتحدث «هيروبولت» عن تمليح («تاريخون») وتغطية («كريبتن») الجسد، الأمر الذى يثبت بوضوح أن المقصود بهذه



المرحلة ليس إحدى عمليات الحفظ المعروفة بالمرحلة السائلة. إن تجارب «لوكاس» \* Lucas الذى نجح فى صناعة موميאות فئران، قد أكدت انه من الضرورى استخدام النطرون على هيئة بلورات لضمان فاعليته. فلنذكر أن النطرون وهو مزيج طبيعى من كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) وكربونات وسلفات الصوديوم، وكان يوجد فى المنطقة القائمة عند الحافة الغربية للدلتا، فى منتصف الطريق بين الاسكندرية والقاهرة، وفى المنطقة التى مازال يطلق عليها حالياً وادى النطرون. ومن المعروف من ناحية أخرى، إنه كانت توجد مصادر إمداد أخرى، لاسيما فى منطقة دارفور، فكانت تأتى منها القوافل محملة بالنطرون عن طريق درب الأربعين. ومن جانب آخر، فإن مدة «حمام النطرون» ليست بالقدر الذى يذكره «هيرودوت». ان السبعين يوماً التى يقال أنها كانت لازمة، انما تغطى بالأحرى المدة اللازمة لإعداد المومياء، وربما كان تضميدها باللفائف يستغرق معظم المدة. وهو مايؤكد على مايبود نص سفر التكوين\*\* وهو مايشير إلى مراسم دفن يعقوب:

«وأمر (يوسف) خدامه الأطباء أن يُحنطوا أباه، فحنط الأطباء إسرائيل. ودام ذلك أربعين يوماً، لانه كذلك تدوم أيام التحنيط. ويكى عليه المصريون سبعين يوماً» (التكوين: ٥٠: ٢-٣)\*\*\*

وتقدم لنا قصة «ستنى» الديموطيقية معلومة إضافية، فتشير إلى أن اليوم الخامس والثلاثين هو اليوم الذى يبدأ فيه تضميد المومياء باللفائف وان اليوم السبعين هو اليوم الذى توضع فيه المومياء فى التابوت.\*\*\*\*

كان فى الإمكان بلاشك أن تتفاوت المدة التى تستغرقها كل مرحلة من المراحل باختلاف نوع التحنيط، إن من المؤكد أن النوع الأول من التحنيط كان يتطلب مدة أطول من غيره. فبعد انتزاع الماء من الجسد وتصلبه تماماً، كان يعاد غسله آنذاك من جديد ثم دهنه بمواد زيتية وبلسمية إلى حد ما، الهدف منها إعادة قدر من الليونة إليه وإعطائه «رائحة

\* ألفرد لوكاس (١٨٦٧ - ١٩٤٥). كيميائى بريطانى. جاء إلى مصر عام ١٨٩٧ وبقي فيها حتى وفاته. عند اكتشاف مقبرة «توت عنخ آمون» عُيِّن مديراً للمعمل الكيماوى فى مصلحة الآثار. ولعب دوراً بارزاً فى المحافظة على هذه الآثار القيمة. (المترجم)

\*\* سفر التكوين هو أول أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس. ويعقوب الملقب إسرائيل هو والد سيدنا يوسف. (المترجم)

\*\*\* نقلا عن أحدث ترجمة للكتاب المقدس إلى اللغة العربية. دار المشرق - بيروت. ١٩٨٩. (المترجم)

\*\*\*\* راجع «نصوص مقدسة ونصوص دنيوية فى مصر القديمة. المجلد الثانى. الترجمة العربية ماهر جويجاتى نقلا عن الترجمة الفرنسية بقلم كلير لالويت. الناشر دار الفكر. ١٩٩٦ (ص ١٧٢). (المترجم)

زكية. ويبدو أن غسل الجسد فى هذه اللحظة، كان ينطوى على أهمية شعائرية فريدة، انه يعيد إلى الأذهان أسطورة شروق الشمس انطلاقاً من مياه النيل. وكانت الفتحة التى استخرجت من خلالها الأحشاء يعاد خياطتها وتغطى أحياناً بلوحة من الشمع أو من معدن نفيس (وهو دائماً الذهب بالنسبة للفراعنة). وكانت الفتحات الطبيعية (فتحتا الأنف والفم) تسدّ فى الغالب بقطائل من الكتان أو شرائح من الراتنج. وفى العصر المتأخر، كان فى الإمكان وضع صفائح من معدن نفيس فوق اللسان، وفوق الأعضاء التناسلية الخارجية للمرأة. أما عن الفراعنة أنفسهم، فقد كانوا يجهزون بما هو أثمن من ذلك، ومن بين أشياء أخرى كانت توضع أغلفة من ذهب حول اصابع اليدين والقدمين. كما كان فى الإمكان تحسين هيئة الجسد بأن توضع فى محجرى العين أشياء مختلفة (مثل البصل) لإعطائهما حجمهما الطبيعى، ووضع مساحيق التجميل على الوجه أو تلوينه، بل يصل الأمر إلى وضع شعر مستعار فوق الرأس. وفى بعض العصور كانت تربط الأظافر بأطراف الأصابع منعا من سقوطها.

وبعد ذلك كانت تبدأ عملية لف الجسد باللفائف. ولاريب أن هذه العملية كانت ذات طابع شعائرى، ولكن علينا ألا يغيب أبداً عن بالنا، أن هذه العملية كانت تعود بعظيم الفائدة على الجسد من خلال مايوجده من عزل ولو نسبى عن الوسط المحيط. وحسبما ورد فى أسفار شعائر التحنيط التى حفظتها لنا برديتان من العصر الرومانى (وهما نسختان منقولتان عن نصوص أقدم) وكانوا يبدؤون بتغطية الجسد مباشرة بكفن، ثم يبدأ العمل بأول تضميد لأصابع اليدين والقدمين بلفائف من الكتان الناعم. وبعد ذلك، يحل الدور على الرأس، فيدثر بعناية فائقة بدءاً من الكتف الأيمن. ثم يضمّد الصدر ومعه الأطراف العليا باللفائف التى كانت تحيط بالكفن. وتنتهى العملية بلف الأطراف السفلية باللفائف. هنا أيضاً يلعب ثراء المتوفى بالطبع دوره: فكمية ونوعية الأقمشة المستخدمة فى هذه العملية كانت تختلف من حالة إلى أخرى. ومع ذلك، فإذا كانت عملية تضميد الجثة باللفائف قد بلغت مستوى عالياً من الإتقان، فى العصر الرومانى، فإن الكثير من المؤلفين يؤكدون ان الموميאות التى كانت تضمدها هذه اللفائف كانت سيئة الصنعة إلى حدّ كبير. إننا لانشاركهم الرأى، فخبرتنا المستقاة من جبانة «دوش» قد برهنت لنا على عدم وجود فارق ملحوظ بين جودة اللفائف وجودة التحنيط.

وخلال عمليات لف الجثمان باللفائف، كانت تراق الراتنج والأدهان فوق الأكفان لضمان التصاقها. وأثناء كل عملية من العمليات كان كاهن يتلو صلوات أو ابتهالات محددة:

«من أجلك أتى الزيت! إنه يمنح فمك الحياة، والإبصار لعينك... إنه يعطيك أنذك لتسمع ماتحبه... انه يعطيك أنفك لاستنشاق عطور العيد... انه يعطيك فمك بعد تزويده ببصيرته مثل فم «تحوت» الذى يبصر ماهو عدل!»

نقلا عن الترجمة الفرنسية (Rituel de l'Embaumement, Ch, vii, trad. J. C. Goyon: Parole à prononcer lors de l'enveloppement de la tête).

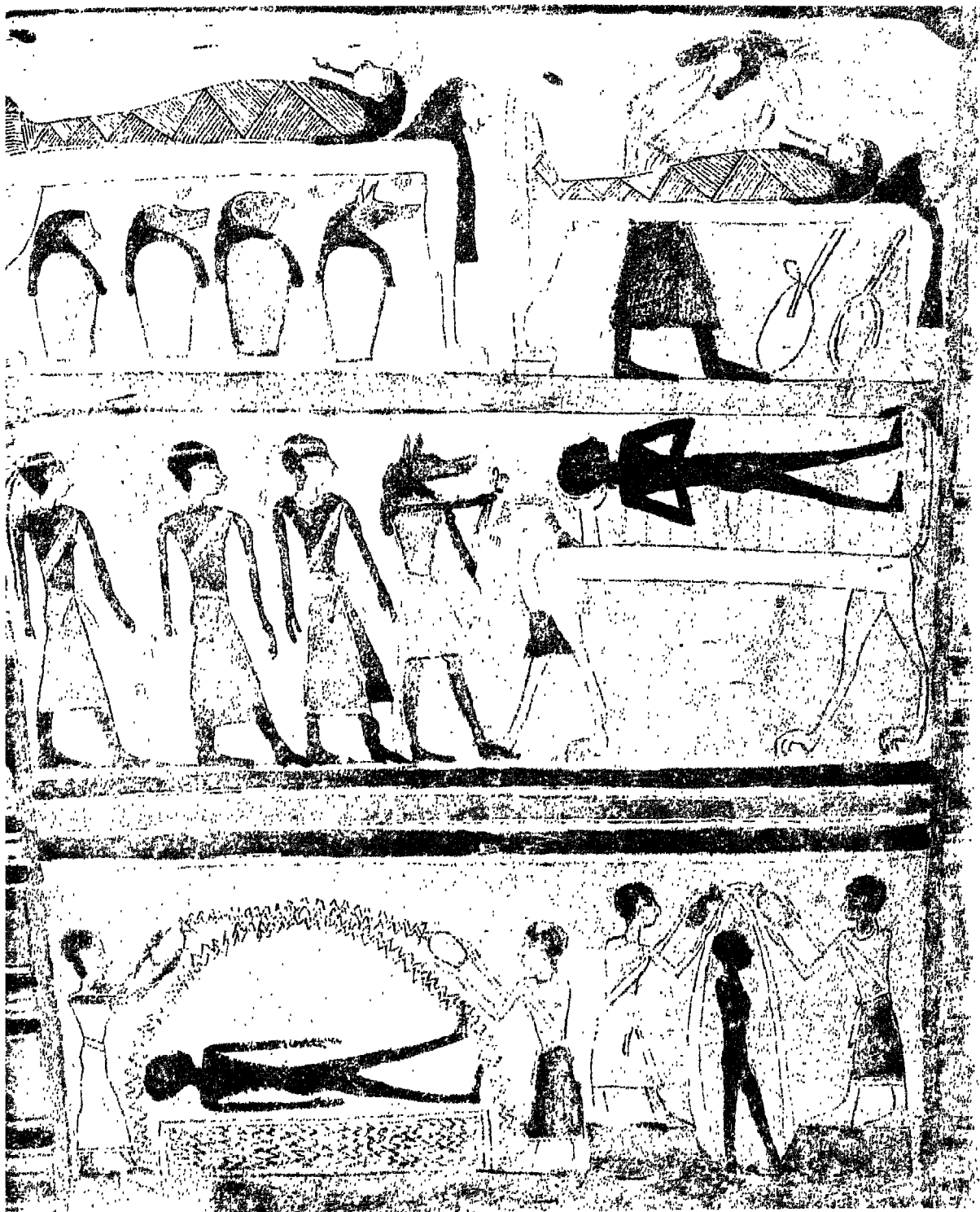
كان المصريون يعلقون أهمية قصوى على المحافظة على الرأس سالماً، وهو أمر له ما يبرره... وبالفعل، تظهر دراسة المومياوات فى الجبانات ان «كسر» الرقبة، الذى يؤدى إلى انفصال الرأس عن الجسد، كان احتمالاً وارداً. وقد يحدث أحياناً أثناء عملية التحنيط، الأمر الذى تشهد عليه المومياوات التى عثر عليها وبها وسائل متنوعة، كان الهدف منها تثبيت الرأس فى مكانها فوق الجذع.

فلنسترجع إلى الأذهان الرؤوس البديلة، التى امتلأت بها مقابر الدولة القديمة. إن غيابها فى العصر الذى شهد تقدماً ملحوظاً فى جودة التحنيط لهو خير دليل على أنها كانت تعد خصيصاً لتدارك نواقص التقنية.

إن زخارف مقبرة «ثوى»، فى طيبة، والتى ترجع إلى الأسرة التاسعة عشرة، تقدم لنا وصفاً جيداً لمختلف عمليات إعداد الموميا، ويصور لنا مشهد مرحلة من مراحل لف الجثمان باللفائف، ويصور مشهد آخر المحنطين وهم يقومون بطلاء الموميا بمادة موجودة فيما يشبه القدر. وفى مشهد ثالث، يظهر الحرفيون وقد انكبوا على صناعة تابوت.

إن زخارف تابوت «جر - باستت - يوف - عنخ» والمحفوظ حالياً فى «هيلد شاييم» والذى عثر عليه فى الحبية، تصور معظم عمليات التحنيط تقريباً. إنه عملياً المثال الوحيد المعروف الذى يحمل مثل هذه الزخارف. ومن المتفق عليه الآن أنه يعود إلى العصر البطلمى (وإن ساد الظن طويلاً إنه يعود إلى الأسرة السادسة والعشرين). وزخارف الغطاء موزعة على ستة صفوف تقرأ ابتداء من القدمين وحتى الرأس. شكل (٢٧)

فى الصف الأدنى، يظهر المتوفى على هيئة كائن مجرد من شحمه ولحمه، أسود اللون، ويقوم شخصان بغسله فى حوض (الرسم التوضيحي الأيسر) ثم يشاهد واقفاً فى حفرة، ويُمسح بسائلين (لون أوعية الكهنة مختلفة). وهو ما يعزز العملية التى سبق أن وصفناها.



شکل (۲۷) تابوت مجدباستت یوسف عنخه

وفى الصف الثانى، يرقد المتوفى فوق سرير جنازى على هيئة أسد ويتقدم نحوه أربعة كهنة يرتدى أولهم قناع «أنوبيس»، ويمسك بيد آله على هيئة خطاف، وربما كانت ملقطاً، كما يمسك لفائف بيده الأخرى. وقد توضح هذه الجزئية أن الكاهن يتأهب للقيام بعملية لف الجثمان. فالجسد مسجى على الظهر والرأس موضوع فوق مسند رأس. ويصور الجزء العلوى من السرير شكلاً زخرفياً على هيئة خطوط متعرجة، تبدو لنا وكأنها تمثل رسماً تخطيطياً للملة مصنوعة من الألياف المجدولة (وهى صورة شائعة جداً بين الأسرة الجنازية التى عثر عليها فى المقابر). وهناك تفسيرات أخرى تشبّهه بالنباتات التى تشير إلى أسرة العشب الأخضر التى تمثل أوزيريس الإنبات، وحيث أن قوائم هذا السرير تظهر مزدوجة وأنا نشاهد الملة، يبدو لنا الأمر كما لو كان محاولة تكوين صورة وفقاً لقواعد المنظور.

أما الصف الثالث، فإنه يوضح مرحلتى تضييد الجثمان باللفائف:

– فعلى اليمين نشاهد الكاهن الذى يرتدى قناع «أنوبيس»، وهو ينحنى على الموميا، بعد الإنتهاء تقريباً من تضييدها باللفائف وتسجيتها فوق السرير الذى على هيئة أسد، ونراه فى هذه المرة كمسقط رأسى. وتحت السرير، كيسان أبيضان مربوطان تبرز منهما عصاً: وربما كان الأمر يتعلق بمخلفات التحنيط التى نعرف انها كانت تدفن على مقربة من المقبرة. وقد عثر على مثل هذه «البقايا» على مقربة من العديد من المقابر الطيبية، ويظل مثال «توت عنخ آمون» من أشهر الأمثلة على ذلك.

– وعلى اليسار، نشاهد الموميا، بعد الفراغ من إعدادها. إنها ترقد على السرير الجنازى، ونشاهد أسفله الأوانى الكانوبية الأربع، التى نحتت أعطيها على صورة أبناء «حورس».

وصور فى الصف الرابع، على اليسار كاهنان، أحدهما هو «الكاهن المرتل» الذى يمسك بلوحة صغيرة تحمل بعض المدونات، والآخر يمكن التعرف عليه بجلد الفهد الذى يرتديه. أما على اليمين فيقف أيضاً كاهنان يضع أحدهما على رأسه قناع أنوبيس، وتصحبه ثلاث نساء. وفى الوسط وفى المسافة الفاصلة بين المجموعتين وضعت القرايين الشعائرية.

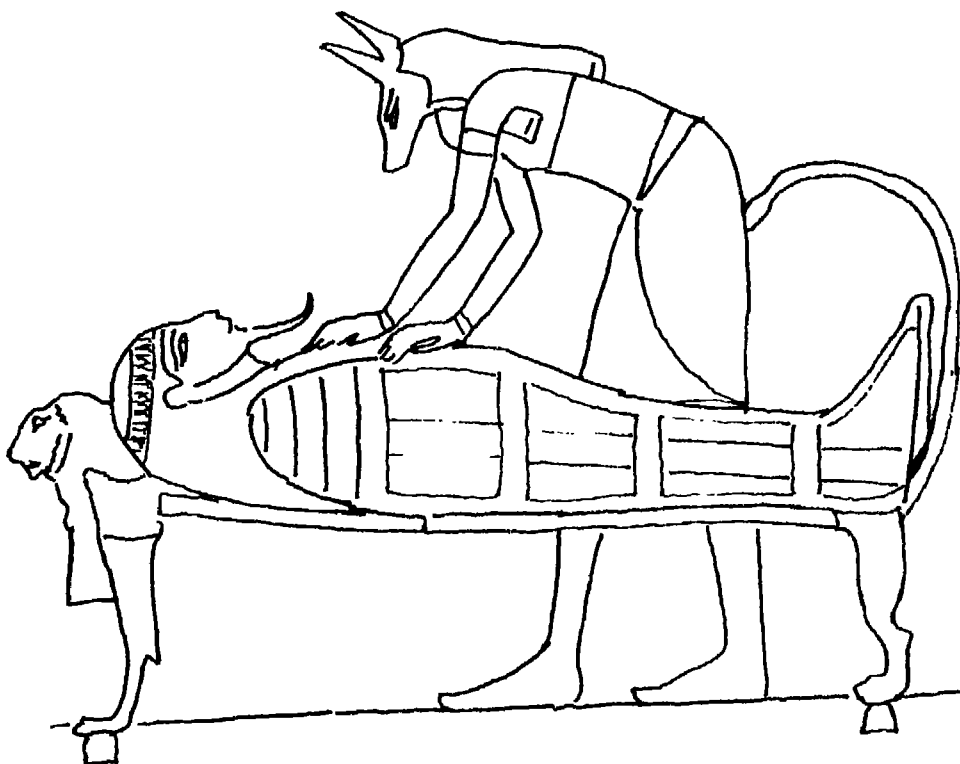
ويصور لنا الصف الخامس القارب الجنازى، يتقدمه ثلاثة كهنة رافعين ألوية وعلى متن هذا القارب سوف يعبر المتوفى نهر النيل ليصل إلى الجبانة.

ونشاهد أخيراً فى الصف الأعلى أبناء «حورس» الأربعة وهم يحيطون بعمود «جد»، رمز بعث «أوزيريس» وقيامته، فى حين تحيط «ايزيس» و«نفتيس» المنحنتان بالمشهد.

ومن هنا ندرك مدى أهمية هذا التابوت الذى يبين بالتفصيل وبكل دقة المراحل المختلفة لعملية التحنيط ويشير إلى الكثير من جوانب مراسم الجنازة. ولنتذكر أيضاً أن متحف «هيلد شايم» نفسه هو الذى يحتفظ بقناع لأنوبيس من الطين المحروق الملون، وهو قناع نادر جداً، وكان مخصصاً على مايرجح ليرتديه أحد الكهنة، سواء أثناء مراسم الجنازة، أو خلال أحد المواكب.

## مراسم الجنازة

بعد الإنتهاء من إعداد المومياة التى تبدو بوجه عام كرزمة مستطيلة، كانت توضع داخل أغلفتها المصنوعة من الكارتوناچ أو من الخشب، ثم تعاد إلى الأسرة. عندئذ كان فى الامكان البدء فى شعائر مراسم الجنازة. وكان يقوم بخدمة هذه الشعائر من الناحية المبدئية. كهنة جنائزيون، ولكن أسرة المتوفى والأبناء فى المقام الأول كانوا يضطلعون فيها بدور بارز، وكانوا على كل حال، يتحملون تكاليف مراسم الجنازة والقرايين. كانت المرحلة الأولى من هذه المراسم تتكون من الموكب الذى ينقل المتوفى إلى المقبرة. وبالنسبة للميسورين، قد يضم هذا الموكب صفوفاً من الكهنة والنائحات المحترفات وأفراد العائلة والأصدقاء والخدم. وكان يسير على رأسهم الكهنة ويحمل أحدهم مواقد لحرق البخور. إن الأبقار وأحياناً الرجال كانوا يقومون بسحب الزحافة التى وضع عليها قارب يضم «هيكلاً» يحمى المومياة. انه مجرد قارب «للإستعراض»، يشبه قوارب المواكب الإحتفالية للآلهة وليس القارب الذى كان الموكب الإحتفالى يستخدمه عند عبور نهر النيل. ويذكرنا قارب الإستعراض برحلة الحج التى من المفترض أن يقوم بها الموتى عبر نهر النيل إلى الأماكن المقدسة فى أبيدوس (العراية المدفونة، حالياً، م.) وبوتو (تل الفراعين، حالياً، م.)، كما وردت فى الأسطورة الفرعونية. ومن جانب آخر، فان عبور المتوفى نهر النيل، قد جاء نتيجة لإقامة الجبانات فى البر لغربى فى حين كان يفترض أن يقيم الأحياء فى البر الشرقى... وتبدو هذه الصورة وكأنها قد استقرت بوضوح فى الدولة الحديثة عندما أضحت طيبة المركز الرئيسى للحياه الدينية، نظراً إلى أن طوبوغرافيا هذه المدينة تفى تماماً بهذا



شكل (٢٨)

الموكب الجنائزى . كتاب الموتى  
العصر البطلمى. متحف اللوفر



شكل (٢٦)

انوفيس المخط. التوبة الحديثة. مقبرة «سن نجم».

التقسيم. ومن نافلة القول، أنه في عدة أماكن أخرى في مصر، كانت تقام الجبانات شأنها شأن أماكن السكنى في نفس البر، وهو الأمر الذي يجعل عبور النيل غير ضروري، ولكن ظلت صورة الرحلة على متن القارب ماثلة، استناداً إلى أسطورة الحج الأوزيرية. وتوضح بردية من العصر البطلمي أنه في الإمكان أن تحل مركبة ذات عجلات محل الزحافة. بل إن نفس الصورة نشاهدها بالفعل في مناظر منقوشة في الهيكل الجنائزى لـ «بتوزيريس» في تونا الجبل. كما نصادفها بين صور مقبرة «بتوياسستس» في المزوقة، التي ترجع إلى القرن الأول الميلادي. وكان يوضع الصندوق الذي يحتوى على الأواني الكانوبية على زحافة أخرى تسير خلف الأولى. وفي آخر الموكب يسير الخدم الذين يحملون القرابين بالإضافة إلى المتاع الجنائزى الذي أعد ليوضع في المقبرة: إنها من ناحية، بعض أشياء الحياة اليومية التي كان يستخدمها المتوفى نذكر منها الأسرة والمقاعد ومساند الرأس وصناديق متنوعة تضم الملابس ومستلزمات الزينة. ومن ناحية أخرى المتاع الجنائزى بكل معنى الكلمة، ونذكر منه صناديق الأوشبتي وتمثيل صغيرة وكتاب الموتى.. وبالطبع فان كمية المتاع الذي تضمه المقبرة يختلف إلى حد كبير باختلاف ثراء صاحبها. شكل (٢٨)

وبعد أن يعبر الموكب نهر النيل كان يتجه إلى المقبرة. وكانت المراسم الأولى تتكون من رقصة شعائرية يؤديها راقصون محترفون وتلاوة نصوص يقرأها الكاهن المرتل. وكانت الموميا بعد أن تسجى في تابوتها توضع واقفة أمام باب المقبرة وعندئذ تقام مراسم «فتح الفم» وهي على قدر كبير من الأهمية. وهذه المراسم، الموغلة في القدم، كانت تقام قبل الدولة الحديثة، على تمثال عوضاً عن المتوفى وفي مكانه، واعتباراً من الأسرة الثامنة عشرة أصبحت الموميا ذاتها هي التي تتمتع بهذه المراسم. ويصور هذا المشهد في أحيان كثيرة في الصور التوضيحية لكتاب الموتى، فيقوم كاهن يرتدى على رأسه قناعاً لأنوبيس بالأبقاء على التابوت واقفاً. ويقوم كاهنان آخران، الكاهن «سم» وقد ارتدى جلد فهد والكاهن المدعو «الابن الذي يحبه» (الذي من الواضح أنه يضطلع بدور الابن بكل معنى الكلمة وهو «حورس» بن «أوزيريس») يقومان بوضع أدوات مختلفة أمام فم الموميا، تضم ما يشبه القدم والإزميل، ويفترض أنهما يعيدان بهما إلى المتوفى الأنفاس والقدرة على الكلام وأيضاً ملكة الحواس. واعتباراً من هذه اللحظة، كان يفترض أن ينضم العنصر الروحاني للمتوفى إلى جثمانه. وبعد ذلك، يتم إنزال الموميا إلى حجرة الدفن لتتعم براحة «ملايين السنين». ومن الآن فصاعداً، سيمكث الجسد في المقبرة، في حين سيكون في وسع العنصر الروحاني أو الـ «با» أن يروح ويغدو على هواه. ويصور كتاب الموتى لصاحبه «نب





شكل (٢٩)  
شميرة فتح القم



شكل (٣٠)  
زوجة المتوفى تنتحب.  
مقبرة «نب آمون» و «إيوكي» الدولة الحديثة

قد «الـبا» وهو يخلق فى البئر التى تفضى إلى حجرة الدفن. وبالمثل، يصور رسم من مقبرة «إرى نفر»، بدير المدينة، الجسد المحنط داخل المقبرة فى حين يرفرف الـ «با» فى الخارج. إن هذا الاعتقاد فى قدرة الـ «با» على مغادرة المقبرة، يفسر الخوف الواسع الإنتشار بين الناس من أن يروا الموتى وقد عادوا لمحاسبة الأحياء على الأضرار التى من المحتمل أن يكون هؤلاء الأحياء قد ارتكبوها فى حقهم.

ومن الناحية المبدئية كان يقع على عاتق أقارب المتوفى وعلى رأسهم الإبن البكر، أن يمدوه بالطعام الكفيل بتأمين «بقائه على قيد الحياة». فكانت توضع قرابين غذائية عند مدخل المقبرة: وهى عبارة عن أطعمة تقليدية من خبز وفطائر وخضروات وفواكه وكؤوس جعة، وطالما صورت فى المقابر. وقد يخطر على بالنا أن موظفى الجبانة والكهنة الذين أدوا الخدمة الشعائرية كانوا «يستردون» هذه القرابين.

ومن جانب آخر، يبدو أن أفراد الأسرة كانوا يحتفلون بتناول وجبة جنائزية على مقربة من المقبرة، إن بقايا وجبة من هذا القبيل ومعها بقايا التحنيط، هى التى عثر عليها «ديفيز» Davies عام ١٩٠٦، فى خبيئة تقع على مقربة من مقبرة «توت عنخ آمون» التى كانت لاتزال مجهولة فى هذا التاريخ وهكذا فقد تم العثور على أوعية كانت تحتوى على عظام خراف وطيور والعديد من جرار نبيذ وماء ومعها كؤوس للشرب بل وعثر أيضاً على عقود من الزهور يبدو أن المشتركين فى الوليمة قد ارتدوها.

وكان تغيير القرابين التى يمكن أن توصف بالقرابين «الطازجة» يتم فى مواعيد ثابتة وربما فى الذكرى السنوية لمراسم الدفن وخلال عيد الموتى كالأذى كان يطلق عليه فى منطقة طيبة، «العيد الجميل للوادي». وكانت تحبس الأوقاف لصالح الفراعنة وبعض علىه القوم من أجل استمرار الشعائر الجنائزية. إن شعيرة القرابين التى تؤديها العائلة، من الناحية النظرية، إنما يباشرها كهنة متخصصون. وقد أطلق عليهم فى العصر اليونانى اسم «خواخيتاى»، وتشير هذه العبارة إلى الطقس الذى يقوم على صب الماء الطهور. ويبدو فى حقيقة الأمر أن القرابين السائلة كانت تلعب دوراً بارزاً فى الشعائر الجنائزية.

كما كانت توضع فى المقبرة ذاتها قرابين غذائية أخرى، تحت التصرف المباشر للمتوفى. وفى مقبرة فى سقارة يرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية، عثر على وجبة جنائزية كاملة تتكون من أرغفة خبز وأسماك وطيور ولحم بقرى وفواكه وجبن وفطائر. وظل معمولاً بهذا التقليد حتى العصور المتأخرة. وقد عثر على أمثلة عديدة لها فى مقابر جبانة دوش

التي تعود إلى العصر الرومانى وإن كانت أكثر تواضعاً بالطبع. وفى الدولة الحديثة، كانت هذه القرايين تحنط فى بعض الحالات بعناية فائقة ثم توضع فيما يشبه صناديق خشبية صنعت صناعة خشنة على هيئة محتوياتها. وقد عثر على مجموعة من هذه الأطعمة المحنطة فى مقبرة «يوبا» و «ثويا»، ودعك من تلك التى كانت موجودة فى مقبرة «توت عنخ آمون»، إلى جانب غيرها من المقابر الطيبية التى ترجع إلى العصر ذاته. وإلى جانب هذه القرايين «الحقيقية»، فقد رسمت أو نقشت القرايين على سطوح جدران الحجرات الجنائزية وذلك منذ الدولة القديمة. فلنذكر أيضاً صورة المتوفى النمطية الجالس فى عظمة وجلال، أمام مائدة القرايين المحملة بما لذ وطاب. وكان مقدراً لهذه الصور أن تعالج احتمال توقف القرايين الطبيعية. وهكذا لن يحرم المتوفى أبداً من الطعام، إذ من الواضح أن المصريين قد لاحظوا أن خدمة القرايين كانت تتوقف بعد فترة ما، حتى بالنسبة للفرعون... كما فى وسعنا أن نفسر مشاهد تربية الحيوان وذبحه والحصاد، التى طالما صورت فى مصاطب الدولة القديمة، وأيضاً «النماذج» التى تجسد نفس المشاهد فى مقابر الدولة الوسطى، وفى وسعنا أن نفسر كل ذلك، من زاوية توفير الطعام الضرورى لاستمرار الحياة بعد الوفاة.

وبالطبع فإننا نلاحظ بعض التغير فى مراسم الشعائر حسب ثراء المتوفى، ولكن أيضاً حسب العصر محل دراستنا.

كانت الغاية من القرايين الغذائية هى ضمان حياة المتوفى. الأمر الذى لم يكن كافياً لتأمين استمرار الحياة بعد الوفاة، إذ كان مقدراً للمتوفى أن يقوم برحلة فى العالم الآخر، تكتنفها الأحاييل والمخاطر الناجمة عن وجود القوى الشريرة. ولتجنب فخاخ هذه الرحلة، وليتمكن من تأكيد براعته أمام «أوزيريس»، كان لابد أن توضع تحت تصرفه تعويذات سحرية وهى التى دونت على سطوح التوابيت، فى زمن الدولة الوسطى، وفى كتاب الموتى اعتباراً من الدولة الحديثة. ومنذ هذه الفترة، وضع المصريون على مقربة من الموميا، سواء فى التابوت، أو بجواره، وفى الغالب داخل صندوق صغير يعلوه تمثال صغير لـ «أوزيريس»، وصنعوا قرطاس البردى الذى يضم هذا السفر. وسيظل هذا التقليد سارياً ومعمولاً به حتى العصر الرومانى.

إن وجود الـ «أوشبتي» التى ظهرت أول مظهرت فى الدولة الوسطى يشكل أيضاً عنصر حماية. إنها عبارة عن تماثيل صغيرة من الحجر أو من خلطة خزفية أو من الخشب، وهى بلا مدونات أو مدون عليها اسم صاحبها، وتحمل فى الغالب نص الفصل السادس من

كتاب الموتى الذى يطلق عليه أيضا اسم المجيبين، كان عدد الـ «أوشبتي» محدوداً فى بادئ الأمر، ثم أخذ يتزايد إلى حد أنه بلغ فى بعض الحالات واحداً لكل يوم من أيام السنة. عندئذ، كانوا يقسمون كل عشرة على حدة، يشرف عليهم رؤساء عمال يسهرون على حسن سير أعمالهم. ومن المفروض أن تقوم الـ «أوشبتي» بالعمل بدلاً من المتوفى، وتعتبر المجموعة الكاملة لـ «أوشبتي» توت عنخ آمون - مثلاً - مكتملاً لهذا النوع من التماثيل الصغيرة.

كما فى الإمكان أن توضع تماثيل صغيرة («أنوبيس» وعمود «جد»...) فى المقبرة، لاسيما فى كوات صغيرة محفورة فى السطوح الأربعة للحجرة الجنائزية. وهنا أيضاً، تقدم لنا مقبرة «توت عنخ آمون» مثلاً طيباً لهذا التقليد.

وبدءاً من الدولة الوسطى، بدأنا نعث فى المقابر على تماثيل نساء عاريات، يصحبن أحياناً طفلاً، وهى مصنوعة من الخشب أو الحجر أو من القاشانى أحياناً. إن ملامحها الجنسية الواضحة جداً، قد دفع البعض إلى تفسير مفاده أنها «محظيات» المتوفى. بيد أن وجودها فى مقابر النساء يناهض هذا التفسير. وجدير بالملاحظة، أن هذه التماثيل الصغيرة بعد أن اختفت تقريباً خلال عصر الانتقال الثالث، سوف تعاود الظهور فى هيئة مختلفة بعض الشيء فى العصرين البطلمى والرومانى. وفى هذه الفترة أيضاً، انتشرت عادة وضع تماثيل صغيرة صبت فى قوالب، وهى من الطين المحروق، وتمثل آلهة مختلفة («إيزيس» و«حورس الابن»، الخ...) بل وصوراً دنيوية، وكان أسلوبها يونانياً أكثر منه مصرياً، فى أغلب الأحوال.

وبالطبع، يصل الأثاث الجنائزى، فى حالة الفراعنة، حجماً على قدر كبير من الأهمية نظراً للوظيفة المزدوجة - الملكية والكهنوتية - التى يشغلونها. ولكن كثيراً ما نجد فى مقابر الأفراد العاديين كميات كبيرة ومتنوعة إلى حد ما من الأثاث ترتبط فى الغالب بالحياة اليومية. فلنسترجع فى هذا الصدد محتويات مقبرة «خع» وزوجته «مريت» (فى متحف «تورينو») التى تعتبر نموذجاً طيباً إلى حد كبير. كذلك نذكر مقبرة السيدة «مچا» وهذه المقبرة موجودة هى والمقبرة السابقة فى دير المدينة. وسنظل حتى العصر الرومانى نعث فى المقابر على أثاث على قدر من الأهمية، وهو يعبر فى الغالب عن الأنشطة اليومية والمعتقدات الدينية للمتوفى، سواء بسواء.

## الفصل الثامن

### مومياءات الحيوانات

«لقد منحت الجائع خبزاً، والظمآن ماءً والعريان ثياباً. لقد سهرت مع طيور أبي منجل والصقور والكلاب الإلهية، ودفنتها على حسب ما تقتضيه الشعائر ودهنتها بالزيت ودفنتها بالأقمشة.»

نقلًا عن الترجمة الفرنسية: (Inscription funéraire citée par J. Yoyotte, Dictionnaire de La Civilisation égyptienne, p 15c).

لا يعرف الفكر المصرى اختلافاً بين طبيعة كل من البشر والحيوان والآلهة: فحسبما تقوله قصص الخلق، فالإله خالق العالم قد صنع كل الأنواع من «أخلط جسده». سوف ندرك إذن بسهولة كيف أن الآلهة كثيراً ما كانت تتخذ أشكالاً حيوانية بل أشكال كائنات مهجنة، نصفها آدمى ونصفها الآخر حيوانى، بل قد تكون كائنات خرافية حيوانية فقط، مثل «عاميت»، الملتهمة التى تجمع بين التمساح وفرس النهر والأسد. ومنذ الأسر الأولى، صار للآلهة أشكال آدمية، ولكن من غير المستبعد أن أقدم العبادات كانت للحيوانات. إن أبرز أثر ملموس خلفته هذه العبادة، ربما كان فى أسماء الأقاليم التى ظلت ثابتة حتى نهاية الحضارة المصرية: الثور الأسود (هليوبوليس) والكلب الأسود (كينو بوليس) والوعل (المنيا) والأرنب (هرموبوليس) والكلب السلوقي (أسيوط) ... ومع ذلك لا يوجد دليل قاطع، حتى الألف الأول قبل الميلاد، يؤكد وجود عبادة الحيوان، إذا استثنينا العجل «أپيس». وعلى عكس ذلك، يشهد العصر المتأخر انتشاراً واسعاً لهذه العبادة. لقد كرست المعابد الرئيسية التى شيدت خلال هذا العصر لآلهة ترتبط فى الغالب بهيئة حيوانية مثل معبد إدفو للـصقر «حورس»، ومعبد دندرة للبقرة «حتحور» أو أيضاً معبد إسنا للـكباش «خنوم». ومما لاشك فيه أنه قبل هذا العصر، كان ثور حى يمثّل «أپيس» («حپ» بالمصرية القديمة - م.) فى منف (حيث تأكد وجوده منذ الدولة الحديثة) وثور آخر هو الإله «منيفيس» («مور»

بالمصرية القديمة م.) فى هليوپوليس. ولكن الجديد فى الأمر، هو تربية الحيوانات المقدسة فى حرم المعابد، التى يقع الإختيار على واحد منها ليصبح بمثابة «الصورة الحية» للإله. وهكذا يجسد صقر حى الإله «حورس» فى إدفو، والكبش يجسد إله مدينة «مندس» بالإضافة بلا شك إلى الإله «خنوم» فى إلفنتين، والتمساح يجسد الإله «سويك» فى كوم أمبو أو فى معابد الفيوم. ومع ذلك، يبدو أن صورة الإله كانت فى هذه المنطقة الأخيرة عبارة عن مومياء تمساح، فى حين يمثل فى أماكن أخرى تمساح حى كما يشير إلى ذلك وجود حوض للتماسيح فى كوم أمبو.

كان من الطبيعى بالفعل أن تحنط هذه الحيوانات التى كانت تعتبر صورة للإله. ولكن كانت حيوانات أخرى تتمتع أيضاً بمثل هذا التحنيط: كان البعض منها له صفة مقدسة، كالصقور وطيور أبى منجل والقطط والقردة التى عثر منها على مئات الآلاف من المومياوات. ويبدو أن القسم الأكبر من هذه الحيوانات كانت تُربى فى حرم المعابد، قبل أن تقتل وتحنط لتباع للحجاج الذين يقدمونها نذراً للإله. ثم كانت ترص هذه المومياوات فى سراديب شاسعة (كاتاكومب) كسراديب طيور أبى منجل والنسانيس فى تونا الجبل، وسراديب القطط فى «بوبا ستيون»\* سقارة أو سراديب طيور أبى منجل والصقور والنسانيس والكلاب (أو ابن آوى) فى سقارة الشمالية. ويقدم لنا «ديودور الصقلى» معلومات شيقة حول تربية الحيوانات المقدسة ومراسم دفنها:

«كان يخصص لكل نوع من أنواع الحيوانات المقدسة أرض تدر دخلاً كافياً لرعايتها وامدادها بالطعام... وإذا مات أحد هذه الحيوانات، يدثرونه فى نسيج من الكتان الناعم، ويضربون صدورهم وهم ينوحون وينقلونه إلى حيث يتم تحنيطه. وبعد أن يعالج براتنج شجر الأرز وبالمواد ذات الرائحة الطيبة، التى من شأنها ضمان المحافظة على الجسد حفاظاً مديداً، يدفن فى صناديق مقدسة.»

والكلاب، التى عثر لها على جبانات تعود إلى عصر ما قبل الأسرات، تعد من الحيوانات المقدسة المحنطة. وكان الكلب يعبد على نحو خاص فى «كينوپوليس» (القيس، حالياً - م.) وفى «ليكوپوليس» (أسيوط). ولا يمكن التحقق دائماً من الحيوان. إنه يشبه الكلب أحياناً، أو ابن آوى، بل يبدو فى بعض الأحوال وكأنه ذئب. كان إلهان، وهما «أنوبيس» و«واب واوات»، يجمعهما وجه شبه كبير، فيصوران على هيئة حيوان من فصيلة الكلاب، وكان كلاهما يسهر على حماية الموتى، وفى أبيدوس عثر فى جبانة ضخمة من

\* بوباستيون Bubasteion هو الإسم اليونانى لمعبد القطه «باستت» وملحقاته. (المترجم)

العصر الرومانى، على آلاف من مومياءات الكلاب وقد أعدت، على كل حال، إعداداً رديئاً جداً.

إن القردة، وهى صورة الإله «تحتوت»، مثل أبى منجل، قد حنطت ودفنت فى جبانات تقع على مقربة من معبد للإله «تحتوت». ومثال ذلك، جبانة تونا الجبل وجبانة سقارة الشمالية، وعلى ذلك، فإن مقبرة وادى القروء، على مقربة من وادى الملوك، فى منطقة طيبة لاتبدو أنها قد ارتبطت بوجود معبد.

إن تحنيط الحيوانات الأخرى التى تعرف بكل تأكيد سمتها المقدسة، هو أمر أقل انتشاراً، ونذكر منها على سبيل المثال الثعابين والنموس وبعض الحشرات وكثير من الطيور والغزلان والفئران والعقارب...

لقد حنطت بعض أنواع الأسماك، ولاسيما قشر البياض («لاتس» Latès) والذى أعطى اسمه لمدينة «لاتوپوليس» (إسنا). وعلى بعد كيلومترات غربى المدينة تم الكشف عن جبانة ضخمة لأسماك قشر البياض، تضم نماذج لاحتصان لها من جميع الأحجام وفى حالة جيدة من الحفظ فى أغلب الأحوال. وتم العثور وسط مومياءات القطط فى «بوبا ستين» سقارة، على مومياء لسمكة صغيرة، موضوعة فى «تابوتها» المصنوع من الخشب ويبلغ طوله عشرة سنتيمترات، إن مغذى وجودها فى هذا المكان ليثير تساؤلاً يحتاج إلى تفسير... وقد عثر فى مقبرة بجبانة نوش على نموذج لضفدع محنط، وهو مايعتبر من الأمور النادرة جداً. وكانت قد وضعت بين فخذى انسان بالغ محنط، تم خصيه. وتعود هذه العادة على مايعتقد إلى الأسطورة الأوزيرية، التى تقول إحدى رواياتها ان عضو تذكير الإله، قد التهمته سمكة القنوم بعد أن ألقى به فى النيل. والضفدع التى تصور الإلهة «حقت»، موجودة منذ الدولة القديمة، ولاسيما فى «ماميزى» العصرين البطلمى والرومانى، وتظهر فى مشاهد الولادة. وانتهى بها الأمر إلى ان صارت رمزاً لإحياء المتوفى وبعثه.

وفى سقارة الشمالية عثر على عدد كبير من مومياءات الزبابة\* وكانت مختلطة بمومياءات صقور، وتضم فى الغالب عدداً من النماذج ملفوفة فى لفة واحدة، وقد وضعت أحياناً فى توابيت صغيرة من الحجر الجيرى متوازية السطوح.

وأخيراً، فإن هناك فئة أخيرة من الحيوانات المحنطة هى فئة الحيوانات التى تلازم صاحبها: نذكر منها قرد الأميرة «ماعت. كا. رع» أو قطة الأمير تحوتمس التى عثر على تابوتها الحجرى. وفى هذه الحالات الخاصة، وهى نادرة كما هو واضح، يهدف التحنيط

« الزبابة: جنس حيوان من أكل الحشرات. وهى قد الفأرة. المعجم الوسيط. (المترجم)

فى الغالب إلى ضمان الخلود لحيوان كان يحبه صاحبه حباً خاصاً. ان مثال قرد «ماعت كا رع» يحتاج إلى تفسير. وفى واقع الأمر، فقد ساد الظن لزمن طويل ان هذه المومياء الصغيرة التى ترقد بجوار جسد الأميرة داخل تابوتها كانت مومياء مولود حديث. ان التصوير بالأشعة هو الذى صحح هذا الخطأ إذ أثبت ان المومياء هى مومياء قرد افريقى ضخمة....

وفى المقابل، يبدو أن بعض الأنواع النادرة لم تحنط أبداً. وربما كانت وراء ذلك أسباب دينية فيما يخص الحيوانات التى كان ينسب إليها سمات شريرة، لارتباطها بالإله «ست»، ونذكر منها الحمار وفرس النهر والخنزير. كما فى وسعنا أن نلاحظ عادة دفن الحمير والحياد فى النوبة.

## ١- الحالات الخاصة للثيران المقدسة

تشكل العجل «أپيس» فئة، لها خصوصيتها المتميزة، ونحن نعلم عنها الكثير. وخلافاً للحيوانات الأخرى التى ترتبط بقوة إلهية، فإن «أپيس» واحد فى تفرد. فيخضع إختياره إذن لمعايير فى منتهى الدقة. فأن يخلف الـ «أپيس» عجل من صلبه هو استثناء نادر الحدوث. فعند وفاة الـ «أپيس»، يشرع الكهنة فى البحث عن بديل له تتوفر فيه المعايير الثابتة. واستناداً إلى ما ذكره «أليان» وهو كاتب من العصر الرومانى، كانت هذه المعايير لاتقل عن تسعة وعشرين معياراً، الأمر الذى يدفعنا إلى القول بأن عملية الإختيار كانت من الصرامة بمكان. كانت السمات الخاصة، والظاهرة للعيان أكثر من غيرها، تتمثل فى وجود مثلث أبيض على الجبهة، وعلامات على شكل أهلة على جانبي الحيوان. وعلى العكس، يتعين أن يكون الثور الذى سيجسم «منيفيس» أسود اللون بأكمله مع وجود خصلات شعر مميزة على الجسد والذيل. أما الثور «بوخيس» فكان لابد أن يكون من النوع القصير القرنين وله كتلة محدبة عند مستوى الغارب\* وأن يكون أبيض الجسد وأسود الرأس.

وبعد أن يقع الإختيار على العجل «أپيس» الجديد، وحسب رواية الكاتب اليونانى «ديودور» فإنه يجتاز «فترة تدريب» تدوم أربعين يوماً، فى مكان يدعى «نيلوپوليس» (مازال تحديده غير مؤكد)، ثم يتم اصطحابه إلى «منف»، فى أيام اكتمال القمر بديراً. وكان له فى

\* الغارب: الكاهن. أو ما بين السنام والعنق. المعجم الوسيط. (المترجم)



منف محل إقامته الخاص، الواقع على مقربة من معبد «پتاح»، وخصص له كهنة ملحقون به وكان له أيضاً، وفقاً لرواية بعض الكتاب، «حريم» من الأبقار المنتقاة، فى حين يرى كتاب آخرون انه لم يكن مسموحاً له سوى «بزوجة» واحدة. وهناك أمر مؤكد: ان السمّة المقدسة للعجل «أپيس» تنسحب على أمه. وكانت هذه الأخيرة محل رعاية خاصة لحين وفاتها وحتى دفنها فى جبانة خاصة: هى «جبانة البقرات أمهات العجل «أپيس»، وجارى الكشف عنها فى سقارة الشمالية. ومن جانب آخر، كانت أم العجل «أپيس» محل عبادة وتتوحد مع «إيزيس - حتحور». هكل (٢٢)

وإذا حل أجل العجل، كان يدفن فى السراپيوم، وهى مقبرة ضخمة منحوتة فى الصخر اكتشفها مارييت Mariette عام ١٨٥٠. وحتى الأسرة السادسة والعشرين، لا يبدو ان العجل كان يحنط، ولو أن وجود أوان كانوبية، ترجع إلى الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، ليؤكد على انتشار عادة استخراج احشاء البطن. ويحتفظ متحف اللوفر على بعض هذه الأوانى التى تبلغ أحجاماً لا يستهان بها. وفى المقابل، فإن أقدم التوابيت التى عثر عليها سالمة لم تكن تحتوى سوى على بقايا عظام مهشمة. وهكذا نشاهد تكرار حالة افتراضية سبق أن لاحظناها فى الدولة القديمة، فيما يتعلق بتحنيط البشر: فقد كان المصريون منذ ذلك الوقت المبكر يمارسون استخراج الاحشاء ويحافظون عليها، بينما هم لم يتوصلوا بعد إلى أساليب مرضية تسمح لهم بالمحافظة على الجسد بأكمله. وهكذا ففى وسعنا ان نجازف بالقول ان عادة استخراج أحشاء البطن قد سبقت فى الظهور عادة «حمام النطرون».

ومن جانب آخر، لانجد عناءً كبيراً فى تصور ان تحنيط حيوانات يمثل هذه الضخامة قد طرحت مشاكل ظلت لأمد طويل دون حل. ومنذ الأسرة السادسة والعشرين باتت العجول تحنط تحنيطاً سليماً. وتقدم احدى البرديات معلومات محددة حول الاساليب المتبعة: فيتعين غسل الجسد بالماء و«حشوه حشواً مناسباً بالأقمشة» ثم يدهن بالزيوت ويلف بالأكفان. ويبدو أن استخراج الأحشاء كان لا يتم من خلال فتحة البطن بل عن طريق الشرج. ومازالت موائد التحنيط الرائعة موجودة فى منف وقد صنعت من كتلة واحدة من الألبستر. إن الجوانب المزخرفة بقوائم ورؤوس أسد، لتذكرنا بالأسرة الجنازية التى وجدت أحياناً فى مقابر البشر أو صورت فيها فى الغالب. كما عثر على موائد أخرى أصغر منها حجماً ويرجح أنها كانت مخصصة لتحنيط الأحشاء. ولاريب ان التحنيط كان من الصعوبة بمكان بالمقارنة مع تحنيط الأدميين لأن كمية الماء المطلوب استخراجها من جسم الحيوان

كانت بالطبع أضخم بكثير، وتأسيساً على ذلك فإن مدة «حمام النطرون» كانت أطول من المدة اللازمة للبشر.

ويفضل اللوحات الحجرية التي وصلت إلينا من السراييون، فإننا نعرف الكثير عن التتابع الزمني للعجول «أبيس» (قد تصل مدة حياتهم إلى ستة وعشرين عاماً كما حدث لعجل توفى في زمن الأسرة الثانية والعشرين) وعن ظروف دفنها. ولم تُجر دراسة علمية حديثة واحدة على بقايا العجول «أبيس». فلا توجد بين أيدينا سوى محاضر الحفائر التي أجراها مارييت الذي يشير إلى حالة حفظها التي يرثى لها. فلنتذكر أنه باستثناء مقبرتي العجل «أبيس» اللتين ترجعان إلى عصر رعمسيس الثاني، فقد سلبت ونهبت جميع المقابر الأخرى التي نعرفها في الوقت الراهن، إذ كانت العجول في واقع الأمر مزودة بكميات ضخمة من الحلي والتمائم....

وبعد إعداد الموميا، كانت تدثر بالأكفان وتلف بالأشرطة. وكان الرأس يغطى بما يشبه قناعاً مغطى بالجص المذهب، له عينان صناعيان من عجينة الزجاج وقرص من الخشب المذهب بين القرنين. عندئذ، كان من الممكن أن تبدأ مراسم الجنازة، وهي شديدة الشبه بالشعائر التي تخص البشر، نظراً لأن شعيرة «فتح الفم» كانت تقام أيضاً قبل وضع الموميا في القبر. كما نعرف أن النائحات كن يشاركن في مراسم الدفن. ويعلن «بسمتيك» بن «أحمس» الثاني، على سطح لوحة حجرية، أنه لبس الحداد عند وفاة العجل «أبيس»، ولم يتناول سوى الخبز والماء والخضروات لمدة السبعين يوماً التي تمتد منذ بدء التحنيط وحتى دفن العجل «أبيس». وإليكُم مثلاً من النص المحفور على لوحة حجرية أخرى من السراييوم والذي يخص عجلاً توفى في العام الثالث والعشرين من سنوات حكم أحمس الثاني (الأسرة السادسة والعشرين)، عام ٥٤٧ ق.م. يقول النص: شكل (٢٣)

«... لقد تمت من أجله جميع المراسم في بيت التطهر... واعد له تابوت ضخم من الجرانيت... وصنع من أجله كفن من قماش «سري»، وارد من مدينة «سايس» المقدسة لتأمين حمايته. وحليه مصنوعة من ذهب وشتى أنواع الأحجار الكريمة... لقد صعد جلالة هذا الإله («أبيس») إلى السماء في العام الثالث والعشرين، في اليوم السادس من الشهر السابع... وكانت مدة حياة هذا الإله ثمانى عشرة سنة وستة أشهر...»

كانت تكاليف دفن العجل «أبيس» مرتفعة جداً، وكثيراً ما تذكر المدونات الحصة التي ساهم بها الملك. وفي الأزمنة المتأخرة، كان من الممكن إجبار مختلف المعابد على المشاركة في هذه التكاليف.

ويوجد فى سقارة العديد من جبانات العجل «أپيس». وفى المرحلة الأولى التى تمتد من «امنحوتب» الثالث إلى العام الثلاثين من حكم «رعمسيس» الثانى كانت الدفنان فردية. وفيما بعد وحتى العام الثانى والخمسين من سنوات حكم «پسمتيك» الأول (٦١٢ ق.م)، تم تجميعها فى سرداب صغير. (لايكن الوصول إلى هذه المقابر فى الوقت الراهن). واعتباراً من ٦١٢ ق.م، أعد سرداب آخر، أكبر من السابق وعمودياً عليه، وقد ظل مستخدماً حتى نهاية العصر البطلمى، بل وفيما بعد ذلك. إن معظم العجل التى دفنت فى هذه الجبانة الأخيرة كان من نصيبها توابيت حجرية من قطعة واحدة، آية فى الجمال، يقارب وزن الواحد منها سبعين طناً، بينما كانت التوابيت من قبل أصغر حجماً وتصنع من الخشب. كانت التوابيت الحجرية توضع فى مقاصير، حُفرت على جانبى ممرات كبيرة، وقد غطيت سطوحها بحجر جبرى مصقول. وبعد اتمام الدفن كانت تغلق هذه المقاصير، وتوضع عليها الأختام وتثبت عند مدخلها لوحة حجرية تنفيذاً لأوامر الملك، إحياء لذكرى وفاة العجل ودفنه. وقد يحدث أن يتقدم الأفراد بلوحات حجرية أخرى فتثبت على سطوح ممر المدخل. والمقاصير، مفتوحة تماماً فى الوقت الراهن، وقد فقدت كساءها ونهبت كل التوابيت وسلبت. أما اللوحات الحجرية فتحتفظ بها مختلف المتاحف ويصور عليها العجل «أپيس» فى أوضاع مختلفة، وهو فى الغالب على هيئة عجل سائر، أو راقد أحياناً، فوق الزحافة التى كانت تستخدم لنقله إلى الجبانة وفى أحيان أخرى كان يصور على هيئة إنسان واقف، وبرأس ثور.

إذا كانت دفنات العجل «أپيس» قد تم سلبها ونهبها على نطاق واسع، وتلفت المومياوات تلفاً شديداً، فإن الوضع مختلف بالنسبة لدفنات العجل المقدس «بوخييس» («باغ». م)، صورة الإله «مونتو» فى «هرمونتيس» (أرمنت حالياً - م) إلى الجنوب من طيبة. إن الجبانة التى تم الكشف عنها عام ١٩٢٦ وتعود إلى الأسرة الثلاثين كانت تضم ٣٥ مقبرة موزعة على جانبى السرداب كما فى السراپيوم. وقد امتدنا هذه الدفنات بمعلومات غزيرة حول تحنيط العجل: فكانت الأحشاء لاتستخرج من خلال شق فى البطن ولكن عن طريق الشرج، وقد عثر على الأدوات اللازمة وسط المعدات الجنائزية: كالمُبعد والأوانى ذات الأنابيب (المصنوعة من البرونز). كان العجل فى وضع راقد، والقوائم مثنية تحت الجسد. وكان يثبت على لوح خشبى متين بأحزمة من قماش تمرّ عبر مشابك معدنية. وكان رأس الحيوان يغطى بقناع مذهب مرصع بعينين. ويثبت بين القرنين غطاء للرأس مكون من قرص تعلوه ريشتان كبيرتان. وهذه الصورة بتفاصيلها هى التى نشاهدها على اللوحات الحجرية التى حصلنا عليها من الجبانة. وبفضل إحدى هذه اللوحات ويرجع

تاريخها إلى عام ٢٨٨ ميلادية وتصور الإمبراطور «دقلديانوس» وهو يقدم قربانا إلى «بوخيس»، فى وسعنا أن نؤكد على الاستمرارية الفريدة فى بابها لهذه الشعيرة. وعلى غرار سقارة، بشأن مقابر البقرات أمهات العجل «أپيس»، فقد تحققنا من وجود مقابر البقرات أمهات العجل «بوخيس».

وقد تأكد وجود شعيرة العجل «منيفيس» فى هليوبوليس، ولكن فيما عدا مقبرتين، فإنه لم يتم الكشف عن جبانته، ويبدو أنه عرف أساليب تحنيط ولف باللفائف مماثلة لتلك التى استخدمت مع العجل «أپيس».

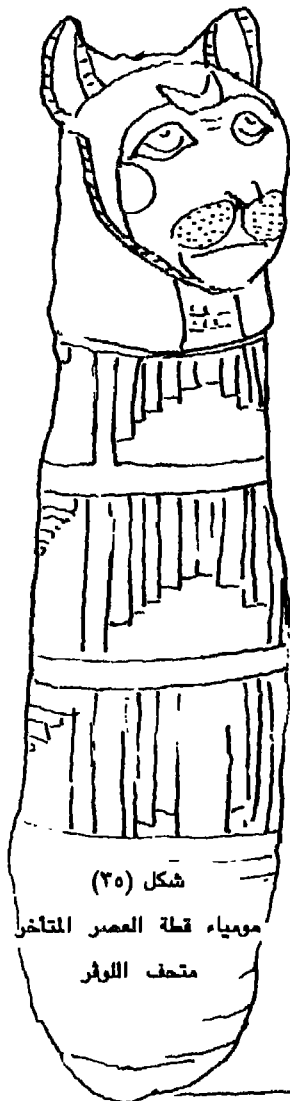
وفى المعتاد، كانت الأبقار وما إليها تستخدم كحيوانات معدة للذبح، لتقدم طعاماً سواء للأحياء من البشر أو قرباناً للآلهة (يؤول إلى الكهنة فى آخر المطاف...). ومع ذلك، فقد عثر على بقايا محنطة لثيران وأبقار لم تكن بشكل مؤكد حيوانات مقدسة، على غرار العجول التى عثر عليها فى أبى صير. ومن بين هذه الأخيرة، عثر على موميאות حسنة المظهر وإن كانت تضم فى واقع الأمر عظاما متنوعة تعود إلى عدد من الحيوانات.

## ٢ - التماسيح المقدسة

لقد كرست للإله التماسح «سويك» عدة أماكن للعبادة. ومن بين الحيوانات التى كانت تعيش فى مصر فى العصور التاريخية، فإن التماسح كان بلاشك أكثرها إثارة للرعب. وفى وسعنا أن نقر أن المصريين لهذا السبب قد جعلوا منه إلهاً، وكانت غايتهم من ذلك، عن وعى أو بلا وعى، أن «يخاتلوه». ومع ذلك علينا أن نوضح أن المدخل الذى يعدد رؤيتنا للإله التماسح ليس أحادى الجانب: فيبدو التماسح فى بعض الحالات قوة خيرة ترتبط بالشمس والمياه التى تحمل معها الخصب (وهى حالة الآلهة التماسيح فى الفيوم)، فى حين يبدو فى حالات أخرى أنه كائن مرعب، قد يتوحد إلى حد ما مع «ست»، عدو الآلهة ومع قوى الفوضى والخواء. وفى وسعنا أن نلاحظ أن الترانيم الشعائرية تتناجيه بصفتة الإله «صاحب الوجه البشوش، والحب الرقيق، والهبة الجميلة، والألوان المتألقة» وأن أحد أسمائه فى الفيوم، فى العصر اليونانى الرومانى هو «پنيفروس» Pnéféros الذى يعنى «صاحب الوجه الجميل».

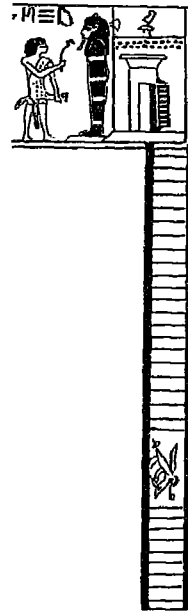
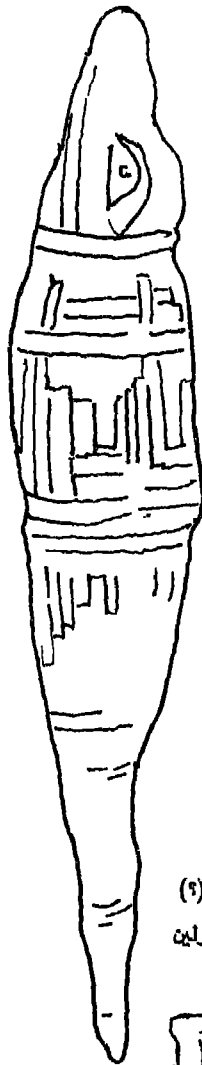
ومنذ الدولة الوسطى كان له فى الدلتا والفيوم أماكن يعبد فيها. وفى الدولة الحديثة، خصص له معبد هام فى «سومنو»، قرب أرمنت. وفى العصر البطلمى وإلى جانب معبده فى مدينة «كروكوديلوپوليس»، عاصمة الفيوم التى تحمل اسمه، كان معبده الرئيسى فى كوم أمبو، وقد بدأ تشييده فى القرن الثانى قبل الميلاد واستمر حتى القرن الثالث الميلادى. ومن الراجح، أن فى كل معبد من معابد «سويك» كان يوجد تمساح هو الصورة الحية للإله. وفى «ثيادلفيا» (بطن إهرى - حالياً - م)، تُظهر بعض اللوحات الحجرية من العصر اليونانى الرومانى، الحيوان الحى، راقداً فوق ناووس صغير، وأمامه كاهن يقدم قرباناً أو فى وضع الصلاة. وتُظهره إحدى هذه اللوحات وهو يسبح فى حوض ماء. ومن جانب آخر، فإن صورة الإله فى بعض معابد الفيوم تتكون على ما يبدو من مومياء تمساح. وفى «كرانيس» (كوم أوشيم - حالياً - م.) فى وسعنا أن نشاهد، فى المعبد الشمالى، الكوات الغائرة التى كانت تستخدم مكاناً ترقد فيه المومياء الموضوعة فوق محفتها. بل لقد عثر فى ثيادلفيا على المحفة التى حملتها خلال الموكب الذى طاف بها. ويصور تصوير جدارى فى هذا المعبد طواف الموكب ذاته: التمساح مدثراً فى كفن أبيض ولا يظهر منه سوى الرأس الذى يرتدى التاج الأوزيرى. ويبدو من جانب آخر أن بعض معابد «سويك» كانت تقوم بتربية التماسيح ولا يتضح لنا وظيفتها الحقيقية، ولكن طابعها المقدس واضح لا يخامره أدنى شك. إن هذه التماسيح التى كانت مستأنسة، من الناحية العملية، كانت حقاً أمراً غريباً، تشد إليها الرحالة الأجانب الذين يزورون هذا المكان. ويخبرنا نص للكاتب اليونانى «سترابون» أنهم كانوا يقدمون لها القرايين والفطائر وخمر العسل... الخ ليتولى الكهنة وضعها فى قم الحيوان! ومن جانب آخر، يدعى هيرودوت أن الكهنة كانوا «يزينون» تمساحهم المقدس بالأساور والأقراط... شكل (٢٤)

إن الكثير من جبانات التماسيح قد تم الكشف عنها على امتداد الوادى فى كوم أمبو واسنا والجبلين وطهنا والحيبة و«ليتوپوليس» (أوسيم، حالياً، م) وهو ما يوضح بجلاء الأهمية التى تحيط بهذا الحيوان. وبعض موميאות التماسيح، فى حالة جيدة جداً، ظل التمساح فيها محتفظاً بهيئته المميزة. وقد عثر على موميאות كاملة تماماً، بل إن بعضها يحتوى على بيض، بل على عدد كبير من الصغار داخل نفس الغلاف. وفى المقابل، فإن البعض الآخر فى حالة يرثى لها، وهى أحياناً مجرد موميאות زائفة أو أيضاً لفات لاتحتوى سوى على بعض العظام المبعثرة وسط القش ولها هيكل من أغصان النخيل. ومن حيث الشكل الظاهرى تبدو هذه الموميאות من النوع الجيد فى الغالب، وهى مغلفة بالشرائط والكارتوناچ. إن العديد من كارتوناچ موميאות التماسيح، ولاسيما كارتوناچ



شكل (٣٥)

مومياء قطة العصر المتأخر  
متحف اللوفر



شكل (٣٢)

ال «باء» - يهبط إلى المقبرة

شكل (٣٤)

مومياء تمساح صغير . الفيوم (٢)  
القرن الأول الميلادي . متحف برلين



شكل (٣٣)

قارب جنازى للمجل أبيس  
العصر المتأخر متحف القاهرة

جبانة «تبتونيس» Tebtunis (تل أم البريجات - حالياً - م.) قد دمرت لاستعادة البرديات اليونانية التي كانت قد استخدمت عند صنعائها. إن وجود إختلاف فى جودة مومياوات التماسيح ليذكرنا بنفس الإختلاف الذى نلاحظه بالنسبة للقطط، ومن حقنا أن نتساءل لو أن الأسباب متشابهة: ألا تعتبر بعض مومياوات التماسيح قرايين مقدمة للإله؟ إن هذا الإفتراض الذى يحتاج إلى تأكيد، له الفضل فى أنه يفسر سبب تربية التماسيح، التى لانعرف لها مبرراً لوجودها، إلا المبرر الدينى.

### ٣- حالات القطط

من المعروف أن مصر هى مهد القط الأليف، ويبدو أن نوعين من القطط كانا موجودين فى الأصل: سلالة كانت أليفة من الناحية الفعلية وقريبة الشبة من قططنا الحالية واسمها *felis sylvestris libyca* وسلالة أخرى بقيت متوحشة، إنه قط المستنقعات واسمه *felis chaus*، وهو كبير الحجم. وفى معرض حديثنا عن القط الأليف، علينا أن نوضح، إنه كان على نحو ما أقل قرباً من الإنسان بالمقارنة مع الكلب على سبيل المثال. وهناك حالات عديدة لقطط، إن لم تكن قد ارتدت إلى حياة التوحش، إلا أنها باتت تعيش على الأقل حياة مستقلة. وقد يكون ذلك، هو السبب وراء كثرة انتشار تصوير الكلاب فى الفن المصرى منذ الأسرات الأولى، فى حين لم يُعرف تصوير القطط من الناحية العملية قبل الدولة الوسطى، وعم وانتشر على نحو خاص فى زمن الدولة الحديثة.

وبالطبع، يمكن مشاهدة القط كحيوان أليف جالساً تحت مقعد سيده أو مرافقاً للإنسان فى رحلة الصيد (راجع رسومات مقبرة «نب آمون» فى طيبة) أو أيضاً، بصفته «معاوناً» فى المنزل، كصياد للقوارض. ولكن كان للقط أيضاً دلالة الدينية. فقد كان فى الأساطير الشمسية، رفيقاً للإله الشمس «رع»، بل كان أيضاً أحد مظاهره. وبصفته هذا، كان يصور وهو يذبح الثعبان «أپوفيس»، القوة المعادية التى تهدد بالحيلولة دون شروق الشمس، ومن ثم فهو يصور فى الرسومات التوضيحية التى تزين الفصل السابع عشر من كتاب الموتى، وأيضاً فى مقابر عصر الرعامسة. ويظهر أيضاً على لوحات حجرية فى دير المدينة، حيث كان يعبد إن ارتباطه بـ «باستت»، الإلهة القطه، يسبغ عليه كل هذه الأهمية. أجل، لقد كانت «باستت» معروفة منذ الدولة القديمة، غير أن مدينة «بوياسستيس» (تل

بسطا، حاليا - م)، فى القسم الشرقى من الدلتا، وإلهتها «باستت» لم تحتل مكان الصدارة قبل الأسرة الثانية والعشرين (البوباستية). وفى هذا العصر، شهد المعبد المحلى للإلهة «باستت» توسعات ضخمة ونشاطاً فاق بكثير حدوده المحلية. إن صور الإلهة تمثلها على هيئة امرأة برأس لبؤة، وهو مايسمح لها بأن تتحد مع الإلهة اللبؤة الأخرى، وهى الإلهة «سخت» . وانتهى الأمر بالإلهتين إلى ان اعتبرتا قوتين متعارضتين ولكنهما متكاملتان: فتمثل «سخت» القوة والعنف بل الحرب، فى حين تمثل «باستت» الحنان والوداعة. ويبدو أحياناً من الصعوبة أن نميز رأس اللبؤة من رأس القط، فى التصاوير. وعلى مايبدا، فقد أخذ المصريون فى عصر الأسرة الثانية والعشرين يرون شيئاً فشيئاً أن القط مظهر تتجلى فيه الإلهة «باستت». وفى هذا العصر أيضاً، ازدهرت على نطاق واسع صور، مصنوعة فى المعتاد من البرونز أو القاشانى، لقطط جالسة أو راقدة، وفى صحبتها فى الغالب قطط صغيرة. ويفترض أن انتاجها كان على نطاق واسع، لأننا عثرنا منها على نماذج كثيرة جداً. وعثر على جبانة شاسعة للقطط فى «بوبيستيس». لقد وضعت المومياوات فى حفر عميقة حوائطها من الطوب أو الصلصال الصلب، أو وضعت أحياناً فى أوان من الطين المحروق.

وهناك إلهة أخرى على هيئة لبؤة أو قط، هى الإلهة «پاخت» التى كان لها معبد فى «سببوس أرتيميدوس» (بلدة إسطنبول عنتر، حالياً - م.) على مقربة من بنى حسن حيث تم العثور على جبانة شاسعة للقطط. وكانت المومياوات موضوعة فى الغالب فى توابيت صغيرة مصنوعة من الخشب أو البرونز وعلى شكل قط. ومن هذه الجبانة نقلت فى القرن الماضى، أطنان من المومياوات إلى إنجلترا لتستخدم سماداً للأرض... ويقال أن شحنة واحدة تزن تسعة عشر طناً، كانت تتكون على مايظن من حوالى مائة وثمانين ألف مومياء. وقد تم الكشف على غيرها من جبانات القطط، ولاسيما فى منطقة طيبة حيث تتحدث بريدة ديموطيقية من القرن الثانى الميلادى عن وجود «مكان لراحة القطط».

إن فحص مومياوات القطط، التى أجريت حتى الآن على عدد محدود نسبياً من القطط (٥٣ مومياء من المتحف البريطانى) قد أمكن مواصلتها منذ وقت قريب على نطاق أوسع فى إطار استكشاف «بوبيستيون» سقارة (حوالى مائتى قط). لقد أكدت هذه الدراسة الأخيرة ان وفاة هذه الحيوانات كانت فى الغالب وفاة غير طبيعية. فغالبيت القطط هى من ناحية فى مقتبل العمر أو لم تبلغ سن النضج. ومن ناحية أخرى، فإنها تحمل دلائل على وجود تهتك فى المخ أو كسور فى الجمجمة، وهو مايحملنا على الظن أنها قد قتلت

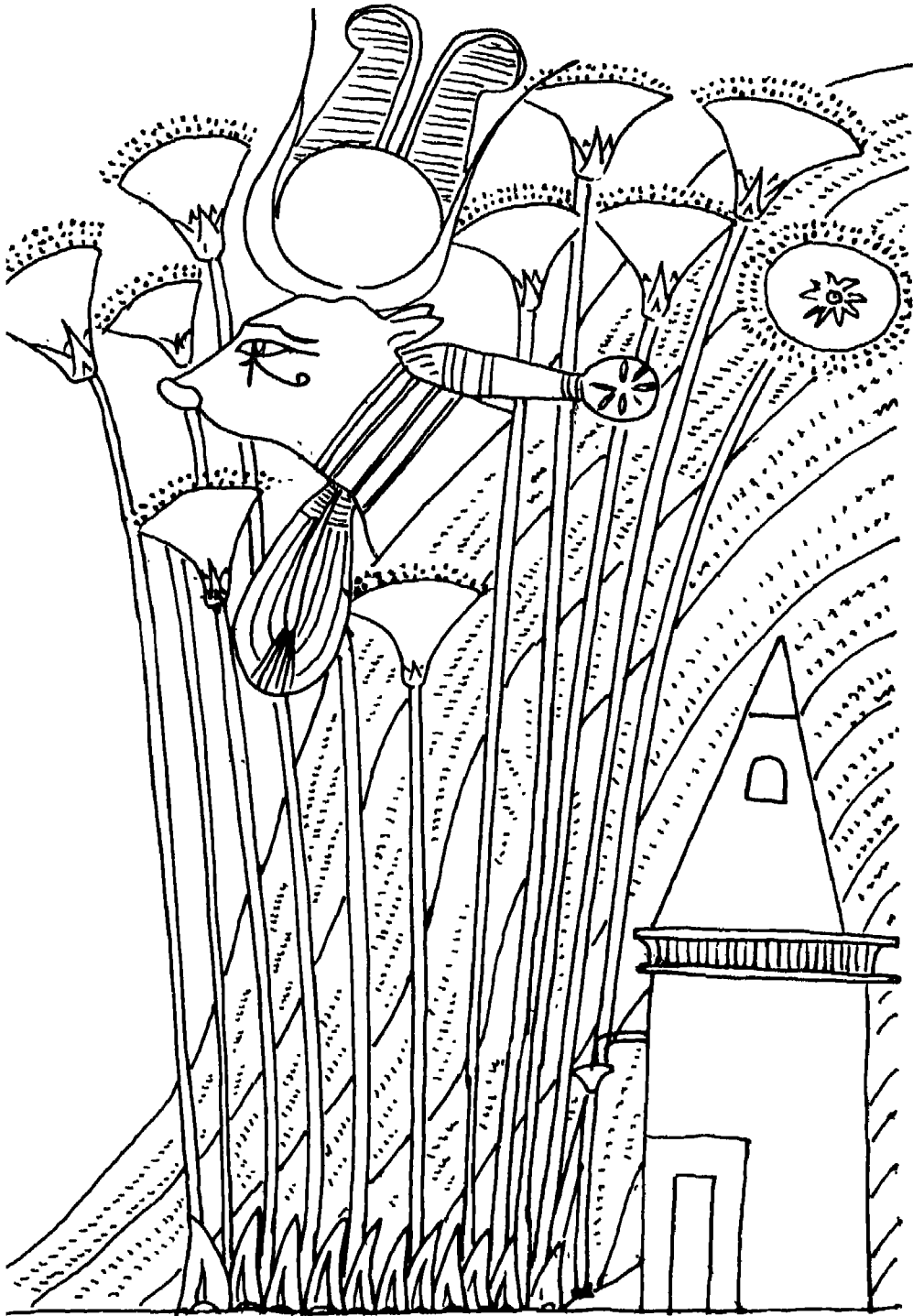


عمداً. وتأسيساً على ذلك يمكن القول أن المومياوات كانت تصنع بغرض بيعها للحجاج الذين كانوا يقدمونها على ما يعتقد للمعبد، إعترافاً بالجميل أو تعبيراً عن الورع والتقوى. إن وجود مرايض لتربية القطط على مقربة من المعابد، أمر ثابت فى الأزمنة المتأخرة على الأقل، وربما كان يلبي هذا المطلب. وتذكر العديد من البرديات وجود مربين للقطط.

والمظهر الخارجى للمومياوات متغير: فيبدو الشكل الإجمالى، فى بعض الحالات، كلفة مستطيلة، تُبرز الرأس بوضوح بفضل لفها باللفائف فى حين أن الأطراف مثنية على امتداد الجسد، كما يبرهن على ذلك دراسة المومياوات بالتصوير بالأشعة. ان نماذج من هذا النوع معروضة فى المتحف البريطانى. وفى حالات أخرى، تلف الأطراف باللفائف بشكل مستقل، وهو ما يضيف مزيداً من الحياة على مظهر المومياء. ويمكن مشاهدة مثل هذه المومياوات فى متحف اللوفر. ويمكن أن يكون أسلوب لف المومياء معقداً جداً، والرأس يشكله نسيج مغطى بالجص وملون. ومع ذلك فإن أسلوب لف اللفائف هو فى الغالب غير متقن إلى حد كبير. وغالباً ما يدفن القط بدون تابوت، غير أنه قد يوضع فى تابوت من خشب ويتخذ هو نفسه هيئة قط قابع. إن طول هذه التوابيت الخشبية متغير، وهو ما يسمح تارة بإدخال مومياء كاملة وتارة أخرى بإدخال بعض العظام فقط. وفى النزر اليسير، قد يكون التابوت من حجر أو من خشب على هيئة صندوق. ويحتفظ متحف «تورين» بنموذج من خشب، يزدان أحد جانبيه الصغيرين بقطين مقعنين يواجهان بعضهما البعض ويحيطان بالعلامة الهيروغليفية «نفر». ويتكون نوع آخر من صندوق من البرونز يعلوه تمثال صغير لقط. وعلى غرار مومياوات البشر والحيوانات الأخرى، فإننا لانفتقر هنا أيضاً إلى المومياوات الزائفة أو الناقصة. وربما كانت قططا قد شوهدت قبل عملية التحنيط أو بعدها. وإذا افترضنا ان هذه المومياوات كانت تستخدم ككنوز، فإن وجود المومياوات الزائفة لا يفسوه افتقار العاملين فى هذا المجال إلى الضمير الحى فحسب، بل أيضاً زيادة الطلب عليها. ان وجود عدد كبير من المومياوات الزائفة (تصل هذه النسبة فى سقارة إلى ٢٥٪) يشهد على وجود «صناعة» بالجملة على نسق واحد. شكل (٣٥)

#### ٤- الطيور

لقد قام المصريون بحنيط ما يقرب من أربعين نوعاً من الطيور. لايبنى ذلك أنهم كانوا يعبدونها جميعاً، ففارق كبير بين هذا وذاك، وأهم الطيور المقدسة هى الصقر، صورة



شكل (٣٢)

«مصفور» خارجة من الجبل الغربي كتاب الموتى : «أنى».

الدولة الحديثة. المتحف البريطاني

«حورس»، إله الأسرات الملكية وأبو منجل المكرس للإله «تحتوت»، والرخمة المكرسة للإلهة «نخبت». أما عن أبى منجل، فهو أبو منجل الأبيض ذو الرأس الأسود، *ibis religiosa*، وقد اختفى فى الوقت الراهن من مصر، ربما لكثرة ما حُطّ منه. ومع ذلك فقد عرفت الأزمنة المتأخرة أفنية كثيرة كان يربى فيها طائر أبى منجل. وتم العثور على جبانات شاسعة جداً فى أماكن مختلفة. وأهمها هى بلاشك جبانة تونا الجبل، وهى جبانة «هرموبوليس»، وكان معبدها الرئيسى مكرساً للإله «تحتوت». وداخل حرم كبير، وفى ثلاثة سراديب (كان سرداب منها خاوياً) رصّت رصاً آلاف من الجرار المصنوعة من الطين المحروق مخروطية الشكل، تحتوى كل منها على طير واحد أو أكثر. وقد سيجت طيور أخرى فى توابيت صغيرة من حجر وضعت فى كوات محفورة فى حوائط السراديب. ولم تكن أحشاء طيور أبى منجل قد استخرجت، بل تم فقط انتزاع الماء من هذه الطيور، بسبب صغر حجمها نسبياً بلا شك. وفى المقابل، كان أسلوب لف اللفائف أية فى الإتيقان فى المعتاد. وأحياناً كان يضاف إلى المومياء ما يشبه رأساً مستعاراً له منقار ويعطوه التاج المميز للإله «تحتوت». ويجوار مدخل اقدم السراديب، كانت قاعة صغيرة تستخدم على الأرجح كورشة تحنيط. وقد عثر فيها على مائدة تحنيط صغيرة لها ميزاب لتصريف السوائل ومازال بها آثار مواد راتنجية وعلى جرار غائرة فى الأرض تحتوى عى نظرون وملح وترينتين. وقد تم الكشف على جبانات هامة لأبى منجل فى «أبيدوس»، حيث عثر على جرار كبيرة تحتوى على مايقرب من مائة طير، تضمدها اللفائف أيضاً، كما عثر معها على أعداد من البيض. وكان هناك أيضاً جبانة فى سقارة الشمالية، وربما كانت مرتبطة بعبادة «إيمحتوب» (وكان إلهاً للمعرفة مثله مثل «تحتوت»). وفى سقارة الشمالية أيضاً، تضم سراديب ضخمة ملايين من مومياوات الصقور وقد وضعت فى أوانى من الطين المحروق، كما توجد بعض مومياوات الرخمة موضوعة فى جرار كبيرة الحجم.

## ٥- الكباش

كان الكباش هو الحيوان المقدس لعدد من الآلهة: «أمون» و«خنوم» و«حرسافيس».\* كما كان يعبد أيضاً فى مدينة «منديس». وكانت مصر القديمة تعرف جنسين من الكباش:

\* وهو التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم «حرى شف» الذى يعنى «ذاك الذى على بحيرته» وهو الإله الكباش فى «هرقليوبوليس» - اهناسيا المدينة - حالياً. (المترجم)

الاسم العلمى للأول هو «أوفيس لونجيبس پاليوإجبتياكا» *ovis longipes paleoaegyptiacus*، وله قرنان حلزونيان أفقيان. أما الجنس الثانى الذى ظهر فى زمن متأخر، واسمه العلمى «أوفيس پلاتيورا» *ovis platyura* فإن قرنيه الملتفين يشبهان قرون الكباش الأوروبية الحالية. ولم نعثر حول المعابد على أثر لتربية الكباش المقدسة وفى المقابل فقد تم العثور على جبانات لكباش فى إلفنتين وطهنا ومندس وتبتونيس والمزوقة فى الواحات الداخلة. إن كباش جبانة إلفنتين وهى من العصر الرومانى كانت مغلفة بالكارتوناچ الذى كان من نوعية جيدة فى الغالب وكانت موضوعة فى توابيت من الحجر الرملى. كما عثر أيضاً على القاعة التى خصصت لأعمال تحنيط هذه الحيوانات، ومن الواضح الجلى، ان معابد «أمون» أو «خنوم» كان بها كبش حتى يفترض أنه الإله.

إن تحنيط الحيوانات، وهو جزء لايتجزأ من الديانة التقليدية، سوف يستمر حتى نهاية القرن الرابع الميلادى (كان الحديث مازال يدور عام ٣٦٢ عن البحث عن عجل «أبيس» جديد)، ثم أختفت هذه العادة واندثرت مع انتشار المسيحية وتحريم العبادات الوثنية. ولنلاحظ أن الأمر يختلف بالنسبة لتحنيط الأدميين الذى سيطر معمولاً به لفترة أطول من الزمن. وقد لوحظ أن معظم المومياوات الحيوانية تعود إلى أزمنة متأخرة، بطلمية ورومانية. ويرى الكثيرون أن انتشار عبادة الحيوانات وتحنيطها هو تعبير عن بعض الإرتداد الذى أصاب الديانة المصرية التى أخذت تفسح مجاًلاً أكبر «للممارسات الشكلية الخرافية». ان هذا الأمر لايهمنا من قريب أو من بعيد. ففى الأزمنة المتأخرة، لما أصبحت تقنيات التحنيط فى متناول جمهور أوسع، وياتت أقل تكلفة، صار من الممكن اتساع دائرتها، لتشمل البشر فحسب، الذين تزايدت أعدادهم، ولكن لتضم الحيوانات أيضاً. أما فى العصور القديمة، عندما كانت أعداد مومياوات الأدميين أقل كثيراً، فإن مومياوات الحيوانات كانت بالضرورة أكثر ندرة، والحقيقة أننا درجنا، فيما يتعلق بعبادات مصر القديمة، إلى الإنحياز إلى التأويلات التى تقوم على ما هو دينى وما هو رمزى على حساب البواعث العينية والضروريات الإقتصادية....

## الفصل التاسع

### نهاية التحنيط

إن علو نجم المسيحية باقتدار لم يترتب عليه القضاء على التحنيط قضاءً مبرماً. وبالفعل لا يجوز أن نرى في المسيحية ديانة أصبحت قوية دفعة واحدة، في وسعها أن تحل محل الديانات التقليدية. إننا لانعرف في الواقع شيئاً عن بدايات انتشار المسيحية في مصر، الذي يرجع إلى القديس مرقس الرسول، حسب رواية التقليد المتواتر، ولكن دون برهان تاريخي. وكان علينا أن ننتظر نهاية القرن الثاني الميلادي لنقيم البرهان على وجود مسيحية مستقرة في الإسكندرية مع ظهور مدرسة ذائعة الصيت للتعليم المسيحي. وعلى امتداد القرون الثلاثة الأولى، يبدو أن المسيحية قد أخذت تتطور في مصر عبر دروب تختلف عن تلك التي سلكتها المسيحية الآسيوية وهي دروب سيتم إدانتها في عهود لاحقة لمخالفتها لصحيح الدين. والبرهان على ذلك نجده في نصوص نجع حمادي\*: إن هذه النصوص المكتوبة باللغة القبطية، من الراجح أنها تشكل ماكتبته جماعة مسيحية من مصر العليا. غير أن العديد من هذه النصوص له طابع غنوصي يعكس تيارات فكرية كانت تعيش على هامش المسيحية، وتتعارض معها إلى حد كبير في بعض النقاط، ومتأثرة تأثيراً ملحوظاً بالعقائد المصرية، بل الإيرانية أيضاً. ومن بين هذه النصوص، كانت هناك أناجيل تتحدث عن المسيح وحوارييه (أناجيل توما وفيليب ومريم المجدلية) ولم تحتفظ بها الأسفار القانونية للعهد الجديد. إن الطابع المخالف لصحيح العقيدة لهذه الجماعات المسيحية ليفسر شعار الصمت الذي اسدل عليها فصرنا لانعرف شيئاً تقريباً عن بدايات المسيحية المصرية. ومع ذلك ففي القرن الثالث والقرن الرابع على وجه التحديد، بدأت الهياكل الكهنوتية تأخذ مكانها بالتدريج، ونلاحظ على وجه الخصوص ظهور حركة ستشهد في مصر وخارجها انطلاقاً ذات شأن، ألا وهي حركة الرهبنة. وكان اضطهاد دقلديانوس عند منعطف القرن الرابع، هو آخر «تجربة» كبرى يمر بها مسيحيو مصر.

---

\* تضم هذه النصوص ٥٢ نصاً عثر عليها عام ١٩٤٥. (الترجم)

وفيما بعد وبعد أن أصبح للمسيحية وجود شرعى، أخذت تنتشر أكثر فأكثر فى المدن والريف. وفى نفس الوقت، نلاحظ تباعداً عن الديانة التقليدية التى عانت الكثير كما هو واضح من الصعوبات الاقتصادية التى مر بها القرن الثالث. ومع ذلك فإن هذا التباعد يختلف باختلاف المناطق. وكان علينا أن ننتظر نهاية القرن الرابع (٣٩١ - ٣٩٢) عندما أمرت المراسيم الإمبراطورية بغلق المعابد «الوثنية» لتضع حداً، ولو من الناحية النظرية، لممارسة العبادات التقليدية.

أن الفوارق الدينية التى تميز المسيحيون عن بقية الشعب، لم يترتب عليها أبداً تغييرات فى حياتهم اليومية. إنهم يعيشون فى نفس القرى، ويدفنون فى نفس جبانات بنى وطنهم من «الوثنيين». وفى حقيقة الأمر، وخلال القرون الثلاثة الأولى على الأقل، وبـل وفيما بعد ذلك، يبدو أن المقابر المسيحية كانت مختلطة بالمقابر الأخرى. كما فى وسعنا أن نتحقق من ذلك فى جبانة هواره وجبانة كرامة قرب الحبية، حيث كانت توجد بعض المقابر الوثنية وسط الجبانة المسيحية، وكذلك فى البجوات (فى الواحات الخارجة) حيث وجدت مقابر وثنية من القرن الرابع الميلادى على مقربة من المقابر المسيحية التى كانت أكثر عدداً.

ولم يكتف المسيحيون باستخدام أماكن دفن مشتركة، فأخذوا هم أيضاً يحنطون موتاهم. وللأسف لانملك بين أيدينا دراسة منهجية أجريت على المومياوات التى تحققنا من أنها مسيحية.

إن دراسة «كاستل» G. Castel التى انصبت على دفنات رهبان دير القديس مرقص، فى منطقة طيبة، قد أثبتت ان الأجساد كانت مغطاة بكتل من الملح ومواد «دهنية» لم يتم التحقق منها بشكل قاطع. وكانت لاتحمل آثار استخراج الأحشاء، الأمر الذى لايجعلنا نقطع مسبقاً برأى حول نوع المعالجة التى أجريت لها: وترتدى الأجساد ما يخصها من ثياب الرهبان البالية، تدثرها عشرة أكفان متتالية يغطيها سروال من الجلد، وقد تم تثبيت كل ذلك بواسطة مجموعة من الشرائط.

ان الدراسة التى قامت بها السيدة «پرومنسكا» Prominska على ثلاثة رهبان من نفس هذا الدير قد برهنت على أن الإهتمام بالمحافظة على الأجساد كان لايزال قائماً. ويشمل نمط التحنيط المستخدم أساساً استخدام كتل من النطرون دون أى أثر لاستخراج الأحشاء الباطنة. ويلاحظ تهتك صدر إحدى المومياوات وهو ما يسمح بمشاهدة الرئتين والحجاب الحاجز والمرئ. وبشكل عام، فإن هذه المومياوات الثلاث فى حالة جيدة من الحفظ. أن شعر الرأس وشعر البشرة واللحية إلى جانب الأظافر موجودة وكثيفة. والبشرة

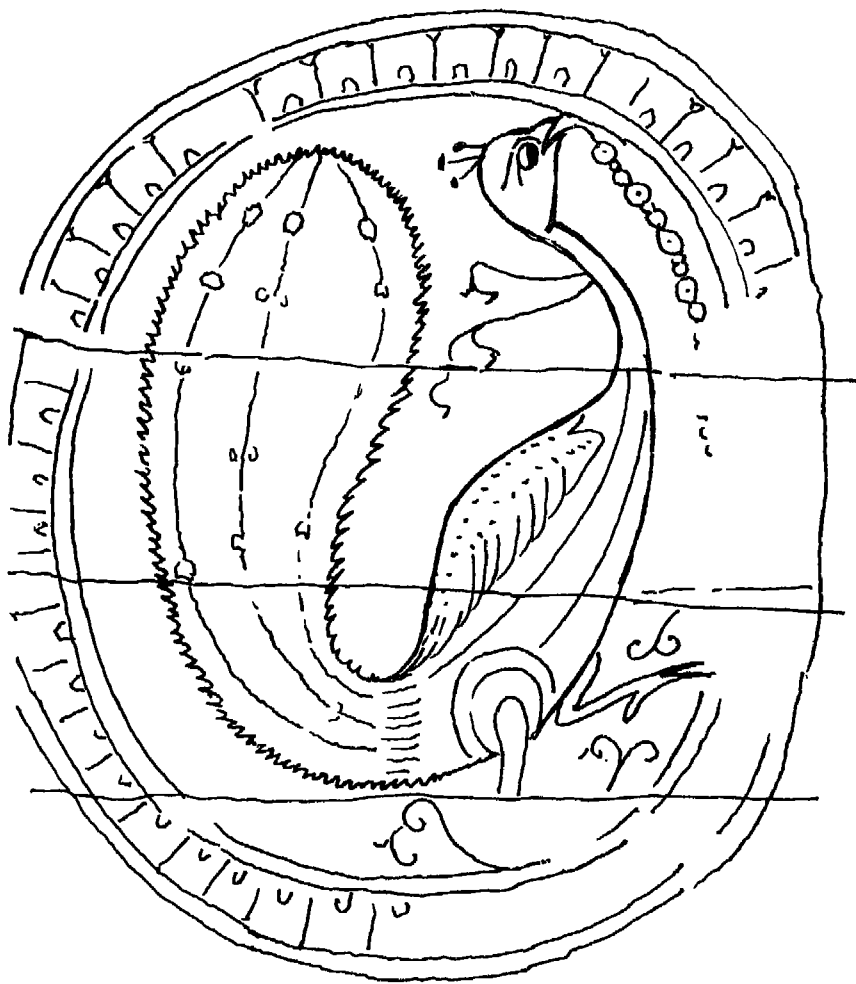
لها مظهر جاف، ولكن يغطيها فى بعض الأماكن مايشبه المادة الدهنية التى أفرزها الجثمان على مايبود. إنها ظاهرة يعرفها جيداً الأطباء العاملون فى مجال الطب الشرعى. وعلى كل حال، لم تعرف أبداً المومياوات المصرية الكلاسيكية مثل هذه «الإفرازات» لمواد دهنية. وتسمح لنا هذه الملاحظات من التحقق من أن النطرون لم يستخدم بنفس طريقة استخدامه فى حالات التحنيط التقليدية. وكان لهذه الجثث رائحة «مميزة». وقد استطعنا أن نلاحظ وجود رائحة كريهة جداً صادرة عن مومياوات تعود إلى أزمنة متأخرة جداً وقريبة الشبه جداً بمومياوات الرهبان التى فحصتها السيدة «برومنسكا». ويبدو أن أحدهم قد تم لفه بالفائف بسرعة كبيرة، ربما بينما كان لا يزال حياً... وكانت هذه الموميااء تحمل آثار ضرب على المنطقة القذالية وعلى الوجه مع وجود آثار دماء.

وفى الدفنيات التى عثر عليها على مقربة من دير إبيفانوس، فى طيبة، عثر على جثث مدثرة بطبقات من القماش وقد وضعت بين طياتها ثمرات من نبات العرعر وكتل من الملح.

وفى الجبانة المسيحية بمدينة الحية، كانت تحتفظ الأجساد بطبقات سميكة من الملح بين طيات الأكفان. وقد تم تحنيط بعضها، ثم سجيت فى توابيت من خشب أو من الطين المحروق. وكانت غيرها تدثر بكل بساطة بالأكفان ثم توضع فوق قاعدة من خشب. شكل (٣٦)

وتوضح مختلف هذه الأمثلة بجلاء أن ممارسة التحنيط قد ظلت معمولاً بها فى مصر المسيحية، بما فى ذلك أوساط الرهبان، وحوالى عام ٦٠٠ ميلادية، سنرى كيف ان الأسقف إبراهيم، أسقف هرمونتيس (أرمينت حالياً - م.) سوف يصدر تعليماته حتى يضمن أن يحنط...

وفى دوش أخرجت إلى النور بعض الأجسام من مقبرة، تابعة لجبانة أخرى غير الجبانة الرئيسية (والتي كانت محل أبحاث أولية عام ١٩٩٠) وكانت هيئة هذه الأجسام تشبه المومياوات التى وضعها الباحثان السابقان. إن حالة حفظ هذه الأجسام جيدة جداً فى الظاهر، وإن كانت تفوح من هذه المومياوات رائحة عفنة شديدة، الأمر الذى لاينطبق بشكل عام على المومياوات «الكلاسيكية». واللون يميل إلى اللون الرمادى، القريب الشبه من لون الرق، وهو يختلف كل الإختلاف عن لون المومياوات «السوداء» والمومياوات ذات اللون الفاتح وهو الأصفر الفاتح، التى عثر عليها فى الجبانة المجاورة. والأجسام غير ملفوفة بالفائف بمعنى الكلمة، بل إنها دثرت بالأخرى بكفن واحد كبير بما يكفى ليحتوى الجسم بالكامل. وقد تم تثبيت هذا الكفن فى مكانه بواسطة أشربة صغيرة.



شكل (٢٦)

تابوت مزخرف لطاوس. (رمز البعث) الجبانة المسيحية في كرامة  
القرن ٧/٤ م متحف هيدلبرج



إن الفك الأسفل لمومياوين (واحدة لرجل وأخرى لصبيّة) كان مثبتاً في مكانه بواسطة عصا حقيقية للذقن مربوطة عند قمة الرأس، وهو مالم يلاحظ أبداً من قبل على العديد من المومياوات التي أخرجت من مقابر دوش. (وهي الممارسة التي سجلتها أيضاً السيدة «پرومنسكا»). وشأنها شأن المومياوات المسجّية التي درسها «كاستل» و«پرومنسكا»، فإن مومياوات دوش كانت مكسوة تماماً بكتل من الملح، تشكل غطاءً حقيقياً. كما لم يظهر عليها فتحة لاستخراج الأحشاء. وأثبتت دراسة هذه المومياوات بواسطة الأشعة أن مستوى التحنيط لم يكن متدنياً. بل نجد في الغالب بعض السمات المعتادة، أي تضغط الأسطوانات الفقارية وبعض غضاريف الترابط. ولاريب أن هذه المومياوات وهي مومياوات مسيحية بالنظر إلى أسلوب دفنها وطران المقبرة (حيث عثر فيها على قطعة نقود تعود إلى السنوات ٣٧٥ - ٣٨٨م) يبدو أنها قد زامنت المومياوات «المصنوعة» وفقاً لتقنيات تقليدية تماماً وعثر عليها في سياق غير مسيحي.

ومع ذلك فقد تطورت «حلى» المومياوات: فبدلاً من لف الجسم باللفائف، فإنه يدثر في أغلب الأحوال بمجرد كفن واحد، كما لوحظ ذلك في دفنات الجبانة المسيحية في البجوات بالوحدات الخارجة. ولكن يحدث أن يرتدى المتوفى الثياب التي كان يرتديها في حياته اليومية. فقد احتفظ رهبان دير القديس مرقس بثيابهم كرهبان، وتغطيهم الأكفان. وعلى عكس ذلك، لا يوجد أى أثر للأكفان في العديد من مقابر «أنطنوه» الشيخ عبادة حالياً - م.، التي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث على الأكثر. وهكذا فإن مومياوين عثر عليهما في أنطنوه ويحتفظ بهما في الوقت الراهن متحف جرينويل Grenoble ترتديان ثوباً من الصوف بزخارف منسوجة وعلى رأسيهما إكليل من أوراق الشجر. ويمكن قول نفس الشيء بالنسبة لموميا امرأة تدعى «الطرازة» يقدر أنها من النصف الأول من القرن الرابع ويحتفظ بها حالياً متحف «بروكسل». ولو أن نوعية التحنيط ليست من الطراز الممتاز، كما يمكن الحكم عليه من مظهر الوجه، الذى لانرى سواه، فالثياب هي في المقابل من نوعية جيدة جداً، ومزخرفة زخرفة فاخرة. كانت المرأة ترتدى جلبابين على الأقل أحدهما فوق الآخر ولهما زخارف منسوجة ووشاحين مزدانين بأشرطة ودلايات زاهية الألوان تمثل عصافير وأسماكاً وزهوراً وعناقيد عنب، وكان على رأسها قبعة يعلوها مايشبه إكليلاً كثيفاً مصنوعاً من باقات من الصوف المتعدد الألوان. وكانت الرأس والقدمان تستند على وسادات زخرفت أيضاً بدلايات منسوجة. وفي أنطنوه أيضاً عثر على مجموعة من الأكفان الملونة، ترجع إلى نفس العصر (القرن الرابع)، وتمثل نساء يرتدين ملابس فاخرة: جلابب أرجوانية اللون لها دلايات، وأوشحة مشغولة، وكميات كبيرة من الحلى، وهو مايقودنا إلى

الاعتقاد ان دفن الموتى كان يتم فى الغالب وهم يرتدون أفضل ما عندهم من ملابس وليس فى أكفان بسيطة. ويمسك بعض هؤلاء النسوة بالصليب ذى العروة الذى أصبح رمزاً مسيحياً، ولكن هذا ليس سبباً لتأكيد أنهن مسيحيات.

وكما نرى لم يتخل المسيحيون عن التحنيط الذى لم تحرمه على كل حال النصوص الدينية القانونية. فقد تتفق عقيدة البعث فى آخر الأزمنة كل الاتفاق مع الإهتمام بالمحافظة على الجسد الذى كان وراء الباعث إلى التحنيط. أضف إلى ذلك، ان أية محاولة لمناهضة تقليد قديم كل القدم وراسخ الجذور محكوم عليها بالفشل بلا أدنى شك. وتظهر بوضوح ذكريات التقنيات القديمة الخاصة بالتحنيط التقليدى فى نص قبلى عن سيرة حياة الراهب باخوم (مؤسس الرهينة):

«إذا أوشك الإنسان الأثم على مفارقة الحياة، يقف بجواره ملاكان لا يعرفان الرحمة، ويدخلان فى فمه أداة مثنية، تشبه الشص ويستخرجان روحه البائسة من جسده، ومن الملاحظ، أن هذه الروح سوداء ومظلمة».

نقلا عن الترجمة الفرنسية L. Th. Lefort, Vies coptes de Pachome p. 144 (145) -

وهذا النص هو بالطبع ذكرى مشوهة لتقنية استخراج المخ.

لقد عثر فى «أوكسيرنكوس» (البهنسا حالياً - م.) على شريط دُون عليه مدونة مسيحية، الهدف منها كما هو واضح ان تحمى جثمان المتوفى. كما انها تشهد فى نفس الوقت على رسوخ عقيدة البعث:

«قال يسوع: لا يدفن شئ إلا لينبثق من جديد».

(H. Ch. Puech, En quête de la gnose, II, p. 59 - 62)

ويمكن مقارنة هذه المدونة بتلك الواردة على الأكفان وتصور إهداءات لمختلف الآلهة «الوثنية».

وسواء فى الأساطير المسيحية أو فى الأساطير الوثنية، كان الناس عندما يتحدثون عن الدفن يقولون «الذهاب إلى الجبل». ويخبرنا نص يخص راهبات أول دير للراهبات انشئ فى مصر وهو دير «تابينيس» Tabennese:

«إن المتوفاة كانت توضع فوق مركبة، ثم تنقل إلى الجبل، وتسير الأخوات خلف المركبة، وفي مقدمتهن تسير «أمهن»...».

(Palla dius, Histoire Lausia que, xxxiii, 1 - 2)

إن العادة التي كانت شائعة جداً، في العصر اليوناني الروماني، وهي عادة الإحتفاظ في المنزل لفترة ما بجسد المتوفى المحنط، قبل دفنه، ظل معمولاً بها في الأوساط المسيحية. ويمكن تفسير ذلك بعدم وجود مقبرة جاهزة تحت تصرف الأسرة، عند حدوث الوفاة. بل وكان في الإمكان، حسبما يقول «ديودور» أن يرهن جسد المتوفى وفاءً لدين وضمناً له. إن هذه العادات الغريبة تؤكد «خزائن المومياوات» التي عثر عليها، في ابي الصير بالذات، وأيضاً البطاقة المرفقة بالدعو «سنبيسيس» والتي تخبرنا أن ٢٦١ يوماً قد انقضت بين تاريخ الوفاة وتاريخ الدفن. في حين أن سيرة القديس أنطون التي كتبها الأسقف اثناسيوس في النصف الثاني من القرن الرابع تخبرنا بما يلي:

«يحب المصريون أن يدثروا أجساد موتاهم الورعين ولاسيما الشهداء الأبرار منهم - أن يدثروها في الأكفان ويحيطوها بها. وبدلاً من دفنها، يسجونها على الأسرة ويحتفظون بها في منازلهم، اعتقاداً منهم أنهم على هذا النحو يكرمون الموتى...»

(Athanase, vie d'Antoine, 90)

ويعترض القديس أنطون على هذه الأعراف التي يرى أنها «غير مشروعة وغير مقدسة» ويطالب تلاميذه بالأ يتركوا كائناً من كائن، أن يحمل جسده في مصر، بل أن يدفن في مكانه.

ونرى أن السلطات المسيحية قد حاولت رغم ضغط التقاليد أن تقضى على بعض العادات الوثنية، وإن تعذر عليها أن تحرمها تحريماً قاطعاً. وربما كان ظهور الإسلام هو الذي وضع حداً نهائياً لممارسة التحنيط بأن فرض أن يوارى المتوفى التراب، والإكتفاء بأن يلف الجثمان فقط بكفن.

إن المرء لا يجد فارقاً كبيراً بين المقابر المسيحية والمقابر «الوثنية»، وذلك في المرحلة الأولى على الأقل، عندما كان المسيحيون والوثنيون يتقاسمون نفس الجبانة كما حدث في هواره والحيبة. ومع ذلك نلاحظ وجود تطور، لاسيما في البجوات. فالمقابر الجماعية، وهي الأقدم على ما يبدو، تتكون من مباني حقيقية من الطوب اللبن، لها واجهة على هيئة بوابة

معبد تكتنفها الأعمدة أو مكونة من عدد من الأروقة المقنطرة على هيئة عقد كامل، وتضم هيكلاً تعلوه قبة وبئراً محفورة فى الأرض تفضى إلى حجرة الدفن. وفى وقت لاحق تظهر عند الأطراف مقابر فردية تتجمع العديد منها حول «الكنيسة الكبرى»، انها مجرد حفر مكسوة بالطوب، قليلة العمق، وكانت مغطاة إما ببناء علوى مستطيل منخفض إلى حد ما، أو بأكوام من الركام مغطاة بطبقة طلاء. إن عادة دفن الموتى فى مقابر فردية حول الكنائس ستستمر على مدى قرون عديدة فى الأوساط المسيحية، فى مصر وغيرها من البلدان.

وتشهد الأوساط المسيحية على وجود عادة القربان الجنائزى. فقد عثر فى مقابر الحية على نقود وآلات وأوانى من الخزف وحلى وآلات موسيقية. كما عثر فى «أنطونه» على أوانى من الخزف والقاشانى أو من الألبستر، ومنتجات زجاجية ومسارج وتمائيل صغيرة من الطين المحروق. وقد تبرهن هذه الأشياء إما على وجود عقيدة استمرار الحياة أو أن المتوفى قد يحتاج إليها عندما، يبعث حياً.. وعلى كل حال، كانت توضع المسارج فى المقابر، كما جرت العادة فى العصر الفرعونى، وكما فى السابق، كان يحتفل بالذكرى السنوية بالمراسم الجنائزية. وتوضح بعض المقابر تعايش المعتقدات الوثنية والمسيحية جنباً إلى جنب. وهكذا ففى مقبرة من بلانة، فى النوبة، عثر على صليب من ذهب، وجعران وأشرطة من رصاص مطوية وشريط آخر، من ذهب، دونت عليه تعويذة سحرية باليونانية مع إبتهالات إلى «إيزيس».

ومع ذلك، وإذا كان المسيحيون و«الوثنيون» قد استطاعوا ان يتعايشوا معاً فى سلام لفترة طويلة، فى نفس القرى وفى نفس الجبانات، فقد جاء اليوم الذى هجرت فيه العادات الجنائزية التقليدية، ومن ثم فقد أهملت المقابر: ولاشك أنه لم يكن هناك من يجرؤ على تقديم القرابين المعتادة للأموات. وهكذا، نلاحظ أن «الرجال القديسين» المسيحيين، قد أقاموا خلوتهم، فى المقابر التى وقع عليها اختيارهم لوجودها عند حافة الصحراء، ولما توفره لهم من عزلة يسعون إليها. وهكذا فعندما قرر أنطون أن يهجر العالم، فقد انسحب إلى داخل مقبرة «وأوصدت عليه بابها». أما «باخوم»، مؤسس الرهبنة، فقد اعتاد فى شبابه أن يذهب إلى المقابر المليئة بالموتى ويمضى فيها الليل من المساء وحتى الصباح، مصلياً فى حضرة الله». وإذا كان النساك، أثناء إقامتهم فى إحدى المقابر، يجدون فيها بلا ريب «الموت الإجتماعى» الذى يسعون إليه، فيصبح فى وسعهم أن «يهجروا حياتهم»، إلا أنهم كانوا على ما يبدو لا يكتفون أى احترام للموتى الذين جاؤا يقلقون راحتهم. صحيح، إنه

وفقاً لحوار غريب دار بين القديس مقار الراهب ورجل وثنى ميت، عثر على جمجمته ملقاةً في الصحراء، فإن أولئك الذين «لم يعرفوا الله» محكوم عليهم ان يمكثوا بعد وفاتهم، وسط ألوان من العذاب، في مكان أسفل الأرض، وأبشعها ألا يروا بعضهم بعضاً وجهاً لوجه، حيث أن هؤلاء الموتى المساكين «ملتصقون ظهراً لظهر»... ومع ذلك، إذا صلينا من أجلهم، بين الفينة والفينة، «ففى وسع كل واحد منهم ان يرى وجه الآخر لفترة وجيزة». تلك هى الآخرة الغريبة والمرعبة، التى خصصها المسيحيون منذ الآن لأولئك الذين ظلوا لقرون عديدة ينظرون إلى الموت على اعتباره معبراً وفتحة لحياة النعيم.



## فهرست الكتاب

### الصفحة

٧	..... الفصل الأول : فجر التحنيط
٧	..... ١- إعمار مصر فى عصر ما قبل التاريخ
٨	..... ٢- الدفقات الأولى
١١	..... ٣- العادات الجنائزية فى العصر العتيق
١٦	..... الفصل الثانى : التحنيط فى الدولة القديمة
١٦	..... ١- تطور الأساليب التقنية.
١٨	..... ٢- العمارة الجنائزية.
٢٣	..... ٣- المعتقدات الجنائزية.
٢٨	..... الفصل الثالث : فن التحنيط فى ظل الدولة الوسطى
٢٨	..... ١- عصر الإنتقال الأول
٣٠	..... ٢- تقدم فن التحنيط فى ظل الدولة الوسطى
٣٣	..... ٣- الدفقات فى ظل الدولة الوسطى
٣٨	..... ٤- فنون التوابيت.
٤١	..... الفصل الرابع : التحنيط فى ظل الدولة الحديثة
٤١	..... ١- عصر الإنتقال الثانى.
٤٢	..... ٢- اكتشاف المومياوات الملكية.
٤٩	..... ٣- تجهيز المومياء.
٥١	..... ٤- الأثاث الجنائزى.
٥٤	..... ٥- المقابر.
٥٦	..... ٦- الحلود الأوزيرى.

٦١ ..... الفصل الخامس: العصر المتأخر

٦١ ..... ١- مرحلة الإنتقال الثالثة.

٦٧ ..... ٢- العصران الصاوي والفارسي.

٧٣ ..... الفصل السادس: العصران اليوناني والروماني

٧٣ ..... ١- التحنيط في العصر اليوناني الروماني.

٧٩ ..... ٢- التوابيت والكارتوناچ.

٨٣ ..... ٣- المقابر.

٨٩ ..... ٤- المعتقدات الجنائزية.

٩٢ ..... الفصل السابع: من الوفاة إلى مراسم الجنازة

١٠٧ ..... الفصل الثامن: مومياوات الحيوانات

١١٠ ..... ١- الحالات الخاصة للثيران المقدسة.

١١٤ ..... ٢- التماسيح المقدسة.

١١٧ ..... ٣- حالات القطط

١١٩ ..... ٤- الطيور.

١٢١ ..... ٥- الكباش.

١٢٣ ..... الفصل التاسع: نهاية التحنيط

١٣٣ ..... الفهرست



## من إصدارات دار الفكر

### مصريات

- ١ - أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة ٢٢٤  
صفحة ط ١٩٨٨
- ٢ - الناس والحياة في مصر القديمة  
١٧٦ صفحة ط ١٩٨٩
- ٣ - موسوعة الفراعنة  
الأسماء والأماكن والموضوعات  
٢٩٥ صفحة ط ١٩٩١
- ٤ - تاريخ مصر القديمة  
١٢٥ صفحة ط ١٩٩٢
- ٥ - شامبليون في مصر  
الرسائل والمذكرات ٤٥٦ صفحة ط ١٩٩٢
- ٦ - الأدب المصري القديم  
١٤٦ صفحة ط ١٩٩٢
- ٧ - مصر القديمة  
١٨٦ صفحة ط ١٩٩٣
- ٨ - كيف بنى الهرم  
٨٥ صفحة ط ١٩٩٣
- ٩ - علم المصريات  
١٦٧ صفحة ط ١٩٩٤
- ١٠ - الدولة والمؤسسات في مصر  
من الفراعنة الأوائل إلى الأباطرة الرومان
- ١١ - مقبرة عبريا  
(كشف في سقارة) ٢٢٤ صفحة ط ١٩٩٦
- ١٢ - نصوص مقدسة ونصوص دينوية ج١/ج٢ ط  
١٩٩٦
- ١٣ - ماعت  
(مصر الفرعونية وفكرة العدالة الاجتماعية)  
١٩١ صفحة ط ١٩٩٦
- د . سيد القمني  
دومنيك فاليل  
ترجمة : ماهر جويجاتي  
مراجعة: د. زكية طبو زاده  
باسكال فيرنوس  
جان يويوت  
ترجمة : محمود ماهر  
نيقولا جريمال  
ترجمة : ماهر جويجاتي  
مراجعة: د. زكية طبو زاده  
جان فرانسوا شامبليون  
ترجمة: عماد عدلي
- كبير لالويت  
ترجمة: ماهر جويجاتي  
مراجعة: د. طاهر عبد الحكيم  
جان فيركوتير  
ترجمة: ماهر جويجاتي  
دافيد ماکولاي  
ترجمة: د. طاهر عبد الحكيم  
دومنيك فاليل  
ترجمة : لويس بقطر  
جونيفييف هوسون  
مراجعة: د. زكية طبو زاده  
الان زيفي  
ترجمة: عماد عدلي  
كبير لالويت  
ترجمة : ماهر جويجاتي  
مراجعة : د. طاهر عبد الحكيم  
يان أسمان  
ترجمة : د. زكية طبو زاده  
و.د. عليه شريف

رقم الإيداع ٩٦/١٣٨٢٧

الترقيم الدولي I.S.B.N

977 - 5091 - 26 - 8



# المومياوات المصرية

من الموت الى الخلود

كان المصري القديم يؤمن بوجود حياة بعد الموت الذي كان يُنظر إليه على أنه مجرد معبر. فالموت ليس حالة نهائية بل انتقال بين شكل وآخر، من أشكال الوجود، إذا توفرت بعض الشروط.

ويحدثنا هذا الكتاب عن كل التدابير التي اتخذها المصري لضمان استمرار الحياة بعد الموت. فكان لابد من المحافظة على الجسد. ولذلك ازدهر فن التحنيط وفن نحت التماثيل كبديل محتمل للجسد في حالة تلفه.

ويستعرض الكتاب فن التحنيط في مختلف العصور وحتى العصر المسيحي، وإلى أن ألغى مع الفتح العربي الإسلامي. كما يستعرض مقابر الملوك والأشراف وعامة الناس وتطور التوابيت والمعتقدات الجنائزية والأسفار التي تُعين المتوفى على التغلب على المعوقات التي تصادفه في رحلته عبر دروب العالم الآخر وما يحتاجه من قرايين.

كان المصري القديم يعتقد أن الذهب هو لحم الآلهة ولذلك يتحدث إليه سفر التحنيط قائلا:

«سوق تتجلى ككائن من ذهب وسوف تتألف مثل الإلكتروم»!

منذ أكثر من عشرين سنة وفرانسواز دونان وروجيه ليشتنبرج يدرسان المومياوات والممارسات الجنائزية في مصر القديمة.

وقد عملا على وجه التحديد لفترة طويلة في موقع «دوش» بالواحات. يحاولان في هذا الكتاب، أن ينقلا حصيلة تجاربهما في أسلوب جديد، تاريخية لفن التحنيط وفقاً لتتابع زمني صارم، منذ أولى المحاولات، وحتى مطلع الألف الأول، وصولاً إلى طوره الأخير في القرن الخامس الميلادي.

